عائشة والتاريخ المُشوَّه

بقلم

عمرو الشاعر

كلمة الغلاف الخلفي

تباينت الآراء حول السيدة عائشة تباينا عظيما، فثمة من يجعلها في مرتبة القديسين الأبرار، وثمة من يجعلها في مرتبة الشياطين الأشرار!

ولأسباب عدة، أبرزها مشاركتها السياسية بعد وفاة النبي، أُثير حولها الكثير والكثير من الشبهات والمطاعن، التي لا تزال تلاحقها إلى يومنا هذا، وتمس النبي المصطفى تباعاً، ويتخذها كل كارهٍ للدين أو للصحابة متكئا لتشويه الرموز.

ونحن في هذا الكتاب إذ نتناول السيدة عائشة، فإننا نبدأ بالحديث عن التاريخ عامة، والفارق بينه وبين الدين، وكيف أن التأريخ البشري محكوم بالنقص والخلل!

ثم نعرض بعد ذلك لأهم الأحداث والمواقف في حياة السيدة عائشة، وأهم الاتهامات التي رُميت بها، وأهم الشبهات التي لحقت بالنبي وبالدين الحنيف تباعاً، مقدمين قراءة جديدة لهذه المواقف، تقضي على الشبهات المثارة حولها، كردٍ للجميل الذي قدّمته السيدة عائشة!

كما نعرض لنماذج من التحريفات التي وقعت في الأحاديث المروية عن النبي، والتي كانت لها السيدة عائشة بالمرصاد، فصححت وردت، فكانت خير عبد، يرد عن دينه ما ليس منه، ويغلق الباب في وجه الشبهات والمطاعن!

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، رب الأولين والآخرين، خالق السماوات والأراضين، المتفرد بالجلال والكمال، المتعالي عن الصاحبة والولد والشبيه والمثال! غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير! له الخلق والأمر وإليه المرجع والمآب! تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، سبوح قدوس رب الملائكة والروح! عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الحكيم الخبير!

ونصلي على الهادي البشير، السراج المنير، خاتم النبيين والمرسلين ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد، من فتح الله به أعيناً عميا، وآذانا صما وقلوبا غلفا! فأخرج الناس من الظلمات إلى النور! ونسلم له التسليم المبين!

ونصلي على إخوانه النبيين المرسلين ونقتدي بهديهم أجمعين، كما أمر نبيَنا ربُ العالمين، فهم المهتدون الذين هدى الله، فبهداهم اقتده! ومغفرة وعفوا وغفران من الرحيم الرحمن، للمسلمين في كل زمان ومكان من الأولين والآخرين، المتبعين صراط الله المستقيم، ثم أما بعد:

ليس إنسان اليوم مثل إنسان الأمس، وحتما فإن إنسان الغد متميز عن إنسان اليوم! وهذا التغاير غير واقع بداهة على الجانب الجسدي ولا حتى العقلي، فجسد الإنسان وعقله لا يتغيران، وإنما التمايز كله في الجانب المعرفي للإنسان، فهذا الجانب هو الذي يتغير من عصر لآخر، تغيّرا تراكميا هرميا، يستفيد فيه اللاحق من السابق ويبني على ما قدمه. وإن حدث ورفض اللاحق نتاج السابق أو انقطع التواصل بينهما، فإن الإنسان يجد نفسه مجبرا على بدء الرحلة البشرية من أولها بمفرده!

وعبر الزمان أخذ كل جيل من الأجيال البشرية يسلم التالي له نتاج فكره، وعلمه وعمله .. وتاريخه! وهكذا أصبحت الحوادث التي مرت بها المجتمعات أو حتى الأفراد، من المعارف التي يجب على الإنسان الإلمام بها!

وعلى الرغم من أن "الآبائية" من الخصال المذمومة، إلا أنها كانت الدافع الرئيس عند كثير من البشر، لذكر الحوادث التي مر بها أسلافهم، وتمريرها إلى من بعدهم! كمحاولة يائسة من الإنسان للحصول على الخلود والبقاء! فإن لم يبق الإنسان ببنيانه .. فليبق بذكراه وتاريخه .. وزمانه!

وكذلك كان القَص والإخبار محاولة إيجابية للتعظيم وللذكر! لأن العام السائد في حياة الإنسان معهود مكرور! ولا يقع في حياته إلا القليل من الحوادث العظيمة المهمة، لذلك فإنه يكون حريصا أشد الحرص على أن لا تُنسى هذه الحوادث وعلى أن ينقلها إلى من خلفه!

ولأن الإنسان كائن مجبول على استكشاف الطبيعة واستنكاه ما حوله، يشغل الفضول وحب المعرفة حيزا كبيرا في داخله، أصبحت أخبار السابقين وقصصهم عنصر تشويق كبير له، لما تكفله له من معرفة ذلك الغيب!

ولأن الغيبيات التي تحيط بالإنسان كثيرة، واستكشافها غير آمن وغير مؤكد أو غير ممكن! وعظيم الكلفة في عين الوقت[1]! ولا يقدِم على استكشافها إلا شجعان عظام، أصبح الماضي ذلك الغيب المستباح .. السهل، الذي لا يكلف إلا إصغاء الآذان أو قراءة السطور ذلك الغيب الذي يعطي العقل فرصة للتصور والتخيل ... ذلك الغيب الذي يعطي الإنسان فرصة ليحيى حياوات كثيرة، وهو آمن في بيته معافً في بدنه! لا يخشى عاقبة ولا خسرانا!

---

[1] إذا أردنا استكشاف غيب مكاني (غابة مثلا) تعرضنا لمخاطر الحيوانات المفترسة والسامة ... وإذا أردنا استكشاف المستقبل فلا سبيل أكيد للتحقق من أخبار المخبرين إلا عندما يصبح المستقبل واقعا! ناهيك عن الغيبيات التي لا يمكن للإنسان اكتشافها (الغيبيات الإيمانية)!

وعلى الرغم من أن كل الأمم أقدمت على تدوين الحوادث المهمة في رحلتها منذ وجودها! سواء كان ذلك للافتخار أو لتعظيم السابقين أو للتسلية أو للعبرة والعظة، إلا أن التاريخ في حياة كل الأمم يظل ماضيا! .. ماض قد ولى وانقضى! على الإنسان الاستفادة منه بالبناء عليه وتجنب أخطاء السابقين!

إلا أن الوضع اختلف عندنا نحن معشر المسلمين! فبدلاً من أن يكون ماضينا العريق وتاريخنا التليد دافعاً لنا إلى الأمام، كان سببا في انقسامنا وشتتانا وتمزق شملنا! وبدلا من أن نسعى إلى لمّ الشمل، توقفنا عند ذلك الماضي ولم نتجاوزه! وذلك لأن تاريخنا اختلط عندنا بديننا! فأصبح التاريخ من الدين!

فمنّا من اكتفى بمفاخر السلف وأخذ يبكي على اللبن المسكوب! ومنّا من أحيى الماضي في الحاضر! وأخذ يتصارع حوله! يحاول كلٌ منا إثبات صحة وصواب ما فعله آباءه وأجداده وسلفه! فحتما هم الصالحون وفعلهم هو عين الرشاد! وقدست كل جماعة سلفها .. أو كادت! أما الآخرون فكانوا على ضلال مبين، وهم الذين بذروا بذرة الضلال وهم أساس الفتنة! ولولاهم لانصلح حال الأمة، ولظلت على طريقها المستقيم!

ولأن الإسلام لم يكن يوما فكرة فلسفية مجردة، أتى بها فيلسوف في غفلة من الزمان! أو محاولة غير ناجحة، جاء ذكرها في زاوية في صفحات كتب التاريخ، وإنما كان زرعا ربّانيا، غُرس في جزيرة العرب وآتى أكله بسرعة عاتية، وانتشر في أنحاء البسيطة حتى أصبح ملء العين والسمع، كان المألوف أن يكثر أعداءه، وأن يبحث هؤلاء عن مطاعن يطعنون بها في هذا الدين العظيم!

ظناً منهم أنهم بهذا يهدمون صرح هذا الدين أو يصدون الناس عنه! يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره! فأخذ بعضهم يطعن في كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه، بأن يختلق الشبهات من عند نفسه! أو

يأخذها مباشرة من أقوال المفسرين في كتب التفاسير[2]! وأخذ بعضهم يطعن في شخص الرسول الكريم مباشرة! انطلاقا من مبدأ أن فساد حامل الرسالة معْلمٌ بفساد الرسالة نفسها[3]!

وأخذ آخرون يطعنون في الرسول والإسلام بطريق غير مباشر، انطلاقا من قول المسيح: من ثمارهم تعرفونهم! وذلك بالقول بأن النبتة التي غرسها القرآن والصنعة التي صنعها النبي كانت نبتة فاسدة، أهلكت الحرث والنسل وسعت في الأرض فساداً!

ولما كان الصحابة[4] رضوان الله عليهم هم خير نبتة وأفضل صنعة، وهم بمثابة النتاج الأول للإسلام، والرموز لمن خلفهم، نالوا أكبر نصيب من التجريح! فإذا كان هذا النتاج طالحا، فإنه لحريٌ أن يكون من بعدهم أشد طلاحا! ولدليلٌ على أن الإسلام إما دينٌ فاسد، لإخراجه هذه النبتة الفاسدة، أو دينٌ مثالي، قدّم بعض الأفكار والتصورات، لم تستطع أن تخرج جيلا واحدا صالحا! فما بالنا بباقي الأجيال، التي لم تمر بالتجربة النقية؟!

ولسوء حظ الصحابة فإن الطعن فيهم لم يأت فقط من غير المسلمين! وإنما أتى كذلك من بعض المنتسبين إلى الإسلام، من فرقة الشيعة! الذين رأوا أن الصحابة ارتدوا بعد النبي الكريم، أو خالفوا نصيباً كبيرا من تعاليم الإسلام، وطبقوها تبعاً لهواهم وليس كما قال الله وفعل الرسول!

---

[2] بيّنا في كتابنا الأول "لماذا فسروا القرآن" –والموجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com أن القرآن الكريم بيّن واضح لا يحتاج إلى تفسير! وإنما إلى منهج آخر، قدمناه في الكتاب! وأن المنهج الذي اتبعه المفسرون، وغير الخاضع لكتاب الله هو الذي أدى إلى إيجاد هذه التعارضات والتناقضات، والتي أخذها الآخرون ميسرة للطعن في كتاب الله تعالى! بينما يتعالى كتاب الله على الاختلاف!

[3] لو طبقنا هذه القاعدة على سيرة أنبياء بني إسرائيل الواردة في كتبهم لكان من الواجب عليهم أن يرفضوهم جميعا!

[4] تعريفنا وفهمنا للصحابة يختلف عن التعريف السائد للصحابي، فليس الصحابي ذلك الذي لقي النبي الكريم أو شاهده مرة أو مرتين، وإنما ذلك الذي لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وآمن به، وصحبه فترة يتمكن فيها من معرفة شرعه، والتخلق بأخلاقه، ثم مضى على نهجه، ومات على ذلك. ويمكن للقارئ الكريم قراءة تناولنا لإشكالية تعريف الصحابي في كتابنا: عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام.

والعجيب أنهم يقولون هذا ولا يرون في قولهم هذا إخفاقا للنبي الكريم في دعوته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاما! ولمّا كنا قد رددنا في كتابنا الأول سهام الطعن عن أصل الدين "القرآن الكريم"، وبيّنا أن سببها هو التناول البشري الخاطئ لكتاب الله تعالى، فإننا في كتابنا هذا نتناول قضية تشويه تاريخ المخالف، للاستدلال بذلك على بطلان معتقداته[5]!

وكل الفرق والجماعات المتناحرة عملت وتعمل على تشويه تاريخ وصورة الجماعات المعادية لها! وهي ترى أنها بعرضها هذا تقدم قراءة محايدة للتاريخ وللواقع، أما الآخرون فإنهم محكمون بالهوى! الذي يدفعهم للدفاع عن ماضيهم وآبائهم، حتى يظهر بمظهر طيب!

والحق أن في هذا الاتهام نسبة من الصحة، فالتعصب للآباء –والموجود في كل المجتمعات البشرية– دافعٌ عظيم التأثير، لإيجاد تبريرات لأفعالهم وأخطائهم، بحيث تبدو كأنها تصرفات مقبولة مُبرّرة!

وهكذا ينشأ كل جيل على قراءةٍ تبريرية مُحسّنة لتاريخ أسلافه، فلا يرى فيه إلا كل عظمة وفَخار، ويرى أن الآخرين هم الذين ارتكبوا الأخطاء الفادحة واعتدوا الاعتداءات الغاشمة، التي دفعت أسلافهم لفعل ما فعلوا! حتى أن الأمريكيين يفتخرون بتاريخهم المقتضَب المخضب بالدماء[6]!

---

[5] الحكم على صحة أو بطلان النظرية من خلال التطبيق يحمل جانبا من الصحة، إلا أنه ينبغي ألا ننتظر صحة التطبيق بدرجة تقارب **100%** حتى نقول أنها صحيحة، فالعنصر البشري والظروف المحيطة يؤثران بنسبة كبيرة في التطبيق! فإذا كان التطبيق سليما بدرجة كبيرة فإن هذا أكثر من كاف للمنصف لقبول صحة النظرية!

[6] على الرغم من أن الشعب الأمريكي شعب حديث التكون، إلا أنه نجح في تاريخه القصير أن يرتكب من المذابح ما يشيب لهوله الولدان! والتي يكفي من أجلها أن يتبرأ الإنسان المحايد من جنسيته الأمريكية، وأبسط الأمثلة على ذلك إبادتهم للهنود الحمر من أجل أن يستوطنوا هم في البلاد! وإلقائهم القنابل الذرية على اليابان، وإشعالهم الحروب في جميع أنحاء العالم من أجل بيع السلاح! وعلى الرغم من الطول الرهيب لقائمة الكوارث التي ارتكبتها تلك الدولة المأفونة "*غير المباركة من الرب*!" فإن الأمريكيين –وبكل عجب– يفتخرون بتاريخهم، وعندهم مبررات –عقيمة– لما فعله أسلافهم!!

وهكذا نشأت المجتمعات البشرية على قراءةٍ موجَّهة لتاريخها، وقراءةٍ محايدة أو حتى متجنية على الفرق الأخرى! فإذا وُجوهوا بقراءة محايدة لتاريخهم رفضوها وتعجبوا من التجني الواقع من الطرف الآخر! لذلك ليس من العجب أن نجد متجادلين يُقرّان بحدث تاريخي واحد، إلا أن قراءتهما له متباينة أشد التباين، فذاك يُمجد فعله سلفه، والآخر يسفهه ويعده هو وفاعله من أكبر الجنايات!

لذا فإننا نسعى في كتابنا هذا إلى نقد القراءة الموجَّهة للتاريخ من أجل التشويه! ولن نتناول محاولات تشويه التاريخ الإنساني أو العربي، وإنما سيقتصر حديثُنا على محاولات تشويه أهم مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، وهي مرحلة النتاج النبوي الأول، الصحابة رضوان الله عليهم.

ولأن الصحابة رضوان الله عليهم من الكثرة بمكان، ولأن تاريخهم عريض متشابك معقد، فإننا سنكتفي بتناول تاريخ أحدهم، لأن ما يصدق عليه يصدق عليهم. وسيكون تناولنا لأكثرهم إثارة للجدل، وأشهر من تعرض للانتقادات والتجريح، وهو السيدة عائشة زوج النبي الكريم، صاحبة التاريخ العظيم، الذي تعرض لمحاولات مستميتة لتشويهه، منذ قديم الزمان، لأسباب عدة!

تلك السيدة التي نشأت في الإسلام وعاشت في بيت النبي الكريم، فتشبّعت منه وتغذت به! والتي دافعت عن الإسلام وحافظت على تطبيقه نقياً، بعيدا عن التشوهات! كما تلقّته من النبي الأعظم: محمد بن عبد الله.

فإذا أظهرنا من خلال تناولنا لمواقف فاصلة حاسمة في تاريخ هذه السيدة العظيمة، التشويهات الكبيرة التي تعرض لها تاريخها، فإننا نكون بهذا قد قدّمنا للقارئ المحايد نموذجا واضحا لمحاولات التشويه التاريخية، يمكنه إسقاطه على باقي الشخصيات أو حتى المراحل التاريخية!

ولأن التشويه التاريخي لا يقع فقط من طرف المعادين المتجنين، وإنما قد يقع أيضا من التابعين المؤيدين، نتيجة للأعراض البشرية من سهو أو نسيان أو قراءة موجَّهة

للأحداث تنحو بها نحو المثالية أو التبريرية، فإننا سنعمد كذلك إلى نقد نماذج لبعض القراءات التحسينية التبريرية، وتبيان أنها –وإن كانت مغلّفة بحسن النية– غير كافية بحال لإقناع الطرف الآخر، بل ربما تكون سببا لتزعزع ثقة التابعين في منظومتهم الفكرية، ومدخلا لطعن الآخرين فيها!

وسنعمد –كعادتنا– قبل تناولنا لمحاور السيدة عائشة، إلى تقديم "تأصيل تأريخي" يتناول عددا من التعريفات، والإشكاليات التي وقع –ويقع– فيها التأريخ البشري! والتي لا يمكنه الفكاك منها، –بخلاف القصص القرآني– والتي لا مناصة من الانتباه إليها قبل إصدار أحكام تستند إلى التاريخ البشري! كما سنعمد إلى التنبيه إلى بعض الخصائص التي تميز بها "تاريخنا" عن باقي "التاريخ" البشري!

وبعد هذا التأصيل نعرج على سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تلك السيدة التي كانت محل جدل دائم بين المسلمين وغيرهم! فنتناول جل النقاط التي أثيرت الشبهات حولها في سيرتها، والتي تباينت فيها الآراء بين مادح وقادح! مبيّنين خلل القراءة الموجَّهة الصادرة من كلا الفريقين.

كما سنعمد إلى تناول جُلّ آراء السيدة عائشة رضي الله عنها، التي تفردت بها، لنُظهر كيف أنها رحمها الله كانت حافظة فقيهة، من الطراز الأول! من الذين يستحقون أن يُدرّس فكرهم، ويعدوا في عظام المفكرين! كما أنها حمت التطبيق النبوي من التشوه، الواقع من الرواة الناقلين، فكانت بذلك من أوائل نقاد التاريخ بدون أن تدري أو تعلم!

وفي ختام تقديمنا نقول: على الرغم من أن هذا الكتاب ليس كتابا تاريخيا يهدف إلى عرض حياة السيدة عائشة رضي الله عنها، وإنما يهدف إلى إظهار التشوه التاريخي الذي وقع لها، فإنه سيقدم لعامة القراء معلومات جديدة عن أم المؤمنين عائشة، لم يسبق له أن سمع بها! كما أنه كافٍ –بإذن الله وعونه– لإعطاء القارئ تصوراً شاملا عن تلك المرأة .. المسلمة العظيمة .. أم المؤمنين!

ونرجو أن يكون هذا الكتاب معولاً من معاول هدم الجدار الفاصل بين المسلمين، من خلال نزع القداسة عن تاريخنا "المُأسلم" وقراءته كتاريخ بشري، مكتوبٍ بأيد بشرية! وأن يكون أيضا كاشفا لمحاولات أعداء دين الرحمن لإطفاء نور الله بأفواههم، مُظهرا لسُبُلهم في التشويش والتشويه، مبطلاً لدعواهم الحياد والنزاهة، مؤكدا لزيغهم وضلالهم، كما نرجو أن يكون لبِنة من لبنات معرفة التاريخ وفقهه، ومن التاريخ ننطلق لصياغة مستقبلنا على أسس سليمة صلبة.

ندعو الله الرب العليم أن يرزقنا الإخلاص والثبات، وأن يجعل الكتاب خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون في ميزان حسناتنا، عملاً صالحا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وعمل قويم. وأن يتقبله منا وأن يتقبلنا بقبول حسن، وأن ينفع به إخواننا ويعمنا بفضله الكريم العظيم، وأن يهدينا ويهدي بنا! وأن يجعلنا هداة مهديين، لا ضالين ولا مضلين، وأن يغفر لنا الزلل والخلل، وأن يعفو عنا ويرحمنا! إنه ولي ذلك والقادر عليه!

العبد الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر

الباب الأول

التأصيل التأريخي

أصل "التاريخ"

كعادتنا قبل أن نتناول موضوعاً ما فإننا نقدم تعريفا لُغويا للمصطلح الدال عليه، والموضوع الرئيس الذي نتناوله هو: التاريخ، فما هو أصل هذه الكلمة، وممَ اشتُقت، وماذا كانت تعني ابتداءً؟

لم تكن كلمة "تاريخ" ناهيك عن "تأريخ" مشتهرة عند العرب قبل الإسلام، ولا في زمان النبي كذلك، ومن ثَم لم تكن شائعة الاستعمال! لذلك اختلف العلماء في أصلها! فقيل أنها غير عربية[7]! وأنها مما دخل العربية من لغات أخرى! فقيل أن أصلها يرجع إلى اللغة الفارسية، وأنها أُخذت من "ماه روز" والتي تعني حساب الشهور! وضع ما شئت من علامات التعجب! فما وجه القرب أو الشبه بين "ماه روز" وبين كلمة "تاريخ"؟!!! فثمة فارق كبير في النطق، يجعل المرء يجزم باستحالة أن تكون هذه الكلمة مُحوّرة عن تلك! وقيل أنها أُخذت من لفظة "أرخو" الأكادية، والتي تعني: القمر، لأنه بتغير منازل القمر تتغير الأيام[8]، ومن ثم تحدث عملية لحساب الزمان "تأريخ"، وقيل أنها مأخوذة من العبرية، من لفظة "يرح" أو "ياريح"، والتي تعني أيضا القمر!

ويشكك الدكتور سالم أحمد محل في هذه الأقوال، فيقول: "إضافة إلى ذلك فإن احتمال استعارة اللغة العربية لهذه الكلمة من الأكادية مستبعد، كما أن وجود الحرف (ي) في الصورة العبرية والآرامية لهذه الكلمة، يجعل الافتراض ليس محتملاً، باستعارة الكلمة من العبرية أو الآرامية. وفي بحثه عن أصل كلمة تاريخ في العربية، يستبعد روزنثال أن تكون هذه الكلمة مأخوذة من الإثيوبية، إذ لو كانت كذلك لبقيت الكلمة في اللغة الإثيوبية لحد الآن .. كما أنه يستبعد أن تكون الكلمة قد استُعملت –أو

---

[7] هذا هو دأب المستشرقين ومن يسير على خطاهم! فهم يحاولون أن يسلبوا العرب والعربية أي مظهر من مظاهر الحضارة والتقدم، ويجعلونها مما أخذه العرب عن غيرهم! حتى إنهم ادعوا عدم عربية كثير من الكلمات المحورية في حضارتنا وديننا!

[8] استخدمت الحضارات العربية القديمة القمر كوحدة لتحديد الأشهر، وهو ما صدّق عليه القرآن، إلا أننا استعضنا عن ذلك بالشهور الشمسية، تقليدا للغرب!!

كانت مُستعملة– في اللهجات العربية الشمالية قبل الإسلام، لعدم وجود مراكز ثقافية متقدمة في تلك الفترة، مما جعله يخلص إلى تغليب الظن باحتمال أن يكون أصلها من العربية الجنوبية. ويرجح شاكر مصطفى أن يكون جذر الكلمة (ورخ) جذر سامي، ولكنه مأخوذ من لغة اليمن الجنوبية وليس من كلمة (يرح) أو (ياريح)، العبرية أو السريانية. (...) ويصر العروي على عروبة مصطلح "التاريخ"، فيقول: "إن تأليف التاريخ الإسلامي من إبداع العرب، لقد فشلت المحاولات للعثور على مؤثرات خارجية، يونانية أو فارسية، على غرار ما كشف عنه المنقبون من مؤثرات أجنبية في الفلسفة وعلم الكلام .. ليس التاريخ الإسلامي نقلاً أو اقتباسا أو استعارة من الغير .. إن كلمة (تاريخ) كلمة عربية، والكلمة الأجنبية (أسطوريا[9]) التي كان من الممكن استعارتها، استُعملت فعلا، لكن في معنى آخر للتعبير عن القصص الخيالية والميثولوجية التي لا تخضع لقوانين المراقبة والفحص والتدقيق، كحوادث التاريخ القريبة أو البعيدة[10]" اهـ

ويؤكد محمد أحمد الكامل الرأي السابق القائل بأن كلمة "تأريخ" مأخوذة من جنوب الجزيرة العربية، فيقول: "مما تجدر الإشارة إليه أن جلال الدين السيوطي خالف شيخه الكافيجي في الرأي القائل بأن أصل التاريخ الذي أخذه المسلمون هو مُعرب عن من اللغة الفارسية، حيث تجاهل هذه الرواية وركز على الروايات، التي تؤكد أن المسلمين استمدوا التاريخ من اليمن، حيث ذكر أن أول من أرّخ الكتب يعلي بن أمية وهو باليمن، عندما كان أميراً لها في عهد عمر. وهذا يؤكد الرأي الصحيح في الأصل الذي استمد منه المسلمون فكرة التاريخ لتحديد أوقات الأحداث، وهو ما أُثبت من خلال النقوش اليمنية المكتوبة بخط المسند التي تستخدم لفظ التاريخ استخدامين:

---

(9) كلمة **Historie** الألمانية أو **History** الإنجليزية مأخوذة من كلمة "أسطورة" العربية! والتي لا تعني القصة الخرافية، وإنما تعني كتابة مسطورة! فالقرآن عندما يتحدث عن الأساطير فإنه لا يقصد القصص الخرافية، وإنما يعني كتابات السابقين المسطورة في كتب (جلدية أو ورقية ... إلخ) والتي حصل عليها المتأخرون!

(10) سالم أحمد محل، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، العدد **60**، ص.**78**.

الأول: بمعنى تحديد الوقت.

والثاني: بمعنى الأحداث التاريخية نفسها، وهذا يفصل الأمر بالتأكيد بأن كلمة "التاريخ" دخلت الثقافة الإسلامية عن اللغة اليمنية القديمة.

ويؤكد السيوطي ذلك –الأصل اليمني لكلمة تاريخ– عبر رواياته المختلفة ومنها قوله: "قال ابن أبي خيثمة: أنبأنا علي بن محمد –وهو المدائني– أنبأنا قرة ابن خالد، عن بن سيرين: أن رجلا من المسلمين قدِم من أرض اليمن، فقال لعمر: رأيت في اليمن شيئا يسمونه (التأريخ)، يكتبون من عام كذا وشهر كذا، فقال: إن هذا لحسن، فأرخوا." ولم يستخدم المسلمون كلمة (التاريخ) للدلالة على الأحداث حسبما جاءتنا من إشارات إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة، إذ كانت كلمة (الأخبار) هي المستخدمة في هذا المعنى. بينما كان أهل اليمن قد استخدموا كلمة (أرّخ) للتعبير عن الأحداث من قبل الإسلام.[11]" اهـ

والمعنى اللغوي الأول للتأريخ هو: الإعلام بالوقت أو تعريف الوقت، فعندما أقول مثلا: سافرت عند صلاة الظهر، فإنني أبيّن الوقت الذي وقع فيه الحدث، وهو وقت صلاة الظهر. والمشتهر في بناء المصدر من هذه الكلمة هو "تأريخ"، فيقال: أرّخت تأريخا! وهذه هي لغة قيس، ومن الممكن أن يقال: ورّخت توريخا، وهي لغة بني تميم، وكلا الاستعمالين جائز، وإن كان الأول أكثر تداولا.

إذا وكما رأينا فإن الكلمة عربية الأصل، عربية الاستعمال، وليست مأخوذة من أي لغة أخرى! وننتقل إلى النقطة التالية، وهي: تاريخ ظهور وانتشار هذا المصطلح!

---

(11) محمد أحمد الكامل، من مقال بعنوان "أثر الوعي التاريخي اليمني في الوعي التاريخي العام في الإسلام"، من موقع الصحيفة الإليكترونية: المؤتمر نت.

ظهور المصطلح وتطوره

على الرغم من أن مصطلح "التاريخ" تأخر ظهوره وانتشاره، إلا أن هذا لا يعني أن العرب لم يكونوا يؤرخون! فالفعل نفسه كان موجودا وإن كان بشكل مبسّط! فكان الجاهليون يعتمدون بعض الحوادث الشهيرة كنقاط قياس، يؤرخون منها، فكانوا مثلا يؤرخون من موت كعب بن لؤي، ولما وقعت حادثة الفيل الشهيرة أرّخوا منها، فكانوا يقولون مثلا: بعد عامين من عام الفيل ... إلخ، وأرّخوا بغير ذلك من الحوادث الكبيرة!

وكذلك كان الحال مع المسلمين أنفسهم، فكانوا يسمون الأعوام بأكبر حوادثها، تمييزا لها عن غيرها من الأعوام، فكانوا يسمون العام الأول من الهجرة بعام الإذن، أي الإذن بالرحيل "الهجرة"، والعام الثاني للهجرة كانوا يسمونه بعام "الأمر" لنزول الأمر بالقتال فيه، ... وهكذا!

إلا أن طريقة التأريخ هذه كانت تعتريها إشكالية كبرى، وهي أن هذه الحوادث الكبيرة الشهيرة، التي تُتخذ كمبتدأ وعلامة للتأريخ تصير بالتقادم غير محددة، فعندما أقول أن حادثةً ما وقعت بعد عامين من نار إبراهيم! فإن هذا لا يعطي أي إفادة عن وقت وقوع الحادثة! لأن زمن نار إبراهيم نفسها غير معلوم!

وعلى الرغم من خطورة هذه المسألة، إلا أنها لم تكن تمثل فارقا كبيرا للعربي، وذلك لأنه لم يكن لديه أي صيرورة تاريخية ولا أي تطلع إلى التطور! ولم تكن هناك أي دولة أو مملكة حاكمة تحتاج إلى معرفة أزمان الحوادث! فالأمس مثل اليوم والغد! فما النفع الذي سيعود عليه إذا عرف وقت وقوع الحدث تحديدا؟!

إلا أن الحال اختلف كثيرا مع وجود الدولة الإسلامية وتشعب أطرافها في أنحاء البسيطة، فلم يعد نظام الحياة البسيط هذا مُجديا قبالة هذه التطورات الطارئة! وكان على المسلمين إيجاد نظم جديدة للتمكن من حسن إدارة الأمور.

وتُجمع الروايات على أن إشكالية "التأريخ" ظهرت في عهد عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– ذلك العبقري الفاري! "وذلك حين كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر، أنّه يأتينا من قِبل أمير المؤمنين كتبٌ لا ندري على أيّها نعمل، فقد قرأنا صكاً محلّه شعبان[12]، فما ندري أي الشعبانين! أهو الماضي أم القابل.

وقيل رُفع لعمر صك محلّه شعبان، فقال: أي شعبان هذا، هو الذي نحن فيه أو الذي هو آت؟ ثم جمع وجوه الصحابة رضي الله عنهم وقال: إنّ الأموال قد كثرت وما قسّمناه غير مؤقت، فكيف التوصّل إلى ما يضبط به ذلك؟ فقال له الهرمزان –وهو ملك الأهواز، وقد أُسر عند فتوح فارس وحُمل إلى عمر وأسلم على يديه–: إنّ للعجم حساباً يسمونه ماه روز، ويسندونه إلى من غلب عليهم الأكاسرة. (فعرّبوا لفظة ماه روز، ومصدره: التاريخ[13] واستعملوه في وجوه التصريف، ثم شرح لهم الهرمزان كيفيّة استعمال ذلك.) فقال لهم عمر: ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة، فقال بعض من حضر من مسلمي اليهود: إنّ لنا حساباً مثله مسنداً إلى الإسكندر. فما ارتضاه الآخرون لما فيه من الطول، وقال قوم: نكتب على تاريخ الفرس، قيل: إنّ تواريخهم غير مسندة إلى مبدأ معيّن بل كلما قام منهم ملك بتدأوا التاريخ من لدن قيامه وطرحوا ما قبله، فاتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام من لدن هجرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد بخلاف وقت ولادته ووقت مبعثه صلّى الله عليه وسلّم[14]" اهـ

وسواءٌ ظهرت المسألة كإشكالية –كما جاء في هذه الرواية– بسبب تساؤلٍ من أبي موسى الأشعري أو من عمر نفسه، أم لم تظهر كإشكالية، وإنما كاستحسان من عمر بن الخطاب، –تبعا لروايات أخرى– عندما قص عليه قاص أن هناك شيء في اليمن اسمه "التأريخ"، أو عندما استحسن عمر بن الخطاب فعل أبي يعلى بن أمية، والذي

---

(12) وهذا يدل على وجود نظام بسيط للتأريخ وهو التأريخ بالشهور، إلا أن النظام لم يعد كافيا، لأن الشهور تتكرر كل عام!

(13) أي أنهم جعلوها "مورخ" ثم جعلوا المصدر منها: "التاريخ".

(14) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول، ص7.

كان عاملاً له على اليمن، وكانت كتبه تأتي عمر مُؤَرخة، –ولذا عُد أول من أرخ!– فأعجب عمر بذلك وأمر بالتأريخ!

سواء كان هذا أو ذاك، فالشاهد أن عمر هو أول من أمر بذلك، وعندما أمر بذلك واجهته الإشكالية المترتبة على ذلك، وهي بم يُؤَرخ؟ وكيف يكون العام؟ فتشاور عمر مع الصحابة حول تحديد عام يُبتدأ به تأريخ الحوادث للدولة الإسلامية، فرأى بعض الصحابة وفاة الرسول، إلا أن الرأي لم يلق قبولا لأنه تاريخ حزين، ورأى آخرون ولادته، ورأى غيرهم مبعثه!

إلا أن الرأي استقر على أن الهجرة تكون هي العام الأول في التقويم الإسلامي، لأنه لم يختلف حولها أحد، كما أنه من الممكن اعتبارها البداية الحقيقة للدولة الإسلامية، لأنها كما قال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل. بخلاف المرحلة المكية بأسرها، لذا اتخذوها كمبتدأ للتقويم الإسلامي، وبدأ العمل بهذا التاريخ في ربيع الأول في العام السادس عشر من الهجرة[15] النبوية المشرفة.

كما اختلفوا في كيفية ترتيب شهور هذا العام، فأراد بعضهم أن يجعل أوله شهر رمضان، لأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، وأراد آخرون أن يكون شهر ربيع الأول، لأنه الشهر الذي وُلد فيه النبي وقدم فيه إلى المدينة.

إلا أن هذا كان سيؤدي إلى أن تقع الأشهر الحرم في سنتين، فجعل عمر –ووافقه في ذلك عثمان– الشهر المحرم –والذي كان آخر السنة!– أول شهورها، لتجتمع الأشهر كلها في سنة واحدة!

---

(15) النبي الكريم لم يُهاجر وما كان له أن يُهاجر، وإنما أُخرج كما قال الله تعالى﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [سورة محمّـد ,١٣]، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ... ﴿٤٠﴾﴾ [سورة التوبة ,٤٠]، وقول النبي وهو خارج منها وهو ينظر إليها: والله إنك أحب بلاد الله إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت! ونحن نستعمل تعبير "الهجرة" نزولاً على الشائع المألوف!

وعلى الرغم من أن الكلمة بدأ استعمالها في عهد عمر بن الخطاب، إلا أنها احتاجت زمناً طويلا، حتى يُكتب لها الانتشار والعموم والاستبدال بالمصطلح القديم، كأي مصطلح جديد داخل على ثقافة المجتمع، وخاصة مع بدائية وسائل الإعلام!

وفي هذه الأثناء كان المجتمع لا يزال يستعمل المصطلحات القديمة المعتاد عليها، مثل: "الأخبار" كمصطلح دال على الحوادث نفسها، و"العد" كمصطلح دال على عملية التأريخ! ويظهر هذا في الرواية التي أوردها الإمام البخاري في صحيح، في باب: التاريخ، من أين أرخوا، عن الصحابي سعد بن سهل: "مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا مِنْ وَفَاتِهِ، مَا عَدُّوا إِلَّا مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ"

فنلاحظ أن الصحابي استعمل "عد" ولم يستعمل "أرخوا" لأن هذا المصطلح لم يكن قد انتشر بعد بالقدر الكافي! وبعد فترة من الزمان انتشرت الكلمة في المجتمع العربي وأصبحت مألوفة معروفة في الثقافة العربية، حتى أصبحت هي المصطلح العلمي المتداول، وبعد أن كانت كلمة مجهولة، استُعملت بمعانٍ عدة!

ويوجز الدكتور سالم أحمد محل التطورات التي مرت بها كلمة "التاريخ"، فيقول:"مرت كلمة التاريخ بتطورات عديدة في ثقافتنا، فقد بدأت بمعنى التقويم والتوقيت في صدر الإسلام، واستُعملت فترة بهذا المعنى، ثم صارت بمعنى آخر وهو تسجيل الأحداث على أساس الزمن، وكان الخبر يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية، ثم أخذت كلمة التاريخ تحل محل الخبر تدريجيا، وصارت تطلق على عملية التدوين التاريخي، وعلى حفظ الأخبار، بشكل متسلسل، متصل الزمن والموضوع، للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر والعملية الإخبارية، منذ منتصف القرن الثاني الهجري (...) ومنذ ابتداء القرن الثالث الهجري، صارت كلمة التاريخ تطلق على العلم بأحداث التاريخ وأخباره، وأخبار الرجال، والكتب التي تحوي ذلك، وحلّت كلمة التاريخ محل كلمة الخبر والإخباري، اللتين انحطت قيمتيهما العلمية قبل أن تختفيا

من الاستعمال في القرن الرابع الهجري. وأصبحت كلمة (تاريخ) في العربية، تحمل خمسة معاني:

1- سير الزمن والأحداث، أي التطور التاريخي، كالتاريخ الإسلامي، وتاريخ اليونان ...
2- تاريخ الرجال The Biography
3- عملية التدوين التاريخي، أو التاريخ، مع وصف لعملية التطور وتحليله وتقابل: Historiography.
4- علم التاريخ والمعرفة به، وكتب التاريخ، ويقابل: History.
5- تحديد زمن الواقعة أو الحادثة، باليوم والشهر والسنة: Date.[16]"اهـ

تعريف التاريخ

بعد أن تكلمنا عن أصل كلمة التاريخ ومعناها اللغوي، وعن ظهور المصطلح وتطوره، نتحول إلى التعريف الاصطلاحي للتاريخ، فما هو التاريخ؟ قبل أن نتحدث عن تعريف التاريخ، لا بد أن نذكر أن "التاريخ" يُستعمل بمعان ثلاثة:

1- "History كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على سطح كوكب الأرض منذ الأزل"، وكتعبير عن "تدوين التاريخ.

2- Historiography كتعبير عن العملية الفكرية الإنشائية، التي تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير الإنسان على كوكبه.[17]"

3- كما أن "ثمة استخدام ثالث لمصطلح التاريخ باعتباره علماً ونظاما تعليميًّا، إذ يقول المرء مثلاً: قسم التاريخ أو أساتذة التاريخ. وهذا الاستخدام حديث جدّا في الغرب الأوربي وأمريكا[18]"

---

[16] سالم أحمد محل، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، العدد 60، ص. 81-82.

[17] قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، ص27. (والكتاب أكثر من قيّم ويستحق القراءة والاقتناء!)

[18] المرجع السابق. ص26.

وبداهة فإن التعريف سيكون للمعنى الثاني، المُعبِّر عن العملية الفكرية الإنشائية، التي تحاول إعادة تسجيل وتفسير الإنسان.

كالعادة لم يتفق العلماء على تقديم تعريف اصطلاحي لعلم التاريخ، فوردت تعريفات كثيرة له، فقيل أنه: سجل ناطق بالأحداث التي عاشها الإنسان منذ أن بدأ حياته على الأرض. وقيل أنه: ربط الأحداث بالزمن أو وضع علامات على مسيرة الزمن لتحديد وقت وقوع الأحداث كما توضع العلامات على الطريق. وعرفه الإمام المقريزي، فقال أن التاريخ هو الإخبار عما حدث في العالم في الزمن الماضي.

إلا أن أشهر تعريفات التاريخ هو تعريف ابن خلدون، والذي يقول: "إذ هو (التاريخ) – في ظاهره– لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول. تنمي فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غّصها الاحتفال. وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال وفي باطنه نظرٌ وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعِلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق.[19]" اهـ

وكما رأينا، فالعلامة ابن خلدون أيقن أنه لا يمكن أن يقدم تعريف واحد للتاريخ، لذا اضطر إلى تقسيمه إلى ظاهر وباطن: ظاهر لا يزيد عن سرد وعرض الوقائع والأحداث! وباطن قائم على تحليل وتعليل للوقائع وأسبابها، وعد هذا من أصناف الحكمة!

ويقدم الإمام السخاوي تعريفا آخر للتاريخ، فيقول: "التاريخ في الاصطلاح: التعريف بالوقت الذي تُضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا، مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمّة وتجديد فرض وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد

---

[19] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة كتاب: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. والمشهورة ب: مقدمة ابن خلدون، ص.2.

وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدئ الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي، أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف ونحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفي سماوي كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضي كزلزال وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان، وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام، والحاصل أنه فن يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثيّة التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم[20]"اهـ

والناظر يجد أن الإمام السخاوي لم يفلح في أن يقدم تعريفا للتاريخ، وإنما تحدث عن ما يمكن أن يندرج تحته، لذلك وجدنا أنه يقول: "ويلتحق به ... وربما يتوسع فيه"، وفي نهاية المطاف نجد أنه يجعل التعريف الاصطلاحي هو عين المعنى اللغوي، فوظيفة علم التاريخ في رأيه تحديد زمان ومكان وقوع الحادثة!!

وعندما نظر سيد قطب إلى التاريخ، أهمل تماماً جانب السرد والعرض واهتم كل الاهتمام بالتفسير والتعليل، ويعلق محمد بن صامل السلمي، على تعريف سيد قطب له، فيقول: "وفي العصر الحديث عرفه سيد قطب بغايته، فقال: "التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان."

ولقد ركز هذا التعريف على اللب والغاية من دراسة التاريخ، وتدوين أخباره، وإلا فالحوادث والأخبار مهمة بلا شك، وهي لبنات البناء التي لا يقوم هذا العلم بدونها. وهذا التعريف قريب من تعريف ابن خلدون، لكن يبدو أن تعريف ابن خلدون أشمل، حيث نص على وجوب النظر في الأخبار وتحقيقها، كما أكد على النظر في العلل

[20] شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ص18،19.

والأسباب، إلا أنه ينحو منحى فلسفياً. في حين أن سيد قطب كان أوضح في إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامي.

"فالحاصل أن التاريخ علم نظري إنساني، يُبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت والتفسير والتعليل . ويشمل جانبين هما:

1- نقل الحدث بالرواية أو المشاهدة.

2- تعليله.[21]" اهـ

نقد مناهج التأريخ

كثيرةٌ هي كتب التاريخ التي دُونت بعد الإسلام، ويمكن تقسيمها إلى صنفين:

1- كتب عُنيت بالدرجة الأولى بتسجيل الحوادث التي وقعت في أو قبل زمان المؤرخ، وتعرضها عرضا مسلسلا من الأقدم إلى الأحدث! بل إن بعضها قام بتقديم تاريخ لخلق الكون وخلق الإنسان وتاريخه، من سيدنا آدم عليه السلام إلى أيام المؤرخ! مثل ما فعله الإمام الطبري في كتابه: "تاريخ الرسل والملوك" حيث تحدث عن خلق السماوات والأرض، وخلق سيدنا آدم، ثم تحدث عن الأنبياء قبل الرسول الكريم، ثم سيرة الرسول والخلفاء الراشدين بعده، ثم الدولة الأموية والعباسية، إلى أن أصبح يؤرخ لعصره في أواخر القرن الثالث الهجري! وكذلك فعل الإمام أبو الفرج بن الجوزي في كتابه: "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، حيث بدء بالحديث عن بدء الخلق واستمر حتى وصل إلى أواخر القرن السادس الهجري! وكذلك فعل الإمام ابن كثير في كتابه الشهير: "البداية والنهاية".

[21] محمد بن صامل السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، ص. 50!

2- كتب عُنيت بالدرجة الأولى بالأشخاص، فكانت تجميعا للروايات المتعلقة بهؤلاء الأشخاص وبالحوادث التي أحدثوها أو تعرضوا لها! مثل الكتب التي عُنيت بالسيرة العطرة، أو جزء منها: المغازي، كما فعل: ابن إسحاق في كتابه عن النبي الكريم، والذي اختصره ابن هشام، واشتهر بعد ذلك بسيرة ابن هشام!! ومثل كتاب الطبقات الكبير لابن سعد (168-230هـ) وكتاب: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري (555-630 هـ).

كما ظهر صنف آخر من الكتب عُني بالتقصي عن بعض الأفراد، وهي كتب الرجال في علم مصطلح الحديث، مثل كتاب: التاريخ الكبير للإمام البخاري. ومن الممكن القول أن هذه الكتب كانت تعتبر "إسلامية" أكثر منها تاريخية، لأنها كانت تمثل العمود الفقري لعلم مصطلح الحديث!

والناظر في كتب كلا الصنفين يجد أن جل اهتمام مؤلفيها كان قائما على الجمع والعرض والتنسيق! ولم يعمل هؤلاء على نقد الروايات التي كانوا يقدمونها في كتبهم! فقدّموا الكثير والكثير من الخرافات، التي كانت متداولة في زمانهم، والتي يأباها العقل السليم! كما كانوا يقدمون الرواية وما يناقضها!

كما اعتمدوا التوراة وكتب أهل الكتاب كمصدر معتمد لتاريخ الزمن القديم، بل ولتفسير القصص القرآني! على الرغم من أن القرآن يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النمل, ٧٦] فبدلا من أن يصحح القرآن ويصبح الحاكم على كتب السابقين، أصبح متبوعا لها، وأصبحت هي التي تفسره!!!

كما لم يحاول أي منهم أن يقدم تفسيراً للحوادث ولأسباب وقوعها، والتي بتكررها تتكرر الحوادث، أو العبرة التي تُستفاد منها، ويعلق زكريا بن خليفة المحرمي، على التناول السطحي لأحداث التاريخ من قِبل المؤرخين، فيقول: "واختلاف مناهج الكتّاب والمفكرين يرجع في جانب كبير منه إلى عدم التزام المؤرخين الإسلاميين

الأوُل في عملية التدوين التاريخي المنهجية التاريخية الكلية، التي تقرأ الأحداث في سياقها الكلي، ووفق معطياتها الزمانية والمكانية وأعراف البيئة وطبائع المجتمع وفقه لحظة الحدث التاريخي، بل اقتصروا في ذلك على ما يسميه محمد عابد الجابري ب "التصور الجزيئي للزمان"، حيث قال: (...) فلا بد من الإشارة مع ذلك إلى أن تصور المؤرخين الإسلاميين للحدث التاريخي كان محكوما إلى حدٍّ كبير بالتصور الجزيئي للزمان كما كرّسه المتكلمون. فالتاريخ عندهم هو (التوقيت)، أي تسجيل وقت حدوث الحوادث، ولما كان الوقت في التصور البياني يقوم على الانفصال، كما بيّنا، فإن نظرة المؤرخ في الحقل المعرفي البياني لا بد أن تكون مبنية هي الأخرى على الانفصال، وبالتالي فما سيُهمه هو تعيين وقت حدوث الحادثة، وليس علاقتها بما قبلها وما بعدها، مما يجعل من التاريخ عبارة عن (فعاليات البشر في أوقات معينة) ويجعل مهمة المؤرخ منحصرة في ضبط أوقات هذه الفعاليات. وهذا ما يعكسه تصورهم للكتابة التاريخية" وقد أشار ابن خلدون إلى تفشي هذه الظاهرة وخطورتها بالقول: "الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل، ولم تُحكّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنسان، ولا قِيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الثواب، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا وسمينا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمقياس الحكمة ...[22]" اهـ

ونحن وإن كنا نتفق مع ما قاله الأستاذ زكريا المُحرمي، إلا إننا نأخذ بعين الاعتبار أن هؤلاء المؤرخين كانوا ينتمون إلى التيار الإخباري، الذي يهتم بالجمع بالدرجة الأولى، ولم يكونوا منتمين إلى تيار عقلي، مثل المعتزلة، يعمل على نقد الأخبار! كما أنهم كانوا يضعون اللبنات الأولى لعلم جديد، في مجتمع يخطو خطوات واسعة في طريق

[22] زكريا بن خليفة المُحرمي، قراءة في جدليات الصراع السياسي بين الصحابة وانقسام المواقف حولها، ص. 4..

إنشاء حضارة جديدة، فشتان بين من يؤسس وبين من أتى بعد أن أصبح ثمة بناء فأصبح ينقد ويُعدِّل!

فانتقادنا المؤرخين أو العلماء القدامى لا يعني أننا نقص من قدرهم أو نعيبهم، وإنما يعني أننا ننبه القارئ أن كتاباتهم ينقصها الكثير والكثير، وأنها تحوي الغث والسمين، وأنها مجرد عرض يحتاج إلى التمحيص والتدقيق والرد! وأنها تحتاج إلى معالجة جديدة بأسلوب علمي، يُمكِّن القارئ من الاستفادة بالمادة العلمية المعروضة فيها، وإذا اكتفى القارئ بقراءة التاريخ من الكتب القديمة، فلن يستفيد مما قرأ إلا معرفة بعض الحوادث التي ربما وقعت في ذلك الزمان، ولن يزيد الأمر عن قراءة بعض القصص، التي يجد المرء فيها متعة وتسلية! أما أن يخرج منها بفائدة من الفوائد التي من أجلها كُتب التاريخ وقَص القرآن، فلن يكون!

لماذا ندرس التاريخ؟

كثيرٌ منّا يحب القراءة في كتب التاريخ، لما في عنصر التشويق، لأنها تقدم له قصصا ليست بالخيالية وإنما واقعية، حدثت في أزمان ماضية، فيُثري بذلك خياله، ويزيل بعضا من غموض ذلك الغيب، المُسمى: الماضي!

ولكن هل ندرس التاريخ من أجل هذه الإثارة وتلك اللذة؟ هل ندرسه من أجل التسلية، وإضاعة الوقت أو ملء الفراغ، ومعرفة بعض القصص التي نتفاخر بها ونقصها على غيرنا؟! للأسف كثيرٌ يفعل هذا لذاك، ولكن هل لهذا ينبغي أن ندرس التاريخ؟ بالطبع لا، فينبغي أن نغير نظرتنا إلى التاريخ من كونه مجرد قصص وأحداث لا علاقة لها بنا ولا تؤثر فينا، وننظر إليه على أنه ذاكرتنا .. نعم، ذاكرة! فالبشرية مرت وتمر بنفس المراحل التي مر ويمر بها أي وكل إنسان، فهل يمكن لأي إنسان أن يحيى فاقد الذاكرة؟!

إن كل إنسان يستعمل ذاكرته ليتمكن من مواصلة حياته، بالبناء على ما قدّم! والذي يفقد ذاكرته يضطر للبدء من نقطة الصفر! والمشكلة الكبرى أن عامة البشر يظنون أن لا فائدة كبيرة في التاريخ–بسبب تباعد الأزمنة–! وأن الحوادث التي وقعت في الماضي لا تؤثر في حاضرهم وليس لها أي علاقة بمستقبلهم!!

وهكذا أصبح حال البشرية مثل ذلك الإنسان الذي يظن أن ماضيه لا يؤثر فيه! وأنه يكفيه معرفة الأحداث التي مر بها في أسبوع أو شهر! ويتعمد أن ينسى ما عدا ذلك! وسواء شئنا أم أبينا فإن الماضي يؤثر في أفعالنا وفي صياغة أفكارنا وتوجهاتنا ونظرتنا إلى الآخرين، وإلى العالم من حولنا، بل وفي تطلعاتنا المستقبلية!

وليست المسألةُ مسألةَ ذاكرةٍ فحسب، وإنما خبرةٌ يكتسبها الإنسان من الأحداث التي مر بها وعايشها! فكم من الناس –وخاصة النساء– له ذاكرة حديدة، يتذكر جيدا جل ما مر به، وعلى الرغم من ذلك يعيد نفس الأخطاء والحماقات التي ارتكبها في صغره وشبابه! وذلك لأنه لم يتعلم من الخبرات السابقة، ولم يفهم المعاني التي تحتويها، ولم يعي الأسباب التي أدت إلى وقوعه فيها! لذلك يكون الجسد كهلاً، والعقل طفلا!

فالإنسان الذي فقه التجارب التي مر بها وعايشها فقد أخذ خبرة حياة واحدة محدودة، ولكنه لن يستطيع أن يتعامل وينفع ويؤثر بها لفترة طويلة، لأنه سيكون قد بلغ من العمر أرذله، أما إذا قرأ التاريخ وفقه أحداثه فسيأخذ خبرات حيوات طويلة عاشتها أجياله ممتدة من البشر، لهذا قيل: "من قرأ (فقه) التاريخ فقد عاش الدهر كله" وقيل: "من حفظ التأريخ فقد أضاف أعماراً إلى عمره"

فتصور كم ستكون خبرة الإنسان، وكيف سيكون حكيما في أفعاله، ذلك الذي عاش الدهر في سنوات قصار!! إذا، فالغاية الكبرى لدراسة التاريخ هي تواصل الأجيال البشرية وعدم فقدان الإنسان لذاكرته، وبناءه على ما قدم السابقون، ويمكن تفصيل هذه الغاية وبيانها بذكر بعض ما يندرج تحتها من الثمرات:

1- معرفة الأخطاء التي وقع فيها السابقون حتى يتمكن اللاحقون من تجنبها.

2- استخلاص الحكمة من المواقف البسيطة التي مروا بها وتنفيذها في مثيلاتها من المواقف المعقدة التي نحياها، فما هي إلاها ولكن بشكل أعقد.

3- تثبيت إيمان المؤمن بالله عز وجل، حيث يستطيع أن يرى فيه تحقق وعوده، بينما قد يموت الإنسان ولمّا يراها تقع!

4- معرفة الإنجازات الكبيرة التي أنجزها السابقون مع قلة إمكانياتهم، فنقتدي بهم!

5- اتخاذ القدوة الحسنة من الأبطال القدامى –مثل الأنبياء ومن تابعهم– وإتباع هديهم، فهم خير مُحفز، وخير دليل على إمكانية التغيير.

6- زيادة انتماء الإنسان إلى ثقافته ومجتمعه، بمعرفته بتضحيات آباءه

7- فهم الآخر والتنبؤ بأفعاله، من خلال معرفة تاريخه[23]!

8- مساعدتنا على فهم الواقع، فالتاريخ هو خير مدرسة لتكوين الفرد أو الحاكم الناجح، الذي يستطيع أن يقود عائلته أو أمته بأمان ويجنبها الصدمات والصراعات!

وهناك الكثير من الفوائد الأخرى، سنذكرها في العنصر القادم عند حديثنا عن قصص القرآن.

قصص القرآن

لم يرد في القرآن الكريم كلمة "تاريخ" ولا أي من مشتقاتها، وكذلك في الأحاديث النبوية، وإنما استعمل القرآن مصطلح "القصص". ومما يُؤسف له أن هذه الكلمة أصبحت مرادفا للحكايات المختلقة، والتي لا أصل لها في الواقع، وذلك لبعدنا عن بناء حضارة قائمة على القرآن، تستعمل مفردات الكتاب، كما جاءت فيه.

---

[23] هناك مقولة شهيرة تقول: من عرف لغة قوم أمن شرهم! وأرى أنه من الأفضل أن تكون: من عرف تاريخ قوم أمن شرهم!

والناظر في القرآن يجد أنه قدّم كثيرا من القصص، والتي تشترك في غاياتها مع التاريخ، إلا أنه لم يقم بالتأريخ! فليس الغرض من الكتاب عرض كل الأحداث التي مر بها البشر مسلسلة، ففي هذا إعادة وتكرار، وفي بعضها الكفاية والغناء!

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة النساء, ١٦٤] لذا فقد اكتفى القرآن العظيم بعرض أهمها وأعظمها وأحسنها لينتفع بها الناس: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة يوسف, ٣]

ويختلف القصص القرآني عن التاريخ القائم على الظن في ثبوت الحدث، وعلى احتمال عدم وصوله كاملا للمؤرخ، واحتمال الخطأ في فهم المؤرخ، وعلى احتمال الهوى في عرضه، فيُعرض مدَلسا أو يُخفى بعضه ويُذكر بعضه، وعلى عدم دقة القنوات الإخبارية الناقلة للخبر، لما يعرض للبشر الناقلين من سهو أو نسيان أو لبس أو خلط أو هوى!

يختلف القصص القرآني عن هذا كله في أنه قصص يقيني، قصص حق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٦٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ٦٢] وهو قصص حق لأنه قُص بالحق: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ... ﴿١٣﴾﴾ [سورة الكهف, ١٣] وكونه قُص بالحق راجع إلى مزية لا يمكن أن تتوفر بحال لأي مؤرخ على وجه الأرض في أي زمان، –مهما حاز من الوسائل والأدوات– وهي أن القاص كان شاهداً، وهو عالم بالأسباب والمبررات والدوافع! ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧] فحتى لو كان المؤرخ شاهداً للحدث فهو شاهدٌ غير عالم! فلن يمكن لأي مؤرخ مهما كان أن يطلع على بواطن الأمور، وعلى ما يدور في نفوس الناس وعلى ما يحدث في اجتماعاتهم السرية!

والقرآن العظيم في قصِّه بيّن كيف قص، فلقد قص بالعلم والحق والشهادة، وبيّن ماذا قص، فلقد قصّ حقا ولم يقص افتراء، وبيّن لماذا قصّ. والآية الأخيرة من سورة يوسف أظهرت عددا من هذه المعاني العظيمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة يوسف ,١١١]

فالغاية من قصص القرآن:

1– أن يأخذ الناس منها عبرة! ولكن لن يعتبر إلا أولو الألباب، أما عامة الناس فسيرونها قصة مسلية!

2– التفكر، فليس القصص للتسلية: ﴿... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٧٦]

3– تثبيت فؤاد المؤمن، عندما يعلم أن من سبقه تعرضوا لما يتعرض له ونصرهم الله في نهاية المطاف: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة هود ,١٢٠]

4– الازدجار بمعرفة سوء عاقبة المكذبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ [سورة القمر ,٤]

5– معرفة سنن الله تعالى الجارية على عباده، مثل أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس: ﴿... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴿١٤٠﴾﴾ [سورة آل عمران ,١٤٠]، وأن الأمم تزول بانتشار الظلم والفسق والفساد، وأن سنن الله لا تتحول ولا تتبدل: ﴿... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة فاطر ,٤٣]، وأن الأمم لها أجل في هلاكها، وأن أي أمة لا بد أن تُهلك أو تُعذب قبل يوم القيامة –بسبب أعمالها!–

6- هدى ورحمة للمؤمنين بتأكيد الحقائق الإيمانية عندهم، بتذكيرهم بحقيقة الإنسان وبالغاية التي خُلق من أجلها وأن البشرية بدأت بالإيمان ثم كفرت، وأن الأصل في الإنسان التوحيد.

7- تصحيح الأخطاء الواردة في الكتب السابقة، وتصديق الصحيح منها: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [سورة النمل, ٧٦]

وبعد هذا نسأل: هل غفل القرآن عن ذكر غاية من غايات التاريخ لم يذكرها صراحة عند حديثه عن القص؟ وهل أتى أو سيأتي علماء التاريخ بأسباب لدراسته لم يسبق إليها القرآن العظيم؟!

ليس تاريخا إسلاميا!

من المصطلحات المشهورة والمتداولة كأسماء لعلوم، مصطلح: "التاريخ الإسلامي"! ونحن إذ نكتب حول شخصية من أوائل المسلمين وارتبطت بنبي الإسلام، يحق لنا أن نتساءل: ما هو التاريخ الإسلامي[24]؟ وهل يتطابق هذا الاسم مع مسماه؟ من المفترض أن يكون مادة هذا التاريخ –نظرا لنسبته إلى الإسلام– إسلامية! فإذا سألنا: ما هو الإسلام؟ فإن الإجابة، التي لا يختلف حولها اثنان، هي:

الدين الذي جاء به محمد، ناسبا إياه إلى الله عز وجل. وهذا الدين يتمثل في مجموعة من النصوص، هي كتاب الله –باتفاق المسلمين– وأفعال وتطبيقات النبي –على اختلاف بينهم–.

[24] الإسلام هو دين الله تعالى للبشر في كل العصور عبر جميع الأنبياء، ونحن إذ نتحدث عن الإسلام فإننا نقصد الإنزال الأخير له، والذي جاء على لسان النبي الكريم محمد بن عبد الله!

إذا فيمكننا القول أن الدين هو القرآن والمتحدث باسم الدين هو النبي الكريم! فإذا نظرنا إلى المقصود من التاريخ الإسلامي، نجد أن المراد منه هو تأريخ المرحلة الزمنية منذ بعثة النبي الكريم إلى أيامنا هذه، أو إلى قريب منها! حيث كان الانتماء إلى الإسلام هو الانتماء الأعظم، وحيث كانت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة، ولم تظهر بعد القوانين الوضعية الغربية!

ولربما يستعمل بعض الكتّاب مصطلح "التاريخ الإسلامي" إشارة إلى مرحلة ما بعد النبي الكريم! لأن أحداث حياة النبي العظيم تميزت باسم آخر وهو "السيرة النبوية" ولم تُدرج تحت اسم "التاريخ"، فحياة النبي سُميت "سيرة"، ومن بعده سُميت "تاريخ إسلامي"!! وهذا من عجيب الاستعمال، فمن المفترض أن يكون التاريخ الإسلامي هو تاريخ نزول القرآن، متى نزل على النبي الكريم وكيف أُنزل ... إلخ! كذلك أفعال وأقوال النبي الكريم المبلّغة للدين والمطبِّقة له! وبوفاة النبي الكريم يكون تاريخ الإسلام قد تم، وبدأ تاريخ المسلمين!

وكان من المفترض أن يُسمى التاريخ الذي يُعرِّف بحال المسلمين بعد النبي الكريم بـ: تاريخ المسلمين[25]! قد يقول قائل: وهل انتهى الإسلام، حتى نقول أن التاريخ الإسلامي قد انتهى بوفاة الرسول الكريم؟! أليس الدين الإسلامي كدين أو كفكرة، لا يزال موجودا وينتشر في أنحاء البسيطة بسرعة أكبر من أي دين آخر؟! نقول: المشكلة أن المؤرخين خلطوا بين الدين وحامليه، فالرسول محمد بصفته مبلغٌ عن الله، من الممكن إدخاله في الدين، أما باقي البشر بعد النبي الكريم فهم حملة للدين، ولا يتكلم واحد منهم باسم الله وإنما باسم نفسه، فلم يرسل الله تعالى أيَ واحد منهم! وما هم إلا جماعة من البشر يحيون حياتهم معتنقين هذا الدين، مطبقين لتعاليمه أو معرضين!

---

[25] ربما لم يُنسب التاريخ إلى المسلمين، لأن العرب لم يكونوا ينسبون إلى الجمع! –ولم تظهر ظاهرة النسب إلى الجمع إلا في العصور الحديثة، عندما أجازتها بعض المجامع اللغوية– ولأنه من المستثقل جدا النسب إلى المفرد من هذا الجمع، فيقال: التاريخ المسلمي!

والذي يمكننا نعته ب "التاريخ الإسلامي" بعد وفاة النبي الكريم هو حركة انتشار هذا الدين أو انحساره وظهور المذاهب والفرق فيه والدعوة والدعاة إليه! فحركة الدعاة إلى الله هي التي تندرج تحت التاريخ الإسلامي، لأنهم هم الذين نقلوا هذا الدين وبلّغوه!

أما المسلمين الذين لم ينشغلوا بهَمّ الدعوة ولم يكن لهم فيها نشاط –سواء كان موجها إلى المسلمين أو إلى غيرهم– فلا يمكن اعتبار تاريخهم تاريخا للإسلام! كما لا يجوز اعتبار باقي تفاصيل حياتهم من التاريخ الإسلامي، وإنما يُشار إليها عرضا، كأسباب وعوامل أثرت على الداعي والدعوة وعلى انتشار الدين!

فحروب الرِدة مثلا تندرج تحت التاريخ الإسلامي! وانحصار الإسلام في الفلبين وفي دول شرق آسيا يدخل في التاريخ الإسلامي! وتعليم الصحابة المسلمين الجدد الدين، ودعوتهم غير المسلمين إلى الإسلام هو من التاريخ الإسلامي، بينما لا تُدرج أفعالهم العادية وكذلك صراعاتهم في التاريخ الإسلامي، وإنما تندرج تحت: تاريخ المسلمين!

قد يكون من المستغرب أو المستثقل فصل الفكرة عن صاحبها، ولكن عند حديثنا عن الدين الإسلامي وعند نسبتنا إليه فلا بد من تحري الدقة، فثمة فارق كبير بين الدين وبين المنتسبين إليه! فلا أعرضهما كبضاعة واحدة، على المتلقي أخذها كلها أو ردها كلها! وإنما نفرق بين أفعال من حمل الدين وبين من حملهم الدين! ونفرق بين كليهما وبين الدين!

ولأن هذه الأفعال والصراعات مرجعها هو الرؤية الشخصية في تطبيق الدين أو إدارة الدولة الإسلامية نسبنا التاريخ إلى المسلمين، ولو لم يكن له علاقة به، لكانت النسبة الأدق إلى العرب! لذا فإن من يكتب عن الصراع بين الصحابة وعن تولي فلان أو علان حكم المسلمين، فإنه يكتب عن تاريخ المسلمين وليس عن تاريخ الإسلام!

ولذا فإن تسمية تاريخنا الحديث بالتاريخ العربي –وبكل أسف وأسى– هي تسمية صحيحة، لأن المحرك الرئيس والكبير للدول والأفراد لم يعد الإسلام! فلم يعد يُنسب التاريخ إلى المعتقَد وإنما إلى الجنس المشترك!

التاريخ والدين

بعد أن فرّقنا في العنصر السابق بين "التاريخ الإسلامي" وبين "تاريخ المسلمين"، نبيّن في هذا العنصر بعض أوجه الاختلاط بين التاريخ والدين، والتي أدت في نهاية المطاف إلى صبغه صبغة دينية، حتى أصبح تاريخاً مقدسا!! كان الدين هو محور الحضارة الإسلامية التي قامت حوله، وتميزت به عن غيرها من الحضارات، ولعب التاريخ في بناء الحضارة الإسلامية دورا كبيرا، حيث أُنيط به تعريف غير المسلمين بالنبي الكريم محمد، مُبلغ هذا الدين! وبالصعاب التي قابلها وذلّلها حتى نشر دين الله! كما كان لاعتماد الفقهاء الروايات الواردة عن النبي الكريم كتفسير لكتاب الله تعالى –والتي يمكن اعتبارها بشكل أو بآخر حوادث تاريخية– دورٌ كبير للاعتناء بالتاريخ وتعلمه! فالمنقولات التاريخية أصبحت حاكمة على القرآن!

ولأن هذه الروايات أصبحت من الكثرة بمكان، كان هناك سبيلان للحكم عليها، إما إخضاعها للقرآن، والحكم بصحتها وافترائها تبعا للتوافق مع القرآن، أو الحكم عليها تبعاً لأحوال الرجال، من صدقٍ وحفظ ولقاء وتحمل ... الخ الشروط الموضوعة لقبول الرواية المنقولة عن النبي الكريم أو الصحابة، والمندرجة تحت علم الجرح والتعديل!

وعلى الرغم من أن الطريق الأول هو الأصح والأكثر سهولة، إلا أنهم اعتمدوا الطريق الآخر! وكان السبيل الوحيد للتوصل إلى الحكم على الرواة هو التاريخ! فبه وحده تُعرف أحوالهم!

وعلى الرغم من أن القرآن قد قصّ وبيّن أن قَصصه أحسن القصص، وهذا يعني استغناء هذه القصص عن أي تفسير وتوضيح، وأنها تؤدي غرضها بالشكل الذي جاءت به! إلا أن المفسرين استعملوا التراث التاريخي كتفسير للقصص القرآني، وهكذا حولوه إلى قصة بالمعنى الحديث، وليس إلى قص مذكور لغرض معين! وهكذا اعتُمد تاريخ العرب قبل الإسلام والخرافات اليهودية كتفسير لكتاب الله!

كما كان لمعرفة تفاصيل الفتوحات الإسلامية دورا كبيرا في تحديد المعاملة الفقهية، التي ستُعاملها الدولة المفتوحة ومواطنيها! فهل فُتحت الدولة عنوة أم تصالحوا مع المسلمين أم دخلوا الدين بدون قتال! ومن ثم فهل سيضُرب عليهم الخراج وهل ستُطبق عليهم الجزية ... الخ الأحكام المتعلقة بالبلاد المفتوحة.

ولأن التاريخ كان يُنقل عبر نفس القنوات وبنفس الطريقة التي نُقلت بها سيرة النبي الكريم، ولأن الفقهاء اعتمدوا أقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم كتفسير ذي حجة في الدين، ولا معرفة لهذا إلا بالتاريخ، عاملوا التاريخ بنفس المعاملة التي عاملوا بها الحديث والأثر! وهكذا اكتسبت أقوال وأفعال الأجيال الأولى من المسلمين منزلة تعلو عن منزلة باقي المسلمين إلى قيام الساعة!

ولأن فترة ما بعد النبي الكريم شهدت بعض التقلبات حول السلطة، ولم يتأت لعلي بن أبي طالب أن يتولى الخلافة بعد النبي الكريم، وإنما بعد ثلاثة من الخلفاء، وفي عهده حصلت الفتنة الكبرى بين المسلمين، ثم استولى معاوية على الحكم ثم توارثه بنو أمية! كل ذلك أدى إلى تطرف التيار الموالي لعلي بن أبي طالب، والذي كان يرى أنه أحق بالخلافة بعد النبي، فقالوا بنظرية المؤامرة الكبرى، ووصموا الصحابة بالكفر والارتداد بعد النبي الكريم، وتسليمهم الخلافة لمن لا يستحق! وكما قالوا بأن النبي الكريم أوصى لعلي ولإحدى عشر إماما من بعده من ذريته!

فما كان من أهل السنة إلا أن زادوا في قدر الصحابة ومكانتهم، وقام بعضهم بوضع الأحاديث في فضل الصحابة ونسبتها إلى النبي! ظناً منهم أنهم بهذا يدافعون عن

الدين! بل وأصبح هناك ترتيب لأفضلية الصحابة بعد النبي الكريم، وبالصدفة البحتة جاء ترتيب الأفضلية هو نفس ترتيب توليهم الخلافة[26]!

ومن ثم أصبح على المسلم أن يعتقد ويؤمن بهذا الترتيب! وإلا خلع ربقة أهل السنة والجماعة من عنقه! وهكذا دخلت فترة ما بعد النبي الكريم –بفضل الشيعة– في الإسلام، لأنه كان من المفترض –تبعا لزعمهم– أن يتولى علي الحكم ويتسلسل في نسله! إلا أن هذا لم يحدث بسبب الصحابة –بزعمهم–، ولهذا أصبحت أفعال الصحابة ضد الدين وسعيٌ في خرابه –من وجهة نظرهم!– وعلى الطرف الآخر أصبحت الروايات التي تصحح موقف تيارٍ ما وتُخطأ آخر من الدين!

ومن ثَم صدر الحكم النهائي، –والمحسوب على الدين– من كل فريق، بتضليل وتخطئة الفريق الآخر، والحكم بصواب فعل أنصار فريقه! وهكذا أخذت هذه الأحكام التاريخية حكم الدين، وأصبحت غير قابلة للنقاش! بل إنها أصبحت أكثر إثارة للتعصب والحمية من الدين! فمن الممكن قبول الخلاف في بعض الأحكام الفقهية أو حتى الإيمانية (العقدية)، أما أن يُوصم أحد من الصحابة بالخطأ في هذه الفتنة، أو أن تحركه لم يكن للدين، فهذه خطيئة لا تُغتفر!

وعلى النقيض من ذلك عند الشيعة، فلا بد من الجزم بتعمد الصحابة مخالفة أمر النبي وتآمرهم على علي وأولاده، ولا يمكن قبول أي روايات تاريخية، تقول أنها اجتهاد شخصي في مسألة إدارة الدولة الإسلامية!

وهكذا أصبحت هذه الفترة فترة مظلمة في تاريخ المسلمين، يراها الشيعة أساس تفرق المسلمين وبداية ضياع الدين وأصل الظلم، ويُفضل أهل السنة عدم الخوض فيها، والاستغفار لأصحابها!

---

[26] استنادا إلى القول المنسوب إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والذي رواه البخاري : "كنا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لا نعدل بأبي بكر أحدا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا نفاضل بينهم"! ولست أدري عمن يتكلم ابن عمر، فلقد مات النبي وهو في قرابة العشرين من عمره، فهل كان يتكلم عن جيل الشباب والأطفال أم عن جيل الكبار!

ويرى بعض الكتّاب المعاصرين –والشيعة– أن هذا التعتيم راجع لأن أهل السنة يرون أن علياً كان مظلوما في هذه الحرب وأن الصحابة وعلى رأسهم عائشة بغوا عليه! ولكنهم لا يستطيعون أن يقروا بهذه الحقيقة، –لأنهم يُعدلون كل الصحابة– ويحاولون التعتيم والتعمية عليها! بادعاء التورع من الخوض فيما أسلفوا! ويرون أن الحق كان مع الطرفين وإن كان الحق الأكبر مع علي!

وبغض النظر عن تعديل الصحابة أو تفسيقهم فإننا نرى صواب حكم أهل السنة في هذه المسألة لأسباب تاريخية بحتة![27] ونرى أن كلا الفريقين (فريق عائشة وفريق علي) كان مجتهداً وإن كان الحق الأكبر مع علي! وأن الذي يحكم ببغي الصحابة أو عائشة على سيدنا علي يُصدر حكما بلا بينة قاطعة! وذلك لأن كل نقائص ونقائض التاريخ موجودة في هذه الروايات، فهي: روايات ظنية الثبوت، غير متأكد من وقوعها بالشكل الذي رويت به، فيُحتمل وقوع الخطأ أو النسيان من الرواة، ناهيك عن عدم شهادتهم للأحداث! ناهيك عن أن بعض الروايات تتحدث عن دخائل النفوس، وروايات أخرى تحدثت عن دسائس ومؤامرات! هذا إذا غضضنا الطرف عن الهوى في نقل الروايات، فناقلها إما كان مائلا لعلي وكاره لعائشة أو موافق لعائشة وكاره لعلي! وهو يعرض الأمر من وجهة النظر التي يراه بها! ناهيك عن أن هذه الروايات لم تخلو من النقيض، فهناك روايات وروايات أخرى تنقضها، فكيف نخرج من هذا كله بحكم يقيني على أحد الأفراد؟!

إن إصدار أي حكم في أي قضية ينظرها أي قاض يتطلب تحقق درجة من اليقين، فهل اطلع أحدٌ الغيب ليصل إلى هذه الدرجة؟! فإذا توفر الصدق في الرواة، فهل كانوا عالمين شاهدين؟ وهل تناقل الأخبار في تلك الأجواء المشحونة بالاختلاف والانقسام

---

[27] حديثنا هنا ينحصر في الأحداث التي صدرت من علي والصحابة قبل توليه الخلافة، ومن عائشة ومن معها ضد علي بعد توليه السلطة، ولم نصدر هنا أي حكم على ما فعله معاوية مع علي أو بعد وفاته!

حول أصل الخلاف يمكن أن يورث يقينا؟ إن هذه الروايات لن تزيد القارئ عن درجة الظن! فكيف يُصدر حكمٌ خطير كهذا استناداً إلى ظن[28]؟!

إن الحكم الذي يمكن إصداره حول هذه المسألة هو أن خطوطها العريضة قد وقعت، لأن الروايات التي وردت حولها هي من الكثرة بمكان، منها ما ذكرها لعينها، ومنها ما ذكرها عرَضا، –ولهذه الروايات الدور الكبير في تصديق أي خبر مقصوص أو تكذيبه– أمّا تفاصيل وقوع الأحداث فلا يمكن الجزم بها، وحتى لو صدرت كما رواها الرواة بالضبط فلا يمكن الحكم على طرف دون آخر، لأننا لم نطلع على دخائل النفوس! نعم، من الممكن استنتاج الأسباب من خلال بعض الأقوال والأعمال، ولكن هل يمكن الجزم بأن المستنتَج كان هو الدافع الحقيقي؟! كما يمكنني –من خلال قراءتي للروايات الواردة حول صراع الصحابة– يمكنني الجزم، بأن بعضا أو كثيرا من المحسوبين على أهل السنة كانوا من الموالين لعلي، وإن لم يُظهروا ذلك! وأن هؤلاء وضعوا الروايات التي تُرجح كفة علي وتظهر الطرف الآخر بمظهر المعتدي!

وعلى الرغم من قبول أهل السنة لهذه الروايات فإنهم نجحوا في تأويلها وتوجيهها بحيث يمكن فهمها بشكل لا يؤدي إلى إحراج الفريق المناوئ لعلي بن أبي طالب.

بغض النظر عن هذا أو ذاك فلقد دخلت الأحداث التاريخية لهذه الفترة في عقيدة المسلم! وأصبح عليه أن يدين برأي في هذه المسألة! على الرغم من أنه لن يقدم أو يؤخر في إيمان المسلم عدم معرفته بتاريخ هذه المرحلة! ولقد عرضنا لمسألة استحداث عقائد بعد النبي الكريم في كتابنا "عقائد الإسلاميين"، وقدّمنا معيارا للحكم على العقائد المستحدثة، فقلنا: "مات النبي وقد ترك الدين واضحاً جليا، لمن كان في

---

(28) قدّم الدكتور زكريا بن خليفة المُحرّمي في كتابه: جدليات الصراع السياسي بين الصحابة، وانقسام المواقف حولها، ص.10، عددا من التعريفات الهامة حول الأحكام التي تُطلق على الرواة والروايات، فقال: "قبل كل شيء يحتاج الباحث إلى إدراك الفرق بين "الصدق الذي هو كل وصف للمخبر عنه على ما هو به، وبين نقيضه وهو "الكذب" الذي هو وصف للمخبر عنه ما ليس به. وبين "العلم" الذي هو نقيض "الجهل" و"اليقين" الذي هو إزالة الشك، وتحقيق الأمر، والجزم وهو القطع، وبين الشك الذي هو نقيض اليقين، و"الظن" الذي هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، و"الوهم" وهو مرجوح المتردَّد فيه أو هو الظن الخاطئ.

اليمن كمن كان في مكة، إلا في بعض التطبيقات (السنن) التي وصلت لاحقا، لذا كان من المنتظر أن يجد المسلم إذا تحدثنا عن الإيمانيات –بالذات– كل ما يحتاجه في القرآن الكريم، بدون حاجة إلى اجتهاد أو إعمال عقل، ولكن العجب أننا نجد عقائد! ارتبطت بالحوادث التاريخية بعد وفاة النبي المعصوم، ولأسباب تاريخية ولصراعات قبلية وطائفية ومذهبية دخلت هذه الآراء في كتب العقيدة، كما أُلحقت مسألة الإمامة بها كذلك –مع أنها من أبواب الفقه– ولكنه الفعل الشيعي ورد الفعل السني، وهكذا.

ومن أشهر العقائد التي دُست و أُلحقت بدين الله واستُحدثت بعد وفاة النبي المعصوم القول بإمامة علي واثني عشر إماما عند الشيعة، (...) لنعطي القارئ المعيار الذي يستطيع أن يحكم به على استحداث العقائد، والمعيار جد بسيط: انظر إلى أهداف الدين والغايات منه واربطها بالعقائد – والتي يجب أن تكون مذكورة صراحة في القرآن بدون تعميم–، فإذا استقامت على منوال واحد فهي من العقائد، أما إذا ارتبطت بأشخاص أو أحداث فهي ليست من دين الله في شيء.

ونطرح على القارئ سؤالنا القادم: هل جاء دين الله ليقول الناس: آمنوا بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالملائكة، وأن الصحابة هم خير الناس وأن هذا الجيل الأول من المسلمين له حصانة خاصة ومكانة في دين الله على وجه الحقيقة، وأن أبو بكر خير من عمر وعمر خير من عثمان وعثمان خير من علي، ومن سبّهم فهو خارج من الدين؟ ما علاقة دين الله بالأفراد وبالتاريخ؟

دين الله رسالة أُنزلت ووصلت إلينا وانتهت في اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ۝٣﴾ [سورة المائدة ,٣]، هب أن أبا بكر مات قبل الرسول؟! أو أن عمر هو من تولى الخلافة بعد الرسول، أو أن عليا مات في خلافة عثمان؟! كيف سيصير شكل العقيدة؟ عند هؤلاء ستتغير طبعا وسيصير فلانا أفضل من فلان ويسبق فلانا علانا!!!

وهذا هراء لا أساس له من الصحة، فالرسالة لم ترتبط إلا بشخص واحد وهو المُبّلغ المصطفى المعصوم أما المستقبِلين، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!

ونسأل الأخوة الشيعة: هل جاء دين الله ليقول للناس: آمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته وباليوم الآخر، وأن القرآن كتاب مُلغز معقد لا تبلغه عقولكم، لذا فقد اصطفينا اثني عشر أو ثلاث عشر إماما ولم نحددهم لكم[29] لكي نمتحنكم بهم، فإذا آمنتم بالله وهجرتم هؤلاء الأئمة غير المحددين فأنتم من الخاسرين! أما إذا آمنتم بالله وتخبطتم مع المتخبطين واتبعتم من سيحدده التاريخ والظروف وجنود الدول الحاكمة، والذي سيختفي آخرهم بعد أن لم يولد، فسلمتم له رقابكم فأنتم من الفائزين![30]" اهـ

ماذا نأخذ من السلة؟

جمّع المؤرخون القدامى الروايات التي كانت متاحة في عصورهم حول العصور السابقة لهم، والأحداث التي وقعت في عصورهم، وقدّموها في كتبهم لمن يأتي بعدهم، لكي يقرأها ويحكم عليها بنفسه!

فإذا أخذنا الروايات المتعلقة بعصر الصحابة كمثال، -لأننا سنناقش الروايات المتعلقة بالسيدة عائشة، والتي تُصنف من ضمن أفراد هذا العصر- سنجد كمّا كبيرا من الروايات، جزء منه مكرور، أتى من طرق مختلفة، يُصدق بعضه بعضا! وروايات تناقض روايات أخرى وتكذبها! وروايات من الصعب تصديقها، بغض النظر عن وجود ما يعارضها من عدمه! فماذا على الباحث أن يفعل تجاه هذه الروايات؟ أيها يأخذ وأيها يترك؟! قلنا سابقا أنه حدث تداخل بين الدين والتاريخ، لذا تعامل السابقون مع التاريخ بنفس منهج تعاملهم مع الروايات عن النبي، فأخضعوا الروايات التاريخية لنفس المنهج

[29] تخبط الشيعة وتفرقهم بعد كل إمام واختراعهم الأخبار المؤيدة لكل توجه وتبار دليل على عدم وجود تحديد معين للإمام متعارف عليه بين الشيعة.

[30] عمرو الشاعر، عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام، ص.119-121.

النقدي القائم على التصحيح والتضعيف، اعتمادا على تعديل وتجريح الرواة!! فقبلوا الروايات الصحيحة وردوا الروايات الضعيفة!!

وهنا تظهر إشكالية كبرى: إن الحديث (أو الخبر) المحكوم عليه بالضعف لا يمكن الجزم بعدم حدوثه! ومن ثم تبقى إمكانية وقوعه قائمة!! وكذلك فإن الحديث (أو الخبر) المحكوم عليه بالصحة، لا يمكن الجزم بوقوعه، -إلا إذا كان متواترا! وهو ما لم يتوفر إلا في قلة قليلة من الأخبار!- ومن ثم تبقى احتمالية عدم وقوعه، أو على أقل تقدير: عدم وقوعه بشكل مطابق لما جاء في الرواية، احتمالية قائمة![31]

العجيب أن أهل السنة أراحوا أنفسهم من الأحاديث الضعيفة، فلم يقيموا لها بالا، ولم يحاولوا أن يوفقوا بينها وبين الأحاديث الصحيحة، على الرغم من أن الحديث الضعيف -سندا- إشكالية لا يمكن حلها! فلا يمكن لأحد أن يجزم بأن ذلك الحديث لم يصدر عن النبي الكريم! فإذا كان الحديث قد صدر عن النبي الكريم -وكان جزءً من الدين- وحمله بعض الرجال، الذين حكم عليهم رجالٌ مثلهم في عصور لاحقة بالضعف، ومن ثم تركوا ما نقلوه عن النبي الكريم، فهل يعني هذا أن جزءً من الدين قد ضاع؟! سيقول بعض المتحمسين: أن الله تعالى تكفل بحفظ الدين، ومن ثم لم يُفقد منه شيء! نقول: ومن قال أنه فُقد؟! لقد نُقل، ولكن نظرا لأنه ناقله صُنف كشيعي أو إباضي أو كغير حافظ، رُفض المنقول، فهل تكفل الله بتعريف علماء أهل السنة -دونا عن باقي الفرق الإسلامية- بالروايات الصحيحة؟!

[31] عرضنا في كتابنا "القرآنيون مصلحون أم هادمون" منهجا حديثا لتصحيح الأحاديث وتضعيفها، للدكتور محمد عمراني، ويعمل هذا المنهج على سد الثغرات الكثيرة الموجودة في علم مصطلح الحديث بشكله الحالي! يمكِّن القارئ من الوصول إلى أكبر درجة من الدقة في الحكم على الخبر بالصحة من خلال إتباع الشروط القرآنية، وليس عبر ذلك المنهج الذي يكتفي بالحكم على الخبر بالصحة الاصطلاحية، أي أنه صحيح تبعا لتعريفهم للصحيح، أما صحته على أرض الواقع فليس لازما!

إن السبيل الوحيدة هي عرض الرواية على القرآن، تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ[32] وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل ,٨٩]

فلو وافقته وتطابقت معه، كانت صادرة عن النبي الكريم، ولو كان الحديث مصنفا كضعيف، ولو خالفته رُدت، لأن النبي لا يخالف القرآن، ويكون الرواة قد أخطئوا النقل! فإذا كان هذا هو الحال مع السنة، وأمكن إيجاد مرجع صادق مستقل، للحكم على الأحاديث النبوية، والوقائع التاريخية في عصر النبي، فلا يمكن استخدام القرآن بنفس الشكل للحكم على الوقائع التاريخية بعد النبي الكريم!!!

ومن ثم يحق لنا أن نتساءل: هل يجوز لنا أن نستعمل منهج تصحيح الأحاديث مع الأخبار؟! فهل يكفي ضعف الخبر، لعلة في ناقليه –من سوء حفظ أو ما شابه– وليس لأي عيب في الخبر نفسه، لاستبعاده، أم من الممكن الاستئناس به كمساند للأخبار الصحيحة، أم هل من الممكن تقديمه على الأخبار المصححة –تبعا لتعريفهم للصحيح!–، لأسباب معينة، ورد الروايات التاريخية المصححة؟!

المنهج الذي اعتمده في تقبل الأخبار التاريخية المتعلقة بحياة النبي الكريم وبتاريخ الصحابة ليس صحة السند بالدرجة الأولى، وإنما قِدم المصدر الذي يذكر الخبر وقربه من زمان النبي والصحابة! فكلما كان أقرب كانت أخباره أكثر ثقة ومصداقية! حتى ولو كان محكوما عليه بالضعف! وكذلك: الروايات الموجودة في المصادر الأقدم أو حتى المتأخرة لدرجةٍ ما، والتي تذكر الخبر عرَضا، أثناء حديثها عن موضوع آخر! أما المصادر المتأخرة زمانا عن النبي الكريم والصحابة الأخيار، والتي تذكر أخباراً مخالفة للمصادر القديمة، بل وزائدة عنها، فإنني أميل إلى الشك في مصداقيتها، لأسباب منطقية، أهمها: كيف غابت هذه الزيادات عن القدامى، الذين كانوا ينقلون روايات حول نفس المسألة؟! فإذا كان نفس الرواة قد غفلوا عنها عند ذكرها لبعض الناقلين،

---

[32] العجيب أن الله تعالى يقول: تبيانا لكل شيء، وأولى شيء أن يكون القرآن تبيانا له هو السنة، وعلى الرغم من ذلك فإن علماء الحديث يرفضون عرض الحديث على القرآن، ويرون فيه حجة مستقلة عنه، بل ويرونه حاكماً عليه! وهكذا أصبح الحديث تبيانا للقرآن!!

–أو تعمدوا إخفاءها– وذكروها لناقلين آخرين، فإن هذا يعني سوء حفظهم أو سريرتهم أو وجود هوى في النقل، ومن ثم الحكم برفض الزيادة!!

وبغض النظر عن هذه النقطة –لأنه ربما وصلت الرواية إلى المتأخرين عن طريق بعض الرواة، الذين لم يصادفهم المؤلفون القدامى–، فإن النقطة الحاسمة هي أن احتمالات الخطأ والسهو والتدليس تزيد بتزايد الأجيال الناقلة، وكذلك ببعدها عن زمن وقوع الحادثة! فإذا وقعت واقعة ما في مكان ما وشهدها جمهور كبير، فمن الصعب على بعض الناقلين أن يضيفوا إليها ما ليس فيها، لوجود شاهدين آخرين يمكنهم تكذيبهم، وبالرغم من موت جميع من شهدوا الحادثة، فإن معالمها تظل موجودة في الذاكرة العامة، أما مع تتابع الأجيال فإن هذه الحادثة تُمحى من الذهن ولا يظل ممن يعرفها إلا بعض الأفراد، الذين يمكن لأي منهم أن يحذف أو يضيف ما يشاء! أو يتعرض لما يتعرض له أي بشري من السهو والنسيان!

كما أن المرء يميل لتقبل الروايات في المصادر القديمة لأن الناقلين لم يكونوا ينظرون إلى الصحابة والتابعين نفس النظرة التقديسية التي اكتسبتها الأجيال اللاحقة، التي وجدت في عقيدتها أن أفضل الناس بعد النبي هو أبو بكر! كما لم يكن الموالين لعلي قد آمنوا بعد بنظرية الإمامة وتوريثها لأبنائه! وإنما كانوا يرونه فقط أحق بها من عثمان! ومن ثم فإن نقلهم يكون أقرب إلى الواقع وبعيدا عن التهويل والتعظيم! أما أولئك الذين نشئوا وتربوا على تلك العقائد! فمن المنتظر أن يُعدلوا أو يضيفوا أو يحذفوا، ظناً منهم أنهم بذلك يدافعون عن الصحابة أو يوجدون مبررات لأفعالهم! أو حتى ... يقدمون صورة حسنة للنبي الكريم! كما أميل إلى تقبل الروايات في المصادر الأقدم لأنها تستعمل المفردات وتراكيب الجملة بشكلٍ أقرب ما يكون إلى استعمالها في عصر النبي، بخلاف الروايات التي تنوقلت لمدة زمنية طويلة، فمن الممكن أن يُعدل الرواة في ألفاظها، تبعاً لما يفهمون في عصورهم وبلدانهم!

لهذا كله أتقبل روايات المصادر القديمة ولو كان بها انقطاع أو إرسال أو حتى بعض الرواة المجهولين، بشرط أن يوثّقهم الراوي عنهم! فتوثيقه لهم أكبر دليل على عدالتهم! وعدم ذكره أسمائهم أو عدم معرفة علماء الرجال بهم لا يعنينا في شيء ولن يقدم أو يؤخر كثيراً أو قليلا! وكذلك بشرط بوجود عدد من الروايات المساندة، التي تقدم نفس المحتوى أو تؤكده!

وأنا استشعر صدق الروايات في المصادر القديمة، لأن المدرسة الحديثية كانت لا تزال في طور التكوين، ولم توضع المصطلحات والشروط لقبول الروايات، فلم تكن ثمة حاجة للتدليس في السند، أما مع ظهور الشروط والمصطلحات، بدأ التدليس وأصبحنا نرى أكثر الروايات بأسماء رجالها إلى النبي الأعظم، فإذا كان هناك ساقط يُضاف، وإذا كان هناك راو ضعيف يُستبدل بأقوى! وقد تُختلق الأسانيد كاملة من أجل تصحيح رواية، تؤيد أو تنصر رأيا ما!

فإذا كان النحاة قد اختلقوا الأبيات الشعرية تأييدا لآرائهم، فمن المنطقي ألا يعجز الرواة عن التدليس!! وقد وقع منهم بكثرة باعتراف علماء الحديث! إلا أن هذا لا يعني أننا نتقبل الأقدم فقط ونرفض الأحدث، فأحيانا نرد الأقدم بالأحدث، إذا كان سند هذه الأقدم واهياً وجاء كرواية متفردة ليس لها ما يساندها! وخالف روايات كثيرة متعاضدة، تتناسب مع الصورة العامة للشخصية! فالذي يكتب حول شخصية ما ينبغي أن يكون مُلماً بالمرحلة التاريخية التي وُجدت فيها، وأن ينشأ تصورا عاما حول هذه الشخصية! يستطيع على أساسه الحكم على الأحداث الواقعة!

وفي نهاية المطاف أقول: إن أحكام المتعرض لأحداث التاريخ البشري القديم لا يمكن أن تزيد عن درجة الظن! لأنه لا يستند إلا إلى مصادر ظنية الثبوت، لم تكن هي الأخرى شاهدة الأحداث التي تروي عنها، وإنما قدمت كذلك آراء شخصية لها، وعرضت الأمور من منظورها! لذا فإن حكمه رأي شخصي مبني على رأي شخصي!!

وهذا الرأي الشخصي نابع لا محالة من منظوره العام للحقبة التاريخية أو الجماعة الإنسانية، ومن ثم سيسقطه على أفراده!

إن ادعاء الحيادية والنزاهة موجود في أغلب الكتابات، والعبرة بالنتيجة التي يصل إليها! فإذا كانت نتيجة بحثه هي معتقداته المسبقة بدون أن يخالفها قدر أنملة فإنه بعيد تمام البعد عن الحيادية، وبحثه ليس بحثا وإنما تأكيد لما يؤمن به!

آفتا التاريخ!

بعد أن تكلمنا عن المنهج الذي سنتبعه عند تعاملنا مع الروايات التاريخية التي نتعامل معها، نختم هذا الباب بمسألة مهمة نُنبه القارئ إليها، وهي آفتا التاريخ!

1- الآفة الأولى:

كنا قد تكلمنا عن الأسباب التي من أجلها يُدرس التاريخ، وهنا نحذر من الآفة العظمى التي يمكن أن تصيب دارس التاريخ، وهي: الأسر! فكثير من الذين يدرسون التاريخ يصبحون أسرى له، يخرجون من الواقع اليقيني الذي يعيشون فيه، والذي عليهم السعي لجعله أفضل واقع، ويعيشون في ذلك الماضي السحيق، يتغنون بأمجاده، يدافعون عنه أو يهاجمونه ويلعنونه ويُخطّئون من عاش فيه!!

إن دراسة التاريخ خطوة نرجعها إلى الوراء لكي نستطيع أن نسير في طريقنا على بصيرة!! أما أن نترك الطريق تماما ونظل خارجه فهذا ما لا يُقبل! والمشكلة الكبرى أننا معشر المسلمين ابتُلينا بهذه الآفة، -بسبب فرقة الشيعة بالدرجة الأولى- فتركنا واقعنا وأخذنا نتصارع حول ماضينا: هل كان عليٌ أحق أم أبو بكر؟! وهل ضرب عمر فاطمة أم لم يفعل؟! لقد قالها الله تعالى لنا في كتابه العزيز مرتين، فهل نتعظ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ

خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾ [سورة البقرة, ١٤١]

إن إثبات صحة قناعاتي التاريخية لن يغير في واقعنا شيء! ذلك الواقع الذي يقول أننا محكومون في بلادنا الإسلامية بأنظمة علمانية استبدادية، فهذا هو الواقع الذي ينبغي علينا تغييره بإنشاء وعي سياسي ثقافي فكري يطالب بحقه! أما أن نترك شعوبنا يخيم عليها الجهل، ونخترع لها صراعات –لا نفع فيها ولا منها– تضيع فيها طاقاتها، فإن حالنا يصبح كمن يحرث في البحر! أو ذلك الذي يصارع الهواء!

2– الآفة الثانية:

لم نكن نحن من اكتشف تاريخنا الأقدم، وإنما اكتشفه الغربيون، وهم الذين قرءوه وفسروه! وهذا قدّموا لنا تاريخنا بمنظورهم! وبتقديمهم هذا عملوا على ضرب عدة عصافير بحجر واحد، فعملوا بذلك على إنهاء الصبغة الإسلامية لمجتمعاتنا، وإنشاء نعرات وعصبيات لكل شعب من الشعوب! وحاولوا بذلك أن يوجدوا مرجعية وانتماء جديداً لكل دولة! فنحن المصريين فراعنة، والسوريون آشوريون، وهكذا!

وهكذا زرعوا بذرة التفرق بيننا، وأصبحنا نجد من يدعو إلى إحياء تلك اللغات! وجعل تلك الحضارات القديمة مرجعية لنا! وهكذا فقدنا الرباط الكبير، دين الله القويم، ولم يعد يجمعنا إلا اللسان العربي، الذي يضيع وينزوي سنةً تلو الأخرى! فعلينا أن نتمسك بمرجعيتنا الأولى وبمشروعنا الحضاري وبالغاية من وجودنا وهي الإسلام، وألا ننسى أن الله قال لنا: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ... ١١٠﴾ [سورة آل عمران, ١١٠]

وبخلاف النعرات التي حاولوا أن يحيوها، فلقد شوّه هؤلاء الغربيون تراثنا، فقدموا أجدادنا على أنهم كانوا عباد أوثان وأصنام، ولم يعرفوا التوحيد! وجعلونا نحن المصريين فراعنة، نسبة إلى فرعون الملعون!

ونحن لا ننطلق من نظرية المؤامرة، ولكننا نقول أنهم قرءوا تراثنا بتاريخهم اليهودي/ المسيحي/ الملحد! ففي التوراة جاءت كلمة "الفراعنة"، ومن ثم أطلقوها على الحضارة المصرية القديمة كلها! على الرغم من أنها لم ترد فيها على الإطلاق! فالملوك المصريون لم يُلقبوا بالفراعنة، ولم يكن هناك إلا ملك واحد اسمه فرعون، ذلك الذي جاء إليه موسى! فهل من المعقول أو المقبول أن نلقب باقي الملوك باسم واحد منهم؟!

وهكذا أصبحنا نتبرأ من أجدادنا، لأنهم كانوا عبادة أوثان مشركين جبابرة! على الرغم من وجود الكثير من الكتابات التي بيّنت أن المصريين أو الحضارات العربية القديمة في سوريا أو العراق لم تكن مشركة، وإنما كانت موحدة! وأن الكلمة التي ترجموها ب "آلهة" من الأدق أن تترجم إلى "كائن إلهي" = ملائكة! ولا يعني هذا أننا ننفي أن يكون الشرك قد ظهر بين أجدادنا، إلا أن هذا لا يعني أن هذه المعابد العظيمة دليل على الشرك! فالمسلمون في ذلك الزمان كانوا يعملون التماثيل كما كان غيرهم يعمل، ولم يكن البناء في حد ذاته دليل على شرك أو إيمان، وإنما العبرة بالتعامل مع التماثيل. يدل على ذلك قوله تعالى في حق سيدنا سليمان: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سورة سبإ, ١٣]

فسيدنا سليمان كان يعمل تماثيل، وغيره كان يعمل! والتماثيل التي بنتها بعض الحضارات، وادعى الغربيون أنها كانت لآلهة، لم تكن إلا رموزا للملائكة، فكما عرفنا نحن الوحي والملائكة من الدين، فكذلك عرفوهم هم من أنبيائهم!

وفي هذه الأيام تُبذل بعض الجهود من أجل تنقية تاريخنا من التشوهات التي لحقت به، ومن التزويرات التي زوّرها الغربيون الملاحدة. فبقولهم أن الحضارات القديمة كانت مشركة يقدمون أدلة على أن الأصل في الدين التدرج، وأنه بدء بالخرافة ثم التعدد

ووصل إلى التوحيد!! أما نحن كمسلمين فنؤمن أن الدين بدأ بالتوحيد ثم ارتكس أتباعه إلى الشرك!

ومن المحاولات الطيبة للتدليل على هذه الحقيقة، ما قدمته جمعية التجديد الثقافية، والموجودة في البحرين، حيث قدمت كتاب: "التوحيد عقيدة الأمة منذ آدم" ترد به على البهتان القائل بأن أجدادنا كانوا مشركين!

وفي الختام نقول: إن التاريخ لجة عميقة مثيرة، تجذب القارئ، وقد تغرقه، يستغلها المستغلون بأشكال وطرقٍ عدة! يوجهها كل مُوجِّه تبعا لعقيدته! لذا فعلى القارئ أن يكون حذرا في قراءته التاريخ، وأن يميز بين النصوص التاريخية وبين الآراء الشخصية!

وهذا جد عسير .. ولكن على المرء أن يفعل

الباب الثاني

عائشة .. التاريخ

لماذا عائشة؟

بعد أن مهدنا لحديثنا عن عائشة بتقدمة تأريخية، استغرقت باباً كاملا، نصل إلى بيت القصيد، وهو الحديث عنها نفسها! وأول ما نبدأ حديثنا هو تبيان لماذا اخترنا عائشة لنتحدث عنها، دوناً عن باقي الصحابة[33]؟ والأسباب التي دفعتنا لاختيار السيدة عائشة رضي الله عنها، فكانت ل:

1- كونها من الشخصيات التي أُثير حولها الكثير من الجدل ومن المطاعن، فمن المسلمين –الشيعة- من يطعن فيها، وغير المسلمين –مسيحيين كانوا أو ملاحدة- يطعنون فيها! وأُلفت كتب كاملة لتشويه هذه الشخصية!

2- كونها تنتسب إلى نبي الإسلام بصلة أرقى، فهي ليست فقط صحابية، وإنما زوج النبي الكريم، وطُعن في النبي الكريم بسببها.

3- كونها نبتة إسلامية صرفة، فهي لم تنشأ في الجاهلية، وإنما عاشت حياتها كلها في الإسلام.

4- كونها عقلية من العقليات العظمى، التي جمعت العديد من الملكات الفكرية، فهي مفكرة ومؤصلة ومؤرخة!

5- كونها امرأة، لم تتخل عن طبعها في جميع مراحل حياتها!

6- كونها شخصية قيادية في المجتمع الإسلامي الأول، على الرغم من كونها امرأة!

7- ولتعرض تاريخها لتشوه كبير، بسبب النقل غير الدقيق، وبسبب الأهواء ولي النصوص!

8- كونها من الذين وقفوا بالمرصاد للتشوهات التاريخية، التي حدثت للروايات عن النبي الكريم، فصححت وردت وقاست بالقرآن.

---

(33) لن ينحصر حديثنا حول تاريخ الصحابة في السيدة عائشة، وإنما سيكون هناك كتابٌ آخر بإذن الله وعونه عن العبقري عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسيكون تناولنا لعمر في ذلك الكتاب بشكل يختلف عن تناولنا للسيدة عائشة في هذا الكتاب!

لهذا كله، ولأسباب أخرى يطول المقام بذكرها، وقع اختيارنا على السيدة عائشة، لنبين للقارئ الكريم كيف أن القراءة الموجهة لا بد أن تصل إلى نقطة بدايتها! فالباحث عن المطاعن سيشوه الشخصية، والمُعظِّم سيجعلها قديسة! على الرغم من أن كلا الفريقين يستند إلى نفس النصوص!

وفي أثناء نقدنا للقراءات الموجهة، سنقدم له قراءة جديدة لتاريخ السيدة عائشة، قائمة على التجرد من الانتماء إلى أي الفريقين، وعلى قراءة النصوص كما هي، بدون إضفاء هالة من القداسة أو قراءتها بعين الكره، منزهين لها وللنبي الكريم عن المطاعن التي زُورت!

وفي ختام المبتدأ نقول: إن العقائد التي تعتمد على تشويه الأفراد والطعن فيهم، وغرس بذرة الكراهية في أتباعها تجاههم، لا يمكن أن تكون عقائد سليمة! فالعقيدة السليمة تدعونا إلى حب الآخرين والحرص عليهم وعلى نصحهم!

إن سب الآباء أو الأسلاف بدعوى البحث العلمي لن يؤدي إلى أي نتيجة إلا إلى رفض المباحث، حتى ولو كانت حقة! والباحث الصادق هو من يعامل رجاله بنفس الطريقة التي يعامل بها رجال الآخرين، ويزنهم بنفس الميزان! أما الذي ينظر القذى في عين أخيه ولا يرى الخشبة في عينه، فلا يمكن أن يكون محايداً بحال! وأكثر الناس يرون القذى وينسون الخشبة! لذا فعلى من ينقد أن يبدأ بنفسه أولا ثم بعد ذلك يلتفت إلى غيره!

نظرة عامة

إذا أردنا أن نعطي القارئ الكريم ملخص حياة السيدة عائشة، والذي قدمه المؤرخون، استناداً إلى الروايات الواردة حولها، سنجد أن هناك تصوران متباينان أشد التباين:

تصور أهل السنة، وتصور الشيعة والمعادين للدين من غير المسلمين، والذين أخذوه من الشيعة جاهزا مجهزا، ولم يرهقوا أنفسهم في إنشاءه!. يرى أهل السنة أن السيدة عائشة رضي الله عنها هي الصديقة بنت الصديق أبي بكر، السابق إلى الإسلام، والذي أراد النبي الكريم أن يشرفه بزواجه من ابنته! ويرون أن زواجها كان من الله تعالى، فلقد جاء الملك إلى النبي الكريم في المنام بصورتها في سرقة من حرير ليتزوجها[34]، فتزوجها وهي طفلة صغيرة! وببركتها نزلت بعض الآيات مثل التيمم! وكانت حب النبي الكريم، وتغار عليه كثيرا، ونزلت براءتها من حادثة الإفك من فوق سبع سماوات! وحرص النبي الكريم أن يكون في بيتها في آخر حياته، وكانت من أفصح الصحابة وأفقههم وأحفظهم، وروت عن النبي الكثير من الأحاديث! وكانت كريمة معطاءة، تبذل ما معها على كثرته، فلا يبقى لها منه شيء! وهي من أفضل نساء العالمين، وهي زوج النبي الكريم في الجنة!

فإذا تحولنا إلى الطرف الآخر (عامة الشيعة، ومن تابعهم من أعداء الإسلام) نجد صورة مختلفة تماما، فزواج عائشة (وحفصة) من النبي هو جزء من مؤامرة أبي بكر وعمر (وعثمان وطلحة وغيرهما!!) على النبي الكريم، لقتله أو للاستيلاء على الدولة الإسلامية من بعده! وكانت عائشة مصدر قلاقل ومتاعب في بيت النبي الأعظم، وكانت تشغله عن مهام الدعوة بصراعاتها مع أزواجه الأخريات! وكانت تغلظ له الحديث وتظن به الظن السيئ، وتدبر بعض المؤامرات مع حفصة ضده! ولم يكن النبي الكريم يحبها حبا شديدا، وإنما كانت هي التي تدعي هذا! فهي لم تكن بالجميلة وإنما كانت سوداء قبيحة قصيرة!! وتآمرت مع أبيها أبي بكر لكي يستولي على الحكم بعد النبي الكريم، متناسين وصية النبي الكريم لعلي! ولقد كفرت بعد النبي أو كادت! وكانت تحب الجنس حبا شديدا[35]، لذلك لم تكف عن الحديث عنه بعد

---

[34] استنادا إلى المروي عن السيدة عائشة في البخاري ومسلم وغيرهما: "أن النبي قال لها: أريتك في المنام ثلاث ليالي جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول هذه امرأتك فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه"

[35] ومنهم من يقول أن ما قيل حولها في حادثة الإفك كان صحيحا! ولكن أكثرهم يرفضون هذا! ويتمسك بهذا القول غير المسلمين، لإرادتهم تشويه سيرة النبي والطعن في شرفه!!

النبي الكريم! وخالفت أمر الله تعالى لأزواج النبي بالقرار في البيوت وخرجت، بل وخرجت على أمير المؤمنين، تقود تمردا، وأشعلت قتالاً انتصارا لأقاربها!!

تصوران متباينان أشد التباين! وعلى القارئ أن يختار أحدهما ويتقبله ويؤمن به! وليست القضية أي التصورين يصدق القارئ، وإنما كيف حدث التباين حول الشخصية إلى هذا الحد؟! من المعقول والمقبول أن يحدث اختلافٌ عند تقييم أي إنسان، فلن يجمع البشر على رأي، فمن الممكن أن يُصوب ذلك أفعالا ويعد أخرى من الخطأ، ويفعل نقيضه العكس، ولكن المفترض أن يكون الحكم الإجمالي متقاربا، أما أن يكون على النقيض من أول الخط إلى آخره، فهذا يعني أن المسألة لا تخضع بحال للتقييم العلمي، وإنما يلعب الهوى في أحد الطرفين، أو كليهما، دورا كبيرا، يجعل التباين إلى هذه الدرجة!

لذا سنعمل على تناول أهم أحداث حياة السيدة عائشة، مبينين كيف تعامل معها الفرقاء الثلاثة (السنة، الشيعة، غير المسلمين)، وأيهم نظر إلى القذى ونسى الخشبة، ومثبتين أنه من الممكن أن يكون هناك قراءة أخرى لحياة السيدة عائشة، غير القراءات التي قدّمها هؤلاء الثلاثة!

قراءة شخصيتها

أفضل كلمة توصف بها السيدة عائشة وتجمع فيها جميع جوانبها، ونبدأ بها كلامنا عنها، أنها رضي الله عنها كانت أنثى قبل أن تكون بشرا! وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقرأ شخصيتها، ونوجه تصرفاتها، أما أن نتعامل معها كما نتعامل مع الرجال، ونفهم ردود أفعالها كردود أفعال الرجال، فهذا أكبر خطأ يقع فيه المتعامل مع المرأة، كائنة من كانت!

وبعد أن نتذكر أنها أنثى نتذكر أنها بشر، وكونها بشر يعني أنها تصيب وتخطأ، فهي ليست معصومة، ولا حرج في أن يخطأ الإنسان، الحرج كل الحرج أن يقيم على خطأه! ولا إشكال في أن نقول أنها أخطأت! فمن لم يفعل؟!

إن الحديث عن بشر لا يخطأ هو مثاليات حمقاء لا مكان لها في الواقع! فإذا كان النبي الكريم نفسه قد ليم في القرآن أكثر من مرة، وهذا يعني أنه إما أخطأ أو أتى بغير الأفضل، فما بال عامة البشر!

ولا يعني قولنا أن السيدة عائشة أنها أنثى أنها تلك المرأة التافهة، التي لا يهمها إلا جمالها وجسدها والحديث عن الصغائر! وإنما كانت رضي الله عنها رجلة[36] بمعنى الكلمة، ولم لا؟ أليست تربية الصديق، ذو العقل الرصين والعالم الحفيص؟! ألم تنتقل من بيت الصديق إلى بيت النبي الكريم، فأخذت من هذا وذاك فكانت الرجلة كما ينبغي أن تكون!

وخير النساء من كانت أنثى رجلة، فلم تطغ رجولتها على أنوثتها فتسترجل، ولم تجعلها أنوثتها ذلك الكائن الضعيف المستكين، الذي لا يبدي رأيا ولا يُسمع له صوتا، وإنما يكتفي بالتأمين (قول: آمين) على قرارات الرجل!

وعلى الرغم من كونها رجلة، إلا أنها كانت أنثى، وعندما يتعلق الأمر بالرجل (زوجها النبي) فإن هذه الرجولة تختفي، ولا يبقى إلا الأنثى، ذلك الكائن غير المستقر نفسيا، الذي تحكمه الغيرة، الذي يريد من يمدحه ويتغزل فيه، الذي يريد من يسيطر عليه ويشعره بالضعف!

ولأن النبي الكريم كان الرجل الأول –والوحيد– في حياتها، ولأنها كانت صغيرة – بالمقارنة بالأزواج الأخريات– فلقد كانت تتدلل على النبي الكريم أيما تدلل، وتريد منه أن يتفرغ لها فقط، وتكاد تُجن من الغيرة عليه!

[36] الغالب استعمال "رجل" وإن كان قد سُمع عن العرب استعمال "رجلة" في حق المرأة!

ويعلق الأستاذ العقاد على مسألة أنوثة السيدة عائشة فيقول: "والسيدة عائشة رضي الله عنها مَثل من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها وجميع عصورها، فضلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التي نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا في كل أنثى، وأنها ترينا النبي في بيته، فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية، ولكن مع هذا هو الرجل في بيته، كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء، وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ، فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها: أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها، هذه هي الأنثى الخالدة في غيرتها، وهذه هي الأنثى الخالدة في دلالها، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايدة والمناوشة، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهي قادرة على التصريح." اهـ[37]

ولأنها رضي الله عنها كانت أنثى، والأنثى لا ترى في زوجها –في حياته– إلا رجل، مهما كان له من المنصب أو المكانة، لذلك صدر عنها بعض أو كثير من المواقف التي انتُقدت عليها! وأمثال هذه المواقف يصدر من أي وكل امرأة، إلا أن الحال يختلف لأنها صدرت في حق النبي! والذي ينبغي علينا أن نتذكره ونعيه جيدا، أن هذه المواقف لم تصدر في حق النبي أو الرسول، وإنما صدرت في حق محمد الزوج والإنسان، وشتان ما بين المنزلتين!

ولا يعني هذا أننا نبرر أخطاء السيدة عائشة، فنحن نقر أنها أخطأت، إلا أنها أخطاء رد فعل وليست ابتداء، أي أن رد فعلها لموقفٍ أثارها لا يكون هادئا، وإنما تنفعل فيه أكثر من اللازم!

وهي في نهاية المطاف أخطاء صغيرة نعيشها كلنا، ولا ينجو منها أي رجل، إلا إذا كان جباراً وكانت زوجه ضعيفة الشخصية! ولم يكن النبي ولا السيدة عائشة كذلك! لذا

---

(37) عباس العقاد، الصديقة بنت الصديق، ص.22.

فإنه من غير الطبيعي ألا تصدر مثل هذه الأخطاء من السيدة عائشة، ومن غير المحايد أن تُجمع هذه الأخطاء للسيدة عائشة، ويُحكم عليها بسببها أنها ارتكبت كثيراً من المعاصي وتُصور بصورة سيئة، كما فعل المتشيع محمد التيجاني السماوي، حيث يقول: "وإذا ما بحثنا حياتها مع زوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وجدنا الكثير من الذنوب والمعاصي فكانت كثيراً ما تتآمر مع حفصة على النبي حتّى اضطرّته إلى تحريم ما أحل الله له كما جاء ذلك في البخاري ومسلم وتظاهرتا عليه أيضاً كما أثبت ذلك كل الصحاح وكتب التفسير وقد ذكر الله الحادثتين في كتابه العزيز[38].

كما كانت الغيرة تسيطر على قلبها وعقلها فتتصرف بحضرة النبي تصرّفاً بغير احترام ولا أدب، فمرّة قالت للنبي (صلى الله عليه وآله) عندما ذكر عندها خديجة: مالي ولخديجة إنها عجوز حمراء الشدقين أبدلك الله خيراً منها، فغضب لذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى اهتزّ شعره، ومرّة أُخرى بعث إحدى أمهات المؤمنين للنبي (وكان في بيتها) بصحفة فيها طعام كان النبي (صلى الله عليه وآله) يشتهيه، فكسّرت الصحفة أمامه بطعامها. وقالت للنبي مرة أخرى: أنت الذي تزعم أنك نبي الله. ومرّة غضبت عنده فقالت له: اعدل! وكان أبوها حاضراً فضربها حتى سال دمها ...[39]" اهـ

فلقد جمع التيجاني الأخطاء التي صدرت من السيدة عائشة في سنين طويلة! ليحكم عليها بهذا الحكم! ولن نقول: كفى بالمرء فخرا أن تعد معايبه، وإنما نقول: تصور أن تتصيد لإنسان أخطاءه التي صدرت منه في سنين طويلة في حق والده، ثم تقدمه بهذا الشكل على أنه عاق لوالده! فهل هذه صورة صحيحة؟! لماذا تُهجر المواطن الكثيرة والسنوات الطويلة التي ساد فيها الود بينهما، وتُذكر مواطن الخلاف؟!

وكما قلنا ونقول: لقد أخطأت السيدة عائشة، ولكن هذا راجع إلى أنها لا ترى في أثناء هذه المواقف إلا رجل! ولا يعنيها مناصبه أو منزلته، فكل هذا خارج البيت! والمرأة تتذكر منصب زوجها عند النقد فقط! لهذا نجد أن السيدة عائشة عندما

---

[38] سنتناول هذه الحادثة على صفحات الكتاب، وسيرى القارئ كيف أن ما يقوله غير صحيح.

[39] محمد التيجاني السماوي، عائشة في ميزان التاريخ، مقال.

غضبت من النبي مرة قالت له: أنت الذي يزعم أنك رسول الله؟! وكذلك عند التفاخر به أمام الأخريات، وما عدا ذلك فهو مجرد .. رجل!

وإذا كانت السيدة عائشة تغار على زوجها من الأزواج الأخريات، فإن هذه الغيرة لم تمنعها من أن تذكر محاسنهن، ولم تدفعها إلى أن تبخس حقوقهن، فلقد كانت تمتدحهن، ومن ذلك ما رواه مسلم عنها في باب: من فضائل زينب أم المؤمنين: "عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا قَالَتْ فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا قَالَتْ فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا زَيْنَبُ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ[40]" اهـ

ولأن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تنس أنوثتها كانت تحب التزين، وورد عنها بعض الروايات، التي تذكر أنها كانت تلبس كذا وكذا من الثياب! وحتى بعد وفاة النبي الكريم لم تهمل السيدة عائشة نفسها، وإنما كانت تعتني بنفسها أشد الاعتناء، –على الرغم من أنها في دارها ولا تكاد تخرج– ولم لا، أليست أنثى؟!

ولأنها أنثى فإنها كانت تدرك جيدا أهمية إبراز المرأة أنوثتها لزوجها، وتشجعها على أن تجذبه إليها بجميع السبل، وفي هذا يروي لنا ابن سعد: "حدثتنا بَكرة بنتُ عُقبة أنها دخلت على عائشة وهي جالسة في مُعَصْفَرَةٍ، فسألتها عن الحِنَّاءِ؟ فقالت: شجرةٌ طيبةٌ وماءٌ طهور. وسألتها عن الحِفاف؟ فقالت لها: إن كان لك زوجٌ، فاستطعتِ أن تنزِعي مُقْلَتَيْكِ (عينيكِ) فَتَصْنَعِيْنَهُمَا أحسنَ مما هُما، فافعلي[41]" اهـ

وعلى الرغم من أنها أصبحت أماً للمؤمنين، إلا أنها أمام الأنثى .. أنثى!

---

(40) نجد روايات أخرى تتحدث عن نفس المعنى تظهر أزواج النبي أنهن لم يفهمن النبي وأنهن ظنن أن النبي الكريم يتحدث عن طول اليد، وأنهن كن يقسن أيديهن على الجدار، ثم اكتشفن بعد ذلك أن النبي كان يتحدث عن الإنفاق!! فتظهر أزواج النبي بمظهر الأطفال الذين يتصرفون بصبيانية ولا يفهمون قول النبي! وهذه الزيادات التي تتحدث عن التطاول على الجدار هي من بعض الرواة الذين عاشوا في عصور فشت فيها العجمة!!!

(41) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثامن، ص.71.

ومن أطرف المواقف التي قرأتها لأم المؤمنين ما رواه ابن سعد في طبقاته: "أن امرأة قالت لعائشة: يا أمه فقالت لست بأمك، أنا أم رجالكم".

فأم المؤمنين عائشة لا ترضى أن تقول لها امرأة يا أم، فالمرأة مهما كانت لا تتقبل أن تشعرها امرأة أخرى أنها كبيرة، بينما تتقبل هذا من الرجال!

وبخلاف هذه المنطقة التي تتحكم فيها أنوثتها، كانت السيدة عائشة من السيدات أصحاب النفوس العالية الأبية، كانت تلك المرأة التي تبحث عن القمة في جميع أدوارها في الحياة، فلا ترضى بالدنية أو بالشريك! وفي هذا يقول المرتضى العسكري: "كانت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) من أولئك القلائل من البشر، ذوي الطموح الخارق الذين لا يقر لهم قرار دون بلوغ القمة من المجد، وممن لا يرضون لأنفسهم أن يساميهم في العلياء بشر، وكانت إلى ذلك ذات مزاج عصبي حاد عنيف، فيها حدة طبع، وحدة ذكاء، وغيرة شديدة، تغار على قلب زوجها، فلا تريد أن تشاركها فيه أنثى غيرها، وتغار على ذوي قرباها، وتذهب نفسها حسرة على ضياع مصالحهم، هذه هي الصفات الغالبة على حياتها العامة وعلى حياتها الزوجية الخاصة، وهي بعد ذلك من النساء الخالدات في التاريخ أبد الدهر[42]." اهـ

ولم تكن ترضى بالباطل ولا تسكت عليه، وإنما تحاول أن ترده أو تغيره ما استطاعت، لهذا تحركت بعد عثمان ولم تقعد مع القاعدين! وكانت حادة الطباع ترد الكلمة بالكلمة، والفعل بالفعل، تحب المباشرة وتكره التلون! لا تعرف المهادنة ولا الحلول الوسط! فمشاعرها لا تقنع بهذه الأمور التي قد تقنع العقل ولكنها لا تُهدأ ولا ترضي النفس!

وفي هذا يروي البخاري في باب: الرفق في الأمر كله: "عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ:

[42] المرتضي العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة، الجزء الأول، ص.58.

وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ."

وبخلاف حدة الطباع كانت السيدة عائشة حادة الذاكرة، فلا تكاد تنسى! ولذلك صححت لكثير من الصحابة ما كانوا يروونه عن النبي العظيم! كما كانت تتمتع بجرأة كبيرة، وكانت جرأتها هذه راجعة إلى حدتها وتوقد ذهنها، فصاحب الذهن الخامل يرضى بما يُقدم له، أما المتقد الذكاء ذو النفس الأبية فتدفعه نفسه إلى المطالبة بما يريد، بصوت عال وليس بصوت خفيض!

والنقطة الأخيرة التي نختم بها حديثنا حول السيدة عائشة، هو أن حب النبي الكريم أثر فيها تأثيرا عظيما، حتى أنها عاشت على ذكراه، فكانت تواسي نفسها ببث خواطرها وذكرياتها مع النبي العظيم لمن حولها -حتى ولو كانت مخطئة فيما فعلت- ونقل لنا هؤلاء ذكرياتها مع زوجها النبي الكريم.

المأخذ الوحيد

على الرغم من أن السيدة عائشة أُخذ عليها كثير من المآخذ، وعِيب عليها كثير من التصرفات، -التي صدرت عنها بمفردها، ولم تكن وسط أزواج النبي- إلا أنني أتقبل هذه المواقف كلها وأراها أخطاء رد فعل وسوء تصرف أو سوء تقدير، أو جنون غيرة أو حدة طبع! فأن تغار السيدة عائشة من[43] السيدة خديجة وتقول في حقها ما قالت من أنها عجوز وأنها أفضل منها، وأن تغار من السيدة هالة -أخت السيدة خديجة-

[43] الصحيح في اللسان أن يقال: "تغار على فلانة" ولكننا أصبحنا نستعملها بحرف الجر "من"، فنقول: فلانة تغار من فلانة، وأصبحنا نستعملها مع حرف الجر: على، عند حديثنا على الشيء المطموع فيه، فنقول: فلانة تغار على زوجها من فلانة"! وحتى لا يحدث لبس في المعنى، استعملناها تبعاً للاستعمال السائد!

لما كان النبي الكريم يبش عندما يسمع صوتها![44] أو أن تقول أن الله يسارع للنبي في هواه، عندما أنزل له الآيات المتعلقة بأحكامه مع النساء في سورة الأحزاب، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ... ۝٥٠﴾] سورة الأحزاب , ٥٠[الخ الآيات[45]!

إلا أن المأخذ الوحيد عليها، والذي لا أتقبله بحال هو ما فعلته مع أسماء بنت النعمان! ففعل السيدة عائشة كان عن تخطيط وخداع، أدى إلى طلاق امرأة! فلقد نصحتها نصيحة سوء أدت إلى طلاقها.

وفي هذا يروي ابن سعد في الطبقات: "عن بن عباس قال: تزوج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أسماء بنت النعمان وكانت من أجمل أهل زمانها وأشبه، قال فلما جعل رسول الله يتزوج الغرائب قالت عائشة: قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا. وكان خطبها حين وفدت كندة عليه إلى أبيها، فلما رآها نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، حسدنها فقلن: لها إن أردت أن تحظي عنده فتعوذي بالله منه إذا دخل عليك. فلما دخل وألقى الستر مد يده إليها فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: أمن عائذ الله! الحقي بأهلك. (...) عن حمزة بن أبي أسيد الساعدي عن أبيه وكان بدريا قال: تزوج رسول الله أسماء بنت النعمان الجونية فأرسلني فجئت بها فقالت حفصة لعائشة أو عائشة لحفصة: اخضبيها أنت وأنا أمشطها، ففعلن. ثم قالت لها إحداهما: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول أعوذ بالله منك. فلما دخلت عليه وأغلق الباب وأرخى الستر مد يده إليها فقالت: أعوذ بالله منك. فتال بكمه على وجهه فاستتر به وقال: عذت معاذا، ثلاث مرات. قال أبو أسيد

---

[44] مثل ما رواه البخاري: عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَالَةَ قَالَتْ فَغِرْتُ فَقُلْتُ مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا.

[45] كما روى البخاري: حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ مِنْ اللَّائِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَمَا تَسْتَحِي الْمَرْأَةُ أَنْ تَهَبَ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ فَلَمَّا نَزَلَتْ: "تُرْجِئُ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ" قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ!

ثم خرج علي فقال: يا أبا أسيد ألحقها بأهلها ومتعها برازقيتين، يعني كرباستين، فكانت تقول: دعوني الشقية.[46]" اهـ

فإذا كانت هذه الروايات صحيحة، وفعلت عائشة كما قالت الروايات، فإنها تكون فعلة كبيرة تُؤاخذ عليها، وليس لها تأويل مقبول!

روت .. وصمتن!

قبل أن نبدأ حديثنا عن السيدة عائشة لا بد أن نُذكر القارئ الكريم أن كل النقد الموجه إلى السيدة العائشة، أو المدح الذي تُمدحه، أو المنزلة التي تبوأتها راجع إلى أمر واحد، وهو أنها روت وقصّت ما كان يحدث بينها وبين النبي الكريم، وبينها وبين ضرائرها! بينما لم تفعل الأخريات ذلك! فجُلّ الرواياتِ الواردة عن بيت النبي هو عن عائشة نفسها! بينما قلّت الروايات عن باقي أزواج النبي! حتى أنها تنعدم عن مارية القبطية، فلا نجد عن طريقها رواياتٍ تقريبا!

فإذا كان قد عِيب على السيدة عائشة بعض المواقف، فما أدرانا أنه لم يصدر مثلها من أزواجه الأخريات؟! وإذا قامت ببعض الأفعال الجميلة الطيبة، فما المانع أن يكون قد صدر مثلها أو أعظم منها من الأخريات؟! إذا كانت السيدة عائشة قد روت الأحداث التي لعبت دورا فيها، فإن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك أحداث أخرى تقع في بيت النبي!

فالناظر في الروايات يجد أن السيدة عائشة هي البطل الرئيس في جلها أو كلها! – ونجد صفية تابعة لها فيما تفعل!– ومن غير المعقول أن تكون هي الوحيدة بين أزواج النبي التي تتحرك وتقول وتفعل، بينما الأخريات سلبيات لا يبتدرن أي فعل! ولا يظهر لهن إلا ردود أفعال!

---

[46] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثامن، ص.145–146 .

وإذا كانت السيدة عائشة قد حكت بعض المواقف السلبية التي صدرت منها، فإنها كانت تعلم أنها لو قصت أمثالها من المواقف عن أزواج النبي الأخريات، فإن هذا سيُعد من باب الغيبة وتشويه السمعة! ومن المفترض أن نذكر محاسن الأموات أو الغائبين، لا أن نعيبهم، لذا فقد اكتفت بالحديث عن نفسها!

ولقد تكلم القرآن الكريم عن موقف صدر من أزواج النبي، اجتمعن فيه ضد النبي وكاد النبي أن يطلقهن بسببه! ولم تكن السيدة عائشة بمفردها الفاعلة له، ولم تذكر الروايات ما هو هذا الأمر إلا تلميحا!! وسنعرض له على صفحات الكتاب!

كما يجب أن نتذكر أن هذه الأحداث كانت تُروى من وجهة نظر السيدة عائشة، وخاصة الأحاديث عن حب النبي الكريم لها، وكيف كان يقدمها على غيرها! ولو رويت عن غيرها لأتت بغير هذا الشكل الذي رأيناه!

فالإمام مسلم يروي في باب: فضل عائشة رضي الله عنها، حديثا عنها تقول فيه: "أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِي فِي مِرْطِي فَأَذِنَ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ. وَأَنَا سَاكِتَةٌ قَالَتْ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيْ بُنَيَّةُ أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ فَقَالَتْ بَلَى قَالَ فَأَحِبِّي هَذِهِ. قَالَتْ فَقَامَتْ فَاطِمَةُ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجَعَتْ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَتْهُنَّ بِالَّذِي قَالَتْ وَبِالَّذِي قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَ لَهَا: مَا نُرَاكِ أَغْنَيْتِ عَنَّا مِنْ شَيْءٍ فَارْجِعِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُولِي لَهُ إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَنْشُدْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: وَاللَّهِ لَا أُكَلِّمُهُ فِيهَا أَبَدًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ وَأَتْقَى لِلَّهِ وَأَصْدَقَ حَدِيثًا

وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ وَأَعْظَمَ صَدَقَةً وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ قَالَتْ فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... الخ" اهـ

فلقد ذكرت السيدة عائشة في هذه الرواية أن السيدة زينب أنها كانت تساميها في المنزلة عند رسول الله، ثم أخذت تمدحها! ولو كانت السيدة زينب روت عن علاقتها بالنبي الكريم لقالت أنها كانت أحب النساء إليه، ولأصبح عندنا في ثقافتنا الإسلامية اثنتان متفردتان بقلب النبي وليس واحدة! كما أن النبي الكريم أحب مارية حباً شديدا، والتي أتته في آخر حياته، وغارت منها السيدة عائشة –وباقي نساء النبي– غيرة عظيمة، وفي هذا يقول ابن سعد: "قالت عائشة رضي الله عنها: "ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة–أو دعجة– فأعجب بها رسول الله وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيتٍ لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها، حتى فرغنا لها، فجزعت[47] فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا ثم رزق الله منها الولد وحرمنا منه.[48]" اهـ

ولم نسمع من مارية أي قول حول حب النبي الكريم لها! ونحن لا نرفض أن يكون النبي الكريم أحب السيدة عائشة حبا عظيما وأن تكون قد حازت منزلة خاصة في قلبه! ولكن هل استمرت هذه المنزلة إلى وفاة النبي الكريم؟ أم نازعتها فيها مارية؟! الله أعلم! الذي أعلمه جيدا أن أي امرأة تحب زوجها الذي يحسن معاملتها ويبش لها، ترى أنه يحبها حبا شديدا، أكثر من أي امرأة في الدنيا!

---

[47] أطلب إلى القارئ أن يتذكر هذه الجملة جيدا، عند حديثنا عن تظاهر أزواج النبي عليه.

[48] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثامن، ص. 212.

كيف تزوج النبي عائشة؟

كان من المفترض أن نبدأ الحديث عن عائشة بكلامنا عن مولدها وطفولتها! إلا أن الروايات التي يمكن من خلالها تحديد عام مولدها متعارضة، -وسنعرض لهذه الروايات عند حديثنا عن عمر السيدة عائشة عندما تزوجها النبي الكريم-، كما أن الروايات لا تعطينا أي ملامح عن فترة طفولتها، سوى أنها وُلدت في الإسلام، ولم تدرك الجاهلية.

ولا إشكال في صمت الروايات عن هذه المرحلة العمرية من حياة السيدة عائشة، لأنه ربما رأت السيدة عائشة أنه لم يكن في طفولتها شيء مميز تحكي عنه، ولكن الذي نتوقف عنده -داعين غيرنا للتفكر معنا في أسبابه-، هو صمت الروايات عن الفترة العمرية في حياة النبي الكريم بعد الخامسة والعشرين من عمره وحتى البعثة! فلم يرد بشأن هذه الفترة إلا روايات قليلة لا تعطي أي تصور عن حال النبي الكريم، مما يعطي غير المسلمين الفرصة للقول بأن هذه الفترة هي فترة تعلم محمد أو إعداده من قِبل آخرين ليقوم بمهمته!!

ونعود إلى موضوعنا، وهو: كيف تزوج النبي عائشة؟ نقول: تزوج النبي الكريم أول ما تزوج السيدة خديجة، وظل معها إلى أن ماتت ولم يتزوج عليها، فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا ولم يتزوج بعدها! إلى أن جاءته السيدة خولة بنت حكيم تشجعه على الزواج!

ومن أشمل الروايات التي وردت بشأن هذه القصة، ما رواه الإمام أحمد عن أبي سلمة ويحيى: "جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَزَوَّجُ؟ قَالَ: مَنْ؟ قَالَتْ: إِنْ شِئْتَ بِكْرًا وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا؟ قَالَ: فَمَنْ الْبِكْرُ؟ قَالَتْ: ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكَ؛ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ. قَالَ: وَمَنْ الثَّيِّبُ؟ قَالَتْ: سَوْدَةُ ابْنَةُ زَمْعَةَ، قَدْ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَا تَقُولُ. قَالَ: فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ. فَدَخَلَتْ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ: يَا أُمَّ رُومَانَ، مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ مِنْ

الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ! قَالَتْ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ. قَالَتْ: انْتَظِرِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى يَأْتِيَ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ! قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ. قَالَ: وَهَلْ تَصْلُحُ لَهُ، إِنَّمَا هِيَ ابْنَةُ أَخِيهِ. فرَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ. قَالَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ فَقُولِي لَهُ: أَنَا أَخُوكَ وَأَنْتَ أَخِي فِي الْإِسْلَامِ وَابْنَتُكَ تَصْلُحُ لِي. فَرَجَعَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: انْتَظِرِي وَخَرَجَ. قَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: إِنَّ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ قَدْ كَانَ ذَكَرَهَا عَلَى ابْنِهِ فَوَاللَّهِ مَا وَعَدَ مَوْعِدًا قَطُّ فَأَخْلَفَهُ لِأَبِي بَكْرٍ. فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَعِنْدَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ الْفَتَى فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ لَعَلَّكَ مُصْبٍ صَاحِبَنَا مُدْخِلُهُ فِي دِينِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ إِنْ تَزَوَّجَ إِلَيْكَ؟! قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ: أَقَوْلَ هَذِهِ تَقُولُ؟ قَالَ: إِنَّهَا تَقُولُ ذَلِكَ. فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ عِدَتِهِ الَّتِي وَعَدَهُ، فَرَجَعَ فَقَالَ لِخَوْلَةَ: ادْعِي لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَتْهُ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ -وَعَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ- ثُمَّ خَرَجَتْ فَدَخَلَتْ عَلَى سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ فَقَالَتْ: مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكِ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ! قَالَتْ: مَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطُبُكِ عَلَيْهِ. قَالَتْ: وَدِدْتُ، ادْخُلِي إِلَى أَبِي فَاذْكُرِي ذَاكَ لَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ أَدْرَكَهُ السِّنُّ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ الْحَجِّ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَحَيَّتْهُ بِتَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقَالَتْ: خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ. قَالَ: فَمَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ اللَّهِ أَخْطُبُ عَلَيْهِ سَوْدَةَ. قَالَ: كُفْءٌ كَرِيمٌ، مَاذَا تَقُولُ صَاحِبَتُكِ؟ قَالَتْ: تُحِبُّ ذَاكَ. قَالَ: ادْعُهَا لِي! فَدَعَيْتُهَا قَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ إِنَّ هَذِهِ تَزْعُمُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَرْسَلَ يَخْطُبُكِ وَهُوَ كُفْءٌ كَرِيمٌ أَتُحِبِّينَ أَنْ أُزَوِّجَكِ بِهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: ادْعِيهِ لِي، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ. فَجَاءَهَا أَخُوهَا عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ مِنْ الْحَجِّ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي رَأْسِهِ التُّرَابَ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ: لَعَمْرُكَ إِنِّي لَسَفِيهٌ يَوْمَ أَحْثِي فِي رَأْسِي التُّرَابَ أَنْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فِي السُّنْحِ. قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ

بَيْتَنَا وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ الْأَنْصَارِ وَنِسَاءٌ فَجَاءَتْنِي أُمِّي وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ بَيْنَ عَذْقَيْنِ تَرْجَحُ بِي فَأَنْزَلَتْنِي مِنْ الْأُرْجُوحَةِ وَلِي جُمَيْمَةٌ فَفَرَقَتْهَا وَمَسَحَتْ وَجْهِي بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ تَقُودُنِي حَتَّى وَقَفَتْ بِي عِنْدَ الْبَابِ وَإِنِّي لَأَنْهَجُ حَتَّى سَكَنَ مِنْ نَفْسِي، ثُمَّ دَخَلَتْ بِي فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرٍ فِي بَيْتِنَا وَعِنْدَهُ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَجْلَسَتْنِي فِي حِجْرِهِ ثُمَّ قَالَتْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُكِ فَبَارَكَ اللَّهُ لَكِ فِيهِمْ وَبَارَكَ لَهُمْ فِيكِ. فَوَثَبَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَخَرَجُوا، وَبَنَى بِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِنَا، مَا نُحِرَتْ عَلَيَّ جَزُورٌ وَلَا ذُبِحَتْ عَلَيَّ شَاةٌ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بِجَفْنَةٍ كَانَ يُرْسِلُ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَارَ إِلَى نِسَائِهِ. وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ" اهـ

نلحظ من هذه الرواية أن الرسول الكريم هو الذي عُرض عليه الزواج، وأن خولة قدمت له اسمين، فأمرها النبي الكريم أن تذهب فتذكر النبي الكريم عندهما، فأيهما وافقت تزوجها النبي الكريم!

وفي الرواية دليل على أنه لم يشغل باله بكون هذه بكر أو تلك ثيب، وإنما طلب إلى خولة أن تذكره عندهما! بل إننا نجد في رواية أخرى عند الطبراني في المعجم الكبير عن السيدة عائشة نفسها، تروي فيها زواج النبي بعد السيدة خديجة فلا تذكر نفسها، وإنما تذكر سودة فقط، فتقول فيها: "لَمَّا تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ، قَالَتْ خَوْلَةُ بنتُ حَكِيمِ بن الأَوْقَصِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بن مَظْعُونٍ، وَذَلِكَ بِمَكَّةَ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ أَلا تَزَوَّجُ؟، قَالَ: مَنْ؟ قَالَتْ: إِنْ شِئْتَ بِكْرًا وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا، قَالَ: وَمَنِ الثَّيِّبُ؟، قَالَتْ: سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ، قَدْ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهَا ..." اهـ

ونجد نفس الأمر عند أبي نعيم في معرفة الصحابة، حيث يروي عن السيدة عائشة كذلك نفس القصة بدون أن تذكر نفسها، فيقول: "عن عائشة، قالت: لما توفيت خديجة، قالت خولة بنت حكيم بن الأوقص امرأة عثمان بن مظعون –وذلك بمكة–: أي رسول الله، ألا تزوج؟ قال: «من؟» قالت: إن شئت بكرا، وإن شئت ثيبا. قال:

«ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما أنت عليه، قال: «فاذهبي، فاذكريها علي» (...) رواه المحاربي، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن، ولم يذكر عائشة" اهـ

ونجد في هاتين الروايتين أن النبي الكريم يسأل أولا عن الثيب، وعندما يسمع اسمها يأمر خولة أن تذهب إليها لتعرض عليها خطبة النبي المصطفى! وسواء أسأل أولا عن البكر أم عن الثيب، فالشاهد أن النبي الكريم تزوج السيدة عائشة –بعد السيدة سودة– بسبب عرض خولة بنت حكيم! والروايات وإن اختلفت في تحديد السنة التي دخل فيها النبي بالسيدة عائشة، –وسنعرض لها لاحقا– إلا أنها لم تختلف في الشهر الذي دخل فيه النبي الكريم بالسيدة عائشة، فالمروي أنه دخل بها في شهر شوّال. ولقد تيامنت السيدة عائشة بهذا الشهر كثيرا، بسبب دخول النبي بها فيه، فيروي الطبراني في المعجم الكبير: "عنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُدْخِلْتُ عَلَيْهِ فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَحْظَى عِنْدَهُ مِنِّي؟ قَالَ: وَكَانَتْ تَسْتَحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ نِسَاؤُهَا فِي شَوَّالٍ."اهـ.

هل اختلقت رؤيا؟

قلنا أن النبي الكريم تزوج السيدة سودة والسيدة عائشة بسبب عرض خولة بنت حكيم، إلا أننا نجد بعض الروايات الأخرى عن السيدة عائشة، تقول فيها أن النبي الكريم رآها في المنام، ورأى أنها ستكون زوجه، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه في باب: النظر إلى المرأة قبل التزويج: "... عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَيْتُكِ فِي الْمَنَامِ يَجِيءُ بِكِ الْمَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ فَقَالَ لِي هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِكِ الثَّوْبَ فَإِذَا أَنْتِ هِيَ فَقُلْتُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ" اهـ

والسيدة عائشة –كامرأة– محبة لرجلها النبي الكريم، كانت تفتخر بأن النبي الكريم "حلم" بها أكثر من مرة قبل أن يتزوجها! ولا شيء في هذا، إلا أن هناك من ادعى من الشيعة ومن غير المسلمين، أن السيدة عائشة افترت هذا الحلم لترد على تفاخر السيدة زينب بنت جحش، بأن الله زوجها من فوق سبع سماوات! فيدعون أن السيدة عائشة افترت الحلم لتقول، إذا كان الله قد زوّج زينب، فإن الملك قد جاء النبي في المنام برؤيا أنني سأكون زوجه!

ونتوقف لنتساءل: هل أنصف هؤلاء في دعواهم أن السيدة افترت المنام للمفاخرة؟ أول ما نفعله هو أن ننظر في الروايات الواردة حول هذا المنام، لننظر ماذا تقول: أول ما نلحظه أن مدار هذه الروايات كلها على هشام بن عروة عن أبيه! كما نلحظ أن الروايات لم تأت بمضمون واحد، وإنما اختلفت مضامينها: ففي الرواية السابقة التي ذكرناها عن البخاري نجده يقول: "رَأَيْتُكِ فِي الْمَنَامِ يَجِيءُ بِكِ الْمَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ" فنجد أنه يتحدث عن أن الملك هو من أتى للنبي بالسيدة عائشة في سرقة من حرير بدون تحديد عدد للمرات!

وفي رواية أخرى في البخاري كذلك، في باب: تزويج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وقدومها المدينة، نجده يقول: "... عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ أَرَى أَنَّكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ وَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاكْشِفْ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ" اهـ

ففي هذه الرواية نجد أن الراوي يقول أن النبي استعمل صيغة المبني لما لم يُسم فاعله، فقال: "أُريتك"، وهذه الرواية حددت عدد المرات بمرتين، إلا أن العجيب في هذه الرواية أنها تقول: "وَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ"، فمن ذلك القائل الذي قال هذا للنبي؟ لم تحدد الروايةُ القائل!

ونجد رواية أخرى في البخاري، في باب: نكاح الأبكار، تقول: "... عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ إِذَا رَجُلٌ يَحْمِلُكِ فِي سَرَقَةِ حَرِيرٍ فَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ[49] ..." فهنا نجد أن الرواية حددت عدد مرات الرؤية بمرتين، إلا أنها جعلت الحامل للسيدة عائشة هو رجل وليس ملكاً.

فإذا نظرنا في صحيح مسلم وجدناه أورد الرواية بمضمون مختلف، فيقول في باب: فضل عائشة رضي الله عنها: "... حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ جَاءَنِي بِكِ الْمَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ ..." فهنا نجد أن الرواية حددت عدد مرات الرؤية بثلاث، وأن الذي جاء بها كان الملك وليس الرجل، وبعد نظرنا في هذه الروايات المختلفة المضمون، والتي أتت عن راو واحد، يحق لنا أن نتساءل: أيها أصح؟ الذي نميل إليه أن الأصح هو تلك الروايات التي قالت أن النبي الكريم رأى السيدة عائشة مرتين وليس ثلاثة، وأن الذي جاء بها كان رجلا وليس ملكاً!

ثم جعل الرواة الذي جاء بها بعد ذلك "الملك"، ليكسوا الحلم ثوب الرؤيا. وميلنا هذا راجع إلى الجملة التي قالها النبي الكريم "إن يك هذا من عند الله يمضه"، فلو كان الذي جاء بها هو الملك، ويتكرر هذا أكثر من مرة، فإن هذا أكثر من كاف ليتأكد النبي الكريم أن المنام وحي من عند الله عزّ وجل! ولكن لما كان النبي الكريم قد رأى رجلاً، تساءل: هل هذا المنام من عند الله "رؤيا" أم ليس كذلك، ثم قال: إن كان من عند الله يمضه!

ونترك قول النبي ونعود إلى الرأي القائل أن الرواية مفتراة أصلا، لتتفاخر بها عائشة ونتساءل: هل من الغريب أن يحلم إنسان بامرأة وأنه سيتزوجها؟ وخاصة إذا كان ممن يراها كثيرا في واقعه؟ ليس هذا من الغريب في شيء! وليس فيه أي إشارة إلى أن

[49] كذلك روى الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في دلائل النبوة وابن حبان في صحيحه رواية بنفس المحتوى، أنها كانت مرتين وأنه كان رجلا وليس ملكا!

الحالم يفكر في المحلوم بها أو يشتهيها، فكثير من الناس قد مر بهذه التجربة، وحلم أنه سيتزوج امرأة، ثم قد يتم الأمر أو لا يتم! وأنا نفسي مررت بهذه التجربة[50]!

فإذا كان الأمر ليس غريباً ولا نادرا، فما العجب في أن يحدث للنبي؟ أم لأنه وارد عن السيدة عائشة فهو كاف لرده؟! لو كانت السيدة عائشة تريد أن تختلق حديثا عن النبي الكريم تتفاخر به، لكان من الأولى ومن الأسهل أن توردە بديباجة أخرى، فتقول فيه مثلا أن الملك قال للنبي أنك ستتزوج هذه الفتاة! أو أن الملك أمره بالزواج منها! أو أي صيغة من هذا القبيل والتي تفيد التأكيد! أما أن تقول أن النبي الكريم قال: "إن يك هذا من عند الله يمضه" والذي يفيد أن النبي لم يكن متأكدا إذا كانت رؤيا أم لا، فليس هذا حال من يختلق رواية يتفاخر بها!

وليست السيدة عائشة التي دافعت عن حديث النبي الكريم، وصححت روايات الصحابة له، وردّت عليهم سهوهم، والتي جعلت القرآن ميزانا للروايات، بالتي تفتري رواية لتتفاخر بها!!!

حكم نكاح الأطفال

من أشهر القضايا المتعلقة بالسيدة عائشة قضية نكاح الأطفال، حيث أن المشتهر من الروايات يقول أن النبي الخاتم تزوجها وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي بنت تسع سنين! وهذا المسألة من المواضع التي يندد بها أعداء الدين، مدعين أن الإسلام أطلق العنان للشهوات، فلم يكتف بتعدد الزوجات! وإنما أباح للرجل أن يتزوج الأطفال! –بعد أن ملّ النساء!– فأضاع حقوق الأطفال وقضى على براءتهم، فكيف يتزوج الطفل البريء الذي لا يعي شيئا؟!

[50] حلمت ثلاث مرات أني أتزوج فتاة، على الرغم من أني لم أكن أفكر فيها مطلقا ولم أكن أميل إليها، ولم أكن أبغضها أو أخشاها في عين الوقت، ولم أتزوجها في نهاية الأمر!

ولقد قال الفقهاء بجواز نكاح الأطفال، وأنشئوا في ذلك أبوابا في الفقه، وفرّعوا في أحكامها! استنادا إلى المروي من فعل النبي؛ أنه عقد على طفلة! كما استندوا إلى آية وحيدة في كتاب الله تعالى، وهي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [سورة الطلاق , ٤]

فيقولون أن المراد من "اللائي لم يحضن" هو الفتيات الصغيرات اللاتي لم يبلغن، وممن قال بهذا؛ الإمام الطبري في كتابه: "جامع البيان في تأويل القرآن": "حدثنا محمد، قال: ثنا أسباط، عن السديّ في قوله: "وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ المَحيضِ مِنْ نِسائِكُمْ" يقول: التي قد ارتفع حيضها، فعدتها ثلاثة أشهر، "واللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ" قال: الجواري. حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: "وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ المَحيضِ مِنْ نِسائِكُمْ" وهنّ اللواتي قعدن من المحيض فلا يحضن، واللائي لم يحضن هنّ الأبكار التي لم يحضن، فعدتهنّ ثلاثة أشهر، حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: "وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ" الآية، قال: القواعد من النساء "واللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ": لم يبلغن المحيض، وقد مُسِسْن، عدتهنّ ثلاثة.[51]" اهـ

ونجد رواية ساقطة في التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، فيها: "فلما نزل قوله تعالى: "فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ"، قام رجل فقال: يا رسول الله فما عدة الصغيرة التي لم تحض؟ فنزل: "وَٱللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ" أي هي بمنزلة الكبيرة التي قد يئست عدتها ثلاثة أشهر. فقام آخر وقال: وما عدة الحوامل يا رسول الله؟ فنزل: "وَأُوْلَٰتُ ٱلأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ[52]" اهـ

---

[51] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المجلد الثالث والعشرون، ص452–453.

[52] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثلاثون، ص32.

فتدعي الرواية أن الآية نزلت مجزأة على مرات كثيرة! استجابة لتساؤلات هؤلاء الأفراد! ولست أدري لماذا لم ينزلها الله مرة واحدة!! إن أي رواية تقول أنه نزل جزء من آية ثم قال فلان كذا أو فعل علان كذا، فأُنزل جزءٌ آخر أو بضع كلمات أخرى، فهي رواية ساقطة، يلقيها المرء خلف ظهره، فالآيات كانت تنزل كاملات مكتملات على الرسول، بل إن سور القرآن نزلت كلها كاملة مكملة، بمعنى أن السورة كانت تنزل كلها مرة واحدة غير مجزئة[53]، لذا فنفض يدك من هذه الروايات المقطعة للآيات!

ونعود إلى مناقشة الآية، فنقول: تبدأ الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ لا خلاف في أن هؤلاء النساء نساء! أي إناث بالغات، وذلك ليأسهن من المحيض، بعد أن نزل عليهن!

والخلاف كله يكمن في قوله تعالى: ﴿... وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ ... ٤﴾ [سورة الـطلاق ,٤]، فهم يرون أن المراد منه الصغيرات اللاتي لم يحضن أصلا، أما نحن فنرى أن المراد منه النساء اللاتي لم تحضن وأن قولهم هذا يوجد تناقضا في كتاب الله، لأنه يجعل هذه الآية معارضة لآية سنعرض لها بعد سطور قلائل!

وننظر في الآية لنحدد أيهما المراد، وكعادتنا دوما في تحديد المعنى المراد، ننظر في السياق العام، والذي يرجح معنى من المعاني: تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ... ١﴾ [سورة الـطلاق ,١]، وهذه الجملة دليل لنا على ما نقول، فالأحكام المذكورة في السورة كلها متعلقة بالنساء، لذا ما ورد في الآية الرابعة هو في النساء كذلك.

والناظر في القرآن كله يجد أنه لم يعرض مطلقا للزواج بالأطفال، ثم إن الآية التي سنذكرها تنفي هذه الاحتمالية. ولنا أن نسأل: إذا كان يجوز الزواج من الأطفال، فما هي أحكامه؟

[53] تناولنا في كتابنا "القرآن سورة واحدة، جزء عم نموذجا" مسألة إنزال القرآن، وأثبتنا بأدلة كثيرات من القرآن وغيره، أن سور القرآن كانت تنزل كاملة. والكتاب غير مطبوع، وهو موجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

إن الله عز وجل قد قال في أول السورة: "إذا طلقتم النساء"، فما الحكم إذا تزوجت طفلة ثم طلقتها؟ لا نجد في القرآن حكما لها، لأن كل الحديث عن النساء! وهذا يعني أن القرآن غفل عنها، ومعاذ الله فليس هناك غفل!

فإذا عدنا للآية وجدنا الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴿٤﴾﴾ [سورة الـطلاق , ٤]

ولا خلاف أن الصنف الأول والثالث هو من النساء، أي أننا يمكننا أن نفهم الآية: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ... وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ... (من نسائكم)﴾ [سورة الـطلاق , ٤] والسؤال هنا: هل نسقط (من نسائكم) أيضا على ﴿... وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ... ﴿٤﴾﴾ [سورة الـطلاق , ٤]، أم نتركها بدون هذا التخصيص، فتشمل من لم يحضن من النساء والفتيات التي لم يحضن ابتداءً؟ وتأتي الإجابة ب: نعم لا بد من إسقاطه، لأن من لم تحض هي امرأة لم تحض لعلة جسدية، وليست طفلة، صنف مذكور بين صنفين من النساء، يُفصِّل القرآن أحكامهن، فما المبرر لنزعها من بينهن وجعلها طفلة؟!

والنقطة الفيصل هي أن الطفلة لا تحيض! فلا يمكن أن يكون الحديث عن أطفال. قد يقول قائل: وما المشكلة في هذا؟ نقول: عندما ينسب القرآن الفعل إلى فاعله أو ينفيه عنه، فيفترض فيه أنه من أهله، الذي يمكنه أن يأتيه أو يمتنع عنه، والطفلة بداهة لا تحيض.

لذا لو كان الله تعالى يتحدث عن الأطفال، لكان من المفترض أن يقول: "واللائي لم يبلغن المحيض"! كما قال في النور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ... ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النّور , ٥٩] فنفهم من هذا أن الحديث هنا عن أطفال وليس عن نساء،

أما طالما أن الله تعالى نفى الفعل عنهن، فمن المفترض أنهن من أهل القيام به، وهذا ما لا يكون إلا في النساء!

إذا فالله تعالى يذكر حكم المرتاب في حيضها وحكم من لم تحض ابتداءً وحكم الحامل، وكلاهن من النساء ولا دخل للأطفال فيهن! وحتى لا يظل القارئ في ريب من فهمنا للآية، نذكر الآية الأخرى التي تثبت ما نقول به، والتي لم يراعها القائلون بالجواز، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ... ٦﴾ [سورة النساء, ٦]

فالله تعالى يأمر الأوصياء باختبار عقول اليتامى، ليعرفوا هل يصلحون لتحمل الأموال أم لا! ويستمر هذا الابتلاء حتى يبلغوا النكاح. فهذه الآية دليل على أن النكاح لا يكون إلا بعد البلوغ[54]، فهي تقول: اختبروهم حتى إذا بلغوا النكاح، أي أن النكاح لا يكون إلا بعد سن معينة يبلغها الإنسان.

وحتى لا يقول قائل: وكيف لم ينتبه إلى هذه الآية المفسرون والفقهاء؟! نقول: لقد أوّلوا الآية بغير ما قالت، فقالوا أن المراد من بلوغ النكاح هو الحلُم، كما جاء في تفسير مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي: "المسألة الثانية: المراد من بلوغ النكاح هو الاحتلام المذكور في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ ... ٥٩﴾ [سورة النّور, ٥٩] وهو في قول عامة الفقهاء عبارة عن البلوغ مبلغ الرجال، الذي عنده يجري على صاحبه القلم ويلزمه الحدود والأحكام، وإنما سمي الاحتلام بلوغ النكاح لأنه إنزال الماء الدافق الذي يكون في الجماع[55]" اهـ

وبداهة فإن النكاح ليس هو البلوغ! وجعلهم هذا مساوٍ لذاك قول لا بينة عليه!

---

[54] ليس هذا القول بالحديث، وإنما هو موجود وظاهر من أيام التابعين، فأول من قال أنه لا يجوز نكاح الصغار استناداً إلى هذه الآية هو ابن شبرمة، قاضي الكوفة، وهو من التابعين المشهود لهم، توفي عام 144هـ.

[55] فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، المجلد التاسع، ص.153.

ونحن وإن كنا نرى أن المراد من النكاح هو النكاح، والذي لا يكون إلا بعد فترة من البلوغ في الأعم الغالب، فلا يكفي الذكر أو الأنثى مجرد البلوغ لتحمل مسؤولية النكاح، والذي هو الزواج وليس الوطء! فليس الزواج مجرد وطء الذكر للأنثى، وإنما هو علاقة ومسؤولية، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [سورة الأحزاب, ٤٩]

فالآية دليل على وجود النكاح ثم الطلاق قبل المس، فيكون المراد منه العقد، -وهذا رد على من يقول أن النبي عقد على طفلة ودخل على بالغة!- وإنما يحتاج إلى فترة أخرى، تتراوح من شخص لآخر، حتى يستطيع تحمل تبعات الزواج. فإذا بلغ الإنسان هذه المرحلة وأصبح مؤهلا للنكاح، فإن آنسنا منه رشدا ندفع له ماله!

وحتى لو تنازلنا وقبلنا قولهم، وقلنا أن المراد من بلوغ النكاح هو البلوغ فقط! فلنا أن نسأل: إذا كان يمكن الزواج من الصبية ولا يحتاج المرء الانتظار إلى أي سن، فلم قال الله: "بلغوا النكاح"؟ هذه الكلمة دليل على بدهية وجود سن معينة، يلزم بلوغها أولا حتى يستطيع الإنسان أن ينكح، وقبلها لا يُقبل هذا عقلا!

فإذا قلنا أن آية الطلاق هي في الأطفال، فهذا يعني أنها مخالفة لآية النساء، وتعالى كتاب الله عن الخلاف أو الاختلاف! إذاً، نخرج من هذا بأن القرآن لم يتحدث قط عن نكاح الصغيرة، التي تتحمل الوطء، -وكأن الزواج ما هو إلا وطء!-، وإنما تحدث عن نكاح نساء راشدات!

وإني لأعجب ممن يقبلون تزويج من لم تتحمل الأحكام الشرعية، فإذا كان الشارع قد حد عمراً لبدأ تحمل التكاليف البسيطة، فكيف نحمل طفلة مسؤولية الزواج؟! وكيف تُحرم من طفولتها؟!

عمر السيدة خديجة عند زواجها النبي

بعد أن أثبتنا أن القرآن العظيم لم يتحدث إلا عن نكاح نساء، وقبل أن نناقش الروايات التي تحدثت عن عمر السيدة عائشة عند زواجها النبي، نتوقف مع الروايات الواردة بشأن عمر السيدة خديجة عند زواجها النبي الكريم! لنقدم للقارئ الكريم كيف أن المؤرخين أوردوا بعض الأخبار، وقبلوها كما هي، بدون أي وجه للنقد، مما أدى إلى رمي النبي الكريم ببعض الاتهامات وإحاطته بالشبه!

المشتهر أن النبي الكريم تزوج السيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين من عمرها! وعامة المسلمين يتقبلون هذا الزواج ولا يرون فيه أي حرج! إلا أن غير المسلمين جعلوا هذا الزواج استغلالاً من النبي الكريم للسيدة خديجة ليستولي على ثروتها! وقال آخرون أن السيدة خديجة اشترت النبي الشاب بمالها! بل وقال بعض الشيعة أن النبي لم يكن له أولاد إلا فاطمة، أما باقي أولاده فهم في الواقع ليسوا أولاده، وإنما أولاد لخديجة من زواجها قبل النبي! ورمى بعض أعداء الدين النبي الكريم بالعجز الجنسي!!

لذا فنحن نتساءل: هل هذه الرواية صحيحة؟ وهل يقبلها العقل أو المنطق؟

نترك الإجابة للأستاذ أصلان عبد السلام حسن، والذي يقول: "في التاريخ العربي الإسلامي فجوات وثغرات –كما رأينا– في حاجة إلى أن تتناولها الأقلام والأفكار بالبحث العلمي، والدراسات الهادفة والتمحيص الدقيق حتى تعلو بها إلى أفق المنطق، وتسمو بها إلى الدقة الصادقة. ومن هذه الثغرات إهمال الرواية في ربط الأحداث بتواريخها الصحيحة، وعدم استهداف المنطق العلمي في الحديث عن أعمار الشخصيات التاريخية، فلقد اتجهت عناية مؤرخينا إلى العناوين والكليات دون التفات إلى الدقائق والتفاصيل والجزئيات (...) في حالة السيدة خديجة:

أولا: لم يذكر ابن إسحاق وابن هشام شيئا عن سن السيدة خديجة. وهذا الكتاب من أقدم ما كتب عن السيرة ووصلنا.

ثانيا: ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى روايتين: واحدة أنها كانت في الثامنة والعشرين والثانية أنها كانت في الأربعين.

ثالثا: ثم نجد الرواية التالية تتكرر في أكثر من مرجع: تقول الرواية: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين خديجة بعد موت القاسم، وهي تبكي فقالت: يا رسول الله درت لبينة القاسم فلو كان عاش حتى يستكمل الرضاعة لهون علي. فقال: إن له مرضعاً في الجنة. فقالت: لو أعلم ذلك لهون علي. فقال: إن شئت أسمعتك صوته في الجنة. فقالت: بل أصدق الله ورسوله"

وهذه الحديث المتبادل –إن صح وبصرف النظر عن اسم الطفل المذكور ففيه خلاف– لا يكون إلا بعد النبوة.

رابعا: الثابت أن السيدة خديجة أنجبت ولدها الأخير (عبد الله) بعد النبوة وتوفى صغيرا، وقد عيّر بعض المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبتر عقب وفاة أطفاله الذكور، فنزلت سورة الكوثر، وهي الخامسة عشر في ترتيب نزول القرآن.

من كل ذلك يتأكد أن السيدة خديجة قد حملت ووضعت بعد النبوة، وإذا كانت قد تزوجت النبي وهي في الأربعين فمعنى ذلك أنها كانت تنجب للرسول لمدة سبعة عشر عاما من زواجها، أي وهي في السابعة والخمسين من عمرها، وهذا شيء يستبعده العلم قديما وحديثا.[56]" اهـ

فكما رأينا فلقد روى الرواة أن النبي تزوج خديجة وهي في الأربعين، ورووا أنه تزوجها وهي في الثامنة والعشرين، إلا أن الذي اشتهر وانتشر هو الرواية القائلة بأنها كانت في الأربعين! مما فتح بابا للطعن في نسبة أولاد النبي الكريم إليه! فكيف تنجب امرأة في

[56] أصلان عبد السلام حسن، قراءة نقدية في كتب السيرة، ص.51.

هذا السن كل هذا العدد من الأولاد؟! وكيف ينجب النبي من عجوز كل هذا العدد من الأولاد ولا ينجب من غيرها إلا من مارية القبطية، بعد سنين طوال؟!

أما إذا قلنا أن النبي الكريم تزوجها وهي في الثامنة والعشرين فإن الزواج يكون مقبولاً، من الناحية العمرية، ولا إشكال في إنجاب السيدة خديجة أي عدد من الأولاد! كما أنه لا عجب في أن ينجب النبي الكريم منها ولا ينجب من غيرها! فمعها أفنى النبي مرحلة الشباب، ولم يتزوج إلا بعد الخمسين من عمره! ولا إشكال في أن تقل خصوبة الرجل بعد تجاوزه الخمسين!

فإذا كانت المرأة وافرة الخصوبة –مثل مارية التي غُذت في مصر ونشأت بها– فلا عجب في أن ينجب النبي منها ولدا! قد يقول قائل: إنك تقول هذا دفاعا عن نبيك! نقول: بل إن هذا هو الحياد، فإذا وردتني روايات غير موثوق بها، أحدها تشكك في نسب إنسان، وأخرى لا تشكك، فمن إحسان الظن –في التعامل مع القريب والغريب– أن نقبل الروايات الخالية من الهمز والغمز! أما أن نتتبع الأقوال الطاعنة المسيئة، فهذا لا يصدر إلا ممن كان في قلبه مرض، ويبحث عن التشويه!!

سن عائشة عندما دخل بها النبي!

بعد أن بيّنا كيف أن المؤرخين لم يروا عجبا في إنجاب سيدة تتزوج في الأربعين من عمرها كل هذا العدد من الأولاد، ننتقل إلى نقطتنا الرئيسة، وهي: كم كان عمر السيدة عائشة عندما دخل بها النبي الكريم؟!

أكثر الروايات تقول أن النبي الكريم تزوج السيدة عائشة وهي بنت ست سنين، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، وورد في ذلك الروايات الكثيرة، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه في باب: تزويج الأب البكر: "... حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال وجدت في كتابي عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: "تزوجني رسول

الله صلى الله عليه وسلم لست سنين وبنى بي وأنا بنت تسعة سنين، قالت: فقدمنا المدينة فوعكت شهرا فوفى شعري حميمة فأتتني أم رومان وأنا على أرجوحة ومعي صواحبي فصرخت بي فأتيتها وما أدري ما تريد بي فأخذت بيدي فأوقفتني على الباب فقلت: هه هه حتى ذهب نفسي، فأدخلتني بيتا فإذا نسوة من الأنصار فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن فغسلن رأسي وأصلحنني، فلم يرعني إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمنني إليه " اهـ

وروايات أخرى كثيرة مشابهة في البخاري ومسلم وغيرهما تتفق في هذا المعنى من أن الرسول تزوجها وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي بنت تسع سنين، لذلك نجد الإمام ابن حجر يقول في "فتح الباري": " قوله: باب إنكاح الرجل ولده الصغار: ضبط ولده بضم الواو وسكون اللام على الجمع وهو واضح، وبفتحهما على أنه اسم جنس، وهو أعم من الذكور والإناث. قوله (لقول الله تعالى: "واللائي لم يحضن"، فجعل عدتها ثلاثة أشهر قبل البلوغ) أي فدل على أن نكاحها قبل البلوغ جائز، وهو استنباط حسن، لكن ليس في الآية تخصيص ذلك بالوالد ولا بالبكر. ويمكن أن يقال الأصل في الأبضاع التحريم إلا ما دل عليه الدليل، وقد ورد حديث عائشة في تزويج أبي بكر لها وهي دون البلوغ فبقي ما عداه على الأصل، ولهذا السر أورد حديث عائشة، قال المهلب: أجمعوا أنه يجوز للأب تزويج ابنته الصغيرة البكر ولو كانت لا يوطأ مثلها. إلا أن الطحاوي حكى عن ابن شبرمة منعه فيمن لا توطأ، وحكى ابن حزم عن ابن شبرمة مطلقا أن الأب لا يزوج بنته البكر الصغيرة حتى تبلغ وتأذن، وزعم أن تزويج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي بنت ست سنين كان من خصائصه، ومقابله تجويز الحسن والنخعي للأب إجبار بنته كبيرة كانت أو صغيرة بكرا كانت أو ثيبا.[57]"اهـ

فهل هذه الروايات صحيحة؟ أم أن بها عبثا من الرواة؟!

---

[57] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله، محب الدين الخطيب، المجلد التاسع، ص.190.

إذا نحن رجعنا إلى الرواية التي ذكرناها سابقا، عند حديثنا عن عرض خولة بنت حكيم الزواج على النبي الكريم، وكيف أنها خيّرته بين البكر والثيب، ثم أخبرته أن البكر هي عائشة، والثيب هي سودة، يحق لنا أن نتساءل: هل يُقبل أن تعرض امرأة على رجل، تريد أن تخرجه من حالة الحزن أو البعد عن النساء، طفلة؟! فتقول له: اخطب طفلة، ثم انتظر سنة أو اثنتين أو أكثر حتى تكبر ثم تزوجها!! المعقول أن تعرض عليه شابة صالحة للزواج، فإذا وافق الرجل عليها، ذهبتْ فأتمت الموضوع! أما أن تعرض طفلة صغيرة، فلا نفع من هذا العرض، بل هو من باب المزاح الثقيل!!

فإذا تركنا هذا الحديث الذي لا بد أن يستفاد منه أن السيدة عائشة كانت شابة، وجدنا أن هناك الكثير والكثير من الشواهد التاريخية الأخرى التي تثبت أن هذا التاريخ مغلوط، وأن ما اشتهر من أن السيدة عائشة وُلدت في السنة الرابعة من البعثة، –وهذا التحديد استنتجه العلماء من الروايات التي تحدثت عن عام عقد النبي عليها ودخوله بها، والتي قالت أن النبي عقد عليها قبل الهجرة بسنة ودخل عليها بعد الهجرة بسنة أو سنتين!– غير صحيح، وأن النبي الكريم ما تزوج السيدة عائشة ولا دخل بها في هذا السن، وإنما بعده بكثير، ولنتتبع هذه الشواهد التاريخية:

إذا نحن رجعنا إلى مصدر من أقدم المصادر التاريخية الإسلامية وهي سيرة ابن إسحاق، والمعروفة والمختصرة بسيرة ابن هشام وجدناه يعدد السابقين في الدخول في الإسلام على يد أبي بكر الصديق، فيقول: "... وَامْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطّابِ بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ قُرْطِ بْنِ رِيَاحِ بْنِ رَزَاح بْنِ عَدِيّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ، أُخْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ. وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ. وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَهِيَ يَوْمئِذٍ صَغِيرَةٌ . وَخَبّابُ بْنُ الْأَرَتّ، حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ[58]." اهـ

فابن إسحاق يذكر السيدة عائشة من بين السابقات إلى الدخول في الإسلام، ثم يعلق على هذه المسألة بقوله: "وهي يومئذ صغيرة" –نرى أنها كانت حوالي أربعة

[58] ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد الأول، ص.254.

أعوام–، وهذا يعني أن من روى لابن إسحاق لم يكن غافلا ولم يقل هذا سهوا، وإنما كان يعي ما يقول، وبهذا يكون ابن إسحاق وابن هشام من الذين يقولون أن السيدة عائشة كانت مولودة قبل البعثة وليست بعدها!

وكذلك نجد المطهر بن طاهر المقدسي ت: 355هـ، يعدد في كتابه الكبير: البدء والتاريخ السابقين إلى الإسلام، فيقول: " ... وخباب بن الأرت وعامر بن فهيرة – رضي الله عنهم أجمعين– ومن النساء: أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر ابن أبي طالب وفاطمة بنت الخطاب امرأة سعيد بن زيد بن عمرو وأسماء بنت أبي بكر وعائشة وهي صغيرة، فكان إسلام هؤلاء في ثلاث سنين ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في خفية قبل أن يدخل دار أرقم بن أبي الأرقم ...[59]" اهـ

فكذلك نجد أن هذه الرواية تؤكد أن السيدة عائشة كانت صغيرة في بداية البعثة النبوية! فإذا تركنا الروايات عن كون السيدة عائشة من السابقات إلى الإسلام، وجدنا أن الفارق العمري بين السيدة أسماء[60] والسيدة عائشة من الدلائل على ما نقول: فالمشتهر أن أسماء بنت أبي بكر ولدت قبل البعثة بأربعة عشر عاما، وماتت سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وكان عمرها عند موتها مائة عام بالتمام والكمال، ونجري عملية حسابية بسيطة: 14 قبل البعثة + 13 سنة في مكة = 27 عاما + 73 = 100 عام.

كم كان الفارق بينها وبين أختها السيدة عائشة؟

---

[59] المطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، الجزء الرابع، ص. 146.

[60] مسألة الفارق العمري بين السيدة أسماء والسيدة عائشة هو الذي دفعني إلى البدء في هذا البحث! فلقد كنت كأزهري مقتنع بالتبريرات التي قدموها لنا في الدراسة، من أن الفتيات في جزيرة العرب في ذلك الزمان كن يبلغن في سن مبكرة، وأن هذا كان من عادات العرب! ...الخ التبريرات، إلى أن سمعت ضيفا في أحد البرامج الدينية يلمح إلى أن مسألة عمر السيدة عائشة غير ثابتة، وأن هناك من يقول أنها كانت أكبر من ذلك، استنادا إلى الفارق بينها وبين أسماء. إلا أنه لم يعرج على هذه النقطة، واكتفى بالردود التقليدية! وحدث بعدها أن كنت أعيد قراءة سيرة ابن هشام فوجدته يذكر عائشة في السابقين إلى الإسلام، فكان أن بدأت البحث!

جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر في التعريف بالسيدة أسماء بنت أبي بكر: "... وكانت أخت عائشة لأبيها قال ابن أبي الزناد وكانت أكبر من عائشة بعشر سنين." اهـ

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "وماتت أمه بعده بشهرين أو نحو ذلك، ولها قريب من مئة عام. هي آخر من ماتت من المهاجرات الأول رضي الله عنها، ويقال لها: ذات النطاقين. كانت أسن من عائشة بسنوات[61]." اهـ

فإذا طرحنا عمر السيدة عائشة من عمر السيدة أسماء، فنفهم من هذا أن السيدة عائشة ولدت قبل البعثة بأربع سنوات وليس بعدها بأربع سنوات، فيكون ما حدث في النقل هو من باب الخلط! ويكون الأمر قد التبس على الرواة!

فإذا تركنا مسألة الفارق بينها وبين السيدة أسماء، وجدنا أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل النبي الكريم لجبير بن مطعم!، وهذا ما لا يُختلف عليه، بل إن بعض الروايات زادت على ذلك، فقالت إنها كانت زوجه[62]! وذلك مثل ما رواه ابن سعد في طبقاته: "عن عبد الله بن أبي ملكية قال: خطب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عائشة بنت أبي بكر الصديق فقال: يا رسول الله إني كنت أعطيتها مطعما لابنه جبير فدعني حتى أسلها منهم. فاستسلها منهم فطلقها فتزوجها رسول الله، صلى الله عليه وسلم.[63]" اهـ

فكيف كانت عائشة هذه التي تُخطب أو تُزوج قبل السادسة؟! —مع ملاحظة أن السيدة عائشة لم تكن جسيمة! حتى لا يفكر أحد في هذه الاحتمالية! وابن عبد البر يقدم لنا في الاستيعاب رواية تقضي على هذه الاحتمالات كلها، وتقدم لنا نموذجا لعدم نقد المحتوى الخبري، وهي: "... تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة

---

[61] محمد أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، المجلد الثالث، ص.379.

[62] كانت السيدة عائشة تكنى بأم عبد الله، نسبة إلى ابن أختها: عبد الله بن الزبير، إلا أن بعض الشيعة يقولون أن هذه الكنية كانت حقيقية، وعبد الله هذا كان ابنها من جبير! إلا أن هذا قول لا دليل تاريخي عليه! فالروايات الواردة كلها تقول أنها سألت النبي —لما رأت النساء تُكنى!— أن تتكنى هي الأخرى، فأمرها أن تكني نفسها بابن أختها: عبد الله!

[63] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثامن، ص.59.

قبل الهجرة بسنتين، هذا قول أبي عبيدة وقال غيره بثلاث سنين وهي بنت ست سنين وقيل بنت سبع، وابتني بها بالمدينة وهي ابنة تسع، لا أعلمهم اختلفوا في ذلك. وكانت تُذكر لجبير بن مطعم وتُسمى له وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُري عائشة في المنام في سرقة من حرير فتوفيت خديجة فقال: إن يكن هذا من عند الله يمضه. فتزوجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، فيما ذكر الزبير، وكان موت خديجة قبل مخرجه إلى المدينة مهاجراً بثلاث سنين. هذا أولى ما قيل في ذلك وأصحه إن شاء الله تعالى، وقد قيل في موت خديجة إنه كان قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بأربع على ما ذكرناه في بابها[64]" اهـ

ففي هذه الرواية يقول ابن عبد البر أن النبي تزوج عائشة وهي بنت ست سنين، كما يقول أنها كانت تُذكر لجبير بن مطعم وأن النبي الكريم رآها في المنام قبل موت السيدة خديجة، ولمّا تُوفيت تزوجها بعد ذلك بثلاث سنوات!

فلو قلنا أن النبي رآها قبل موت السيدة خديجة بسنة واحدة فقط، وأنه تزوجها بعدها بثلاث سنوات، فإن هذا يعني أن النبي الكريم رأى في المنام طفلة رضيعة يقال أنها زوجه؟! ولو قيل بأن الله قدّم له في المنام صورتها التي ستكون عليها فيما بعد، لما عرفها النبي ولسأل من هذه؟ وهو لم يفعل هذا، لأنه كان يعرف التي رآها! المعقول والمقبول أن تكون أكبر من هذا حتى تُخطب أو تزوج، وأن تُرى في المنام فتُعرف ولا يُستغرب!

والنقطة التي لم ينتبه إليها القائلون بالست سنين، هي: الحصار! فكلنا يعلم أن المشركين كانوا قد فرضوا حصاراً على النبي وأصحابه في شعاب مكة، استمر قرابة الثلاث سنوات! وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل كانت الخطبة قبل الحصار أم بعده ؟

المنطق يقول أنه لزام أن تكون الخطبة لجبير قبل الحصار، لأنه من غير المقبول أن يكون هذا حال المشركين ضد المسلمين، ثم يخطب صاحب الرسول وصديقه أبو

[64] أبو عمر يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، المجلد الرابع، 1881.

بكر ابنته لأحدهم! فإذا قلنا أنه كان قبل الحصار، فكم كان عمر السيدة عائشة عند خطبتها؟! عام أم اثنان أم ثلاثة؟!!

فإذا تركنا هذه المسألة وجدنا أن هناك روايات في البخاري، يُستفاد منها أنها لم تكن صغيرة، وأنها وُلدت قبل الإسلام، من ذلك ما رواه البخاري في باب: جوار أبي بكر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعقده: "... أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ..."

فهذه الرواية، تثبت أن السيدة عائشة كانت مولودة قبل البعثة بدليل قولها: "لم أعقل أبواي قط إلا وهما يدينان الدين" فهنا نجد السيدة عائشة تقول: أنها عندما بلغت التمييز والعقل كان أبواها يدينان بالدين، بينما عندما لم تكن تعقل لم يكونا قد أسلما[65]، ومن ثم فيُفهم أن الدعوة إلى الإسلام بدأت بعد فترة قصيرة من ولادتها! وأصحاب الرأي الآخر لم يجعلوا ل "أعقل أبواي" أي ميزة، فكأنها قالت: وُلدت! ولو كانت وُلدت وأبواها مسلمين لقالت: ولدت وأبواي يدينان الدين!

ولا يمكننا أن نجعل قولها: "لم أعقل" مساوٍ ل: "ولدت"!

أدلة إضافية

1- مشاركتها في معركة بدر وأحد[66]

يروي لنا الإمام مسلم، في باب كراهية الاستعانة في الغزوة بالكافر، رواية، تبين أن السيدة عائشة شاركت في معركة بدر، فيروي لنا رواية على لسانها، عن رحلتها إلى بدر وعن حادث مهم وقع أثناء السفر: "... حتى إذا كنا بالشجرة ..."

[65] يُسمى هذا الصنف من الاستدلال: دليل الخطاب! فعندما أخصص الشيء بالذكر فإن هذا يعني نفي ما عداه.

[66] هذا الدليل والدليلان القادمان ليسوا لي، وإنما وجدتهم على الشبكة المعلوماتية، فأعدت صياغتهم!

فهذا دليل ساطع على أنها كانت من ضمن المسافرين نحو بدر.

وكذلك نجد رواية أخرى عند البخاري في باب: غزو النساء وقتالهن مع الرجال: "عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ الْقِرَبَ وَقَالَ غَيْرُهُ تَنْقُلَانِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآَنِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ" اهـ

فهذا دليل آخر على أن عائشة شهدت أحد!

وهنا يحق لنا أن نتساءل: إذا كان النبي قد منع القاصرين من الرجال من المشاركة في معركة أحد، استناداً إلى الرواية التي رواها البخاري في باب: بلوغ الصبيان وشهادتهم: "... حَدَّثَنِي ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْنِي ثُمَّ عَرَضَنِي يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي، قَالَ نَافِعٌ فَقَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ خَلِيفَةٌ فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَدٌّ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ" اهـ

فكيف أباح للسيدة عائشة وهي في التاسعة من عمرها تقريبا المشاركة في غزوة بدر؟!

إن هذه الروايات دليل على أن السيدة عائشة لم تكن طفلة صغيرة عندما دخل النبي الكريم بها بعد سنتين من الهجرة، فلم تكن تلك الطفلة التي أُخذت من على الأرجوحة وزُوجت النبي، وإنما كانت شابة فتية "رجلة"، يمكن الاعتماد عليها في أعسر المواقف، حتى أنها شاركت في غزوتي بدر وأحد، فلم تخرج لتتسلى بمشاهدة المعركة، وإنما لتساعد الرجال وتمرضهم إذا اقتضى الأمر!

2- نزول سورة القمر

يروي لنا البخاري في كتاب التفسير، رواية عن يوسف بن ماهك، يقول فيها: "إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَإِنِّي

لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: "بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ" فالرواية تقول أن سورة القمر نزلت والسيدة عائشة جارية تلعب! وسورة القمر نزلت لثمان سنين قبل الهجرة أي عام 614م، فإذا كانت بداية عيش عائشة جنب النبي سنة 623 أو 624 وهي في التاسعة من عمرها، فهذا يعني أنها كانت رضيعة عندما نزلت سورة القمر!

ولكن الرواية السابقة تقول أنها كانت جارية، وليست رضيعة سنة النزول، وهو ما يؤكد بالضرورة أن سنها كان يتراوح زمن نزول سورة القمر بين السادسة والثالثة عشر، و من ثم يكون سنها وقت زواجها يتراوح بين الرابعة عشر والحادية والعشرين. ومن ثم لا يمكن القول أنها كانت في التاسعة عندما دخل بها النبي!

وحتى على فرض أنها ولدت بعد البعثة بأربع سنوات –وهذا ما لا نقول به ونرى صحة ما ورد عند ابن هشام وغيره، ونرى أن ما في البخاري ومسلم هو من تخليط الرواة!– فلنر كم كان عمرها عندما دخل بها النبي الكريم: روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس أن الرسول مكث في مكة خمسة عشر عامًا: "... عَنْ عَمَّارِ بْنِ أَبِي عَمَّارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ سَبْعًا يَرَى الضَّوْءَ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ وَثَمَانِيًا أَوْ سَبْعًا يُوحَى إِلَيْهِ وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ عَشْرًا" اهـ

فيكون عمرها إذا دخل بها مباشرة بعد الهجرة: 15 – 4 = 11 عامًا، والمروي عن السيدة عائشة أنه صلى الله عليه وسلم بنى بها بعد الهجرة بسنتين.

فيكون عمرها 11 + 2 = 13 عامًا.

ولو أخذنا برواية ابن عباس في البخاري يكون عمرها: 13 – 4 = 9 + 2 = 11 عامًا بالتمام والكمال. إذا على أسوأ الأحوال فالرسول دخل بها وهي بنت إحدى عشر عاما وليس تسع سنين، كما أنه يفيد أن الروايات القائلة بست سنين غير صحيحة!

أما إذا أجرينا حساباتنا على الفرضية الأولى وهي أن السيدة أسماء أسن من السيدة عائشة بعشر سنين فيكون الأمر كالتالي: 27 + 73 = 100 سنة عمر السيدة أسماء حين ماتت، رضي الله عنها وأرضاها. فيكون عمرها عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هو: 100 – 73 = 27 + 10 (11 هـ عام وفاة النبي) = 37 عامًا.

وعلى هذا فيكون عمر السيدة عائشة 37 – 10 = 27 عامًا بالتمام والكمال حين وفاة الرسول الكريم، فإذا أردنا تحديد زمن الدخول بها قمنا بالتالي: 27–9= 18، فبهذا يكون النبي الكريم تزوجها وهي بنت 18 عاما.

وبهذا نكون قد أثبتنا أن السيدة عائشة كانت امرأة حين تزوجها الرسول الكريم وحين دخل بها ولم يتزوجها طفلة! وبهذا نسقط الاستدلال الذي يستدلون به على أن الإسلام يبيح نكاح الأطفال أو أن الرسول الشهواني كان يبحث عن النساء في جميع الأعمار، وأهم من ذلك كله نكون قد أثبتنا أن الرسول الكريم مطبق للقرآن العظيم أمثل تطبيق، وهو قدوة للناس أجمعين فليس لدينا ما نخجل منه أو نحاول أن نبرره بأي حال من الأحوال.

كيف قيل بست سنين؟

قد يرفض القارئ الرأي الذي وصلنا إليه، الرافض لكون السيدة عائشة طفلة، لأن الروايات الواردة في هذا الشأن كثيرة جدا، فكلها تقول أنها كانت بين السادسة أو السابعة، ومن غير المعقول أن تكون هذه الروايات كلها غير صحيحة! فنقول: ليست الروايات بالكثرة المتصورة، فمعظم الروايات عن هشام بن عروة عن أبيه، –ولقد تُكلم

في هشام بن عروة[67] أنه كان يحدث عن أبيه ما لم يسمعه منه– وما لم يأت عن طريقه فهو قليل!

فإذا كان هشام أخذ هذا عن غير أبيه فإن هذا يسقط الجزء الأكبر من الروايات! والذي أراه أنا، أن القول بست سنين، كان تقديرا من الرواة لعمر عائشة، يذكرونه عند حديثهم عن الزواج، ثم أصبح مع الزمان وتعصب الرواة لما يقولون، من قول عائشة نفسها.

وننظر في الروايات التي ذكرناها لنلحظ ذلك: فإذا بدأنا بأول رواية ذكرناها في هذا الموضوع، وكانت من الإمام مسلم، نجده يقول: "قال وجدت في كتابي عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم لست سنين وبنى بي وأنا بنت تسعة سنين، قالت: فقدمنا المدينة فوعكت شهرا فوفى شعري ..." اهـ

فهذه الرواية كما هو جلي فيها حذف من الرواة أو إضافة! واقرأ الرواية تجد أنها تبدأ ب "قالت: تزوجني ..." ثم: "قالت: فقدمنا المدينة" فإذا كان القولان من قولها، فمن المنطقي أن تقول مثلا: تزوجني ثم قدمنا المدينة فحدث كذا وكذا وتزوجني وأنا بنت تسع سنين مثلا!؟! إن هذا يشعر أن الراوي هو من وضع الجزء الأول تمهيدا من عنده، ثم بعد ذلك بدأ يحكي قولها!

والملاحظ أنه لا ترابط في الكلام، مما يشعر أن الراوي نسي شيئاً أو يروي الرواية مقتضبة، أو أن الصياغة من عنده!! والذي يؤكد هذا القول، الرواية الطويلة التي ذكرناها عن الإمام أحمد بن حنبل عند حديثنا عن زواج الرسول، فالرواية جاءت بهذا

---

[67] على الرغم من أن هشام موثق، إلا أنه عيب عليه آخر حياته، قال يعقوب بن شيبة: هشام ثبت، لم ينكر عليه إلا بعدما صار إلى العراق، فإنه انبسط في الرواية، وأرسل عن أبيه أشياء، مما كان قد سمعه من غير أبيه عن أبيه. وقال عبد الرحمن بن خراش: بلغني أن مالكا نقم على هشام بن عروة حديثه لأهل العراق، وكان لا يرضاه، ثم قال: قدم الكوفة ثلاث مرات، قدمة كان يقول فيها: حدثني أبي قال: سمعت عائشة. وقدم الثانية فكان يقول: أخبرني أبي عن عائشة. وقدم الثالثة فكان يقول: أبي عن عائشة، يعني يرسل عن أبيه.

الشكل: "عن أبي سلمة ويحيى: جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَزَوَّجُ؟ (...) قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الْحَارِثِ (...) وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ" اهـ

فهنا نجد أن الإمام أحمد يذكر رواية عن أبي سلمة ويحيى، ثم في منتصف الرواية نجد أنهما يبدأن القص عن السيدة عائشة، ونجد أن أول ما يُحكى عنها قولها: "فقدمنا المدينة"، وهي نفس الجملة التي جاءت في مسلم بعد "قالت"! فهذا دليل على أن السابق من قول الراوي نفسه وليس من قول عائشة، إلا أنه ذكره على لسانها! قد يقول قائل: ولكن رواية أحمد انتهت كذلك بقولها: "وأنا يومئذ بنت تسع سنين". نقول: نلاحظ، أنه لا ارتباط بين الجملة وما يسبقها، فهي مجرد إدراج للتعريف بعمر السيدة عائشة، وهنا جعلها الراوي على لسانها!

والذي يؤكد هذا، الروايات الأخرى التي جاءت عن السيدة عائشة، وقام الراوي بنفس الأمر، إلا أنه لم يجعل الجملة على لسانها! فنجد أن ابن أبي عاصم يذكر في "الآحاد والمثاني" رواية تقول: "عن عائشة رضي الله عنها قالت خولة بنت حكيم بن أمية بن الأوقص امرأة عثمان بن مظعون رضي الله عنهما وذلك بمكة: أي رسول الله ألا تتزوج؟ ... فجاءه فأنكحه وهي يومئذ ابنة ست سنين «فهنا جاء الحديث عن السيدة عائشة بضمير الغائب "هي"! وهذا يعني أن راوي الحديث لم يكن السيدة عائشة! لأنها لو كانت تتكلم عن نفسها لقالت: فأنكحنيه وأنا يومئذ ابنة ست سنين" وكذلك نجد نفس الرواية عند الحاكم في "المستدرك على الصحيحين"، إلا أنه قال في آخرها: " ... فجاء فأنكحه، وهي يومئذ ابنة سبع سنين «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه" اهـ

فهنا نجد كذلك رواية بضمير الغائب عن السيدة عائشة مع أنه من المفترض أنها هي المتحدثة!! ونجد ابن سعد يروي في الطبقات الكبرى صراحة هذا الرأي عن هشام والزهري فيقول: "أخبرنا محمد بن حميد العبدي، حدثنا معمر عن الزهري وهشام بن

عروة قالا: نكح النبي، صلى الله عليه وسلم، عائشة وهي بنت تسع سنوات أو سبع.[68]" اهـ

والذي نراه أن الرواة أدرجوا قولهما عند روايتهم الأحاديث عن عمر السيدة عائشة عند زواجها! فكانوا يضعونه في بداية الرواية أو آخرها، على لسان السيدة عائشة!

لم تكن تتصابى!

يطعن بعض المخالفين في السيدة عائشة بقولهم أنها أرادت أن تُصغر نفسها عند زواجها النبي حتى تتميز عن أقرانها! فنقول: نعم، كانت السيدة عائشة –كامرأة محبة لزوجها– تفتخر على قريناتها بأنها كانت بكراً، وأن زوجها كان يحبها ... الخ

أما أن تفتخر عليهن بأنها كانت طفلة عند زواج النبي الكريم بها فهذا ما لا يصدر من امرأة لها عقل السيدة عائشة! ولا نقبل الرأي الذي يقول أنه ربما صدر منها على سبيل المزاح! وأنها كانت تحدث أنها تزوجت وهي صغيرة، ولما سُئلت عن عمرها قالت أنها كانت في السادسة، على سبيل المزاح، فصُدقت وتُنوقل الخبر على أنه حقيقة!

وهناك من يقول أن هذا القول صدر من السيدة عائشة ولكن ليس على هذه الهيئة، وإنما قالت أن النبي بُعث وهي بنت ست سنين، وتزوجها بعد تسع سنين! (ودخل بها بعد ذلك في المدينة!)، ومع مرور الزمان التبس الأمر على الراوي، فحدّث أن ست وتسع هما عمر السيدة عائشة عند النكاح والدخول! والتباس الأمر على الرواة ونسيانهم ليس بالأمر العجيب ولا النادر، فإذا كان الصحابة نفسهم قد نسوا وصححت لهم السيدة عائشة، –وسنذكر أمثلة عدة لذلك على صفحات الكتاب، فما المانع أن يحصل اللبس من راوٍ؟!

[68] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثامن، ص61.

والذي نرجحه أن هذا القول صدر عن غير السيدة عائشة! ولا يمكننا بالطبع أن نحدد من صدر عنه، ولا لماذا صدر، وإنما نرجح أنه كان من الذين عايشوها! والذين ذكروا أنها كانت صغيرة عند زواجها النبي الكريم! ربما لأنها كانت نحيفة عند زواجها النبي، كما روى الطبراني في "المعجم الكبير: "عَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا تَزَوَّجَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمَّنَنِي أَهْلِي بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ أَسْمَنْ، فَأَطْعَمُونِي الْقِثَّاءَ وَالرُّطَبَ فَسَمِنْتُ عَلَيْهِ أَحْسَنَ السِّمَنِ." اهـ

فلربما ظنوها بسبب دقة جسمها صغيرة السن فقدّروها بهذا العمر! كما أميل إلى أن تحديد هذا العمر كان للانتقاص من قدرها، فبسبب الحرب الإعلامية الطاحنة، والتي كانت دائرة بين الفرقاء المتصارعين، والذي يحاول كل فريق منهم تشويه صورة رموز الفريق الآخر، فربما أراد بعضهم الطعن في عقل السيدة عائشة، بالقول أن النبي الكريم تزوجها طفلة، وكانت تتصرف بعد الزواج تصرف الأطفال! ومن يتبع طفلة فهو لا محالة في ضلال مبين!

ولا نريد أن نسيء الظن فنقول –كما قال بعضهم– أن هذه الروايات وُضعت ليستخرج منها الفقهاء جواز نكاح الأطفال! فليس أي دليل على هذا، وإنما نرى أن الرواة قدّروا عمرها ثم جعلوه على لسانها! فلم تكن السيدة عائشة المدافعة عن حديث رسول الله لتكذب عليه في أمر يضرها أكثر من أن ينفعها!!!

أعمار أزواج النبي

لسنا الوحيدين الذين رفضوا القول بأن النبي الكريم تزوج السيدة عائشة في هذه السن الصغيرة، فمعنا الكثير من المؤيدين لهذا الرأي، أشهرهم الأستاذ العقاد –رحمه الله– وهو على حد علمي أول من أثار هذه المسألة في عصرنا الحديث، فقال في كتابه الصديقة بنت الصديق، أنه كان عمرها يتراوح بين الثانية عشر والرابعة عشر

عاماً عند زواجها النبي! وكذلك الدكتور شوقي ضيف، والذي قال في كتابه: "محمد خاتم المرسلين" أن عمر السيدة عائشة عندما دخل بها النبي هو بين الثامنة عشر والعشرين. وكذلك علاّمة سوريا الدكتور محمد راتب النابلسي، والذي يرى أنها كانت فوق العشرين عندما تزوجها النبي! والباحثة والمؤرخة السعودية: سهيلة حماد، ترجح أنها كانت في التاسعة عشر.

والدكتور عمر عبد الكافي يرى أنها كانت في الثانية عشر، ويرى الداعية خالد الجندي أنها كانت ما بين الثالثة عشر والرابعة عشر! ويرى غيرهم مثل ذلك أو غيره، ونحن لا نتفق في تحديد السن المخالف للروايات بالضبط! –ولا يمكننا هذا ولا نريده– لأن هذا ما لا يمكننا الجزم به! لأن تحديد تواريخ الميلاد لم يكن دقيقا تماما، وإنما كان تقريبيا! لذا فإنه يكفينا أننا نتفق في أنها كانت أكبر من التاسعة بعدة أعوام! ولقد ذكر الدكتور عمر عبد الكافي أعمار أمهات المؤمنين عند زواجهن النبي الكريم، فنثبته هنا للنفع:

1– خديجة بنت خويلد كان عمرها 40 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 25 عاما. –وقلنا سابقا أن الأرجح أنها كانت في الثامنة والعشرين وليس الأربعين!–

2– سودة بنت زمعة كان عمرها 55 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 50 عاما.

3– عائشة بنت أبي بكر الصديق كان عمرها وقت البناء بها 12 سنة، في حين كان سنه صلى الله عليه وسلم 53 عاما.

4– حفصة بنت عمر بن الخطاب كان عمرها 19 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 55 عاما.

5– زينب بنت خزيمة كان عمرها 60 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 56 عاما.

6– أم سلمة كان عمرها 65 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 57 عاما.

7- زينب بنت جحش كان عمرها 35 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 58 عاما.

8- جويرية بنت الحارث كان عمرها 30 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 59 عاما.

9- أم حبيبة كان عمرها 40 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 59 عاما.

10- صفية بنت حيي بن أخطب كان عمرها 17 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 59 عاما.

11- ميمونة بنت الحارث كان عمرها 26 سنة، في حين كان عمره صلى الله عليه وسلم 61 عاما.

إفك حادثة الإفك!!

بعد أن تكلمنا عن سن السيدة عائشة عند زواج النبي الكريم بها، وبيّنا أنها لم تكن صغيرة ولم تكن تتصابى، وإنما هو من فعل الرواة! نتوقف مع أهم ما اشتهرت به السيدة عائشة، وهو: حادثة الإفك! فلا تكاد تُذكر السيدة عائشة إلا ويقفز إلى ذهن المستمع تلك الحادثة الشنيعة التي تعرضت لها! والتي يعرفها القاصي والداني! حتى إن غير المسلمين يعرفون هذه الحادثة، ويتخذونها مطعنا في السيدة عائشة، وكيف أنها دنست بيت نبينا!!

وعلى الطرف الآخر نجد مسلمي السنة يفتخرون بهذه الأحداث، وبأن الله قد برّأ أم المؤمنين عائشة بنزول قرآن يُتلى إلى يوم الدين! ويرون أن من يطعن في شرف عائشة من المسلمين –الشيعة– هو كافر، لتبرئة الله سبحانه لها! كما يستخرجون منها فوائد وحكم وعظات وعبر، وأدلة على أن القرآن من عند الله، فلو كان من عند محمد لبرّأ زوجه مباشرة، ولم ينتظر هذه الفترة الطويلة!!

ويختلف موقف الشيعة من حادثة الإفك، فالمتعصب منهم يقول بوقوعها ويرمي السيدة عائشة بالزنا أو يلمح لذلك! ومنهم من يقول بوقوعها إلا أنه يبرأ السيدة عائشة وينزّه بيت النبي عن أن يلم به هذا العار! ومنهم من يرفض هذه الروايات، ويرى أنها مختَلقة من السيدة عائشة نفسها! لتنسب إلى نفسها فخراً، بأن الله تعالى أنزل فيها قرآنا!

لذا نتوقف مع هذه الحادثة الشهيرة، لننظر أي الأطراف كان مصيباً في حكمه عليها! وأول ما نبدأ به هو عرض هذه الحادثة! والتي وردت في كثير من كتب الأحاديث والسير، إلا أننا سنعرضها من خلال رواية البخاري، والتي أوردها في باب: حديث الإفك، والتي يقول فيها: "قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي[69] فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ- وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ- وَحَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ[70]، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ

---

[69] يبدو أن سهم السيدة عائشة كان هو الذي يخرج دائما، فلقد كانت معه في غزوة بدر، وكذلك في أحد وهنا أيضا!

[70] يبدو أن السيدة عائشة لم تكن تكبر! فهي دائما جارية! فإذا كانت هذه الغزوة بعد خمس أو ست سنوات من الهجرة إلى المدينة، فكيف تكون لا تزال جارية حديثة السن؟! ونلاحظ في هذه الرواية تركيز الراوي على كون السيدة عائشة جارية حديثة السن! بينما نجد أن رواية ابن هشام –والتي ذكرت تفاصيل أكبر– لم تذكر هذه الجزئية!

سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ[71]، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، -وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ- فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، واللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ. قَالَتْ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ وَتَقُولُ إِنَّهُ الَّذِي قَالَ: "فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ" قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي. إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ!، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟

[71] لست أدري كيف تنام جارية حديثة السن وحيدة في الصحراء؟! المقبول أن تسقط فاقدة الوعي من شدة الفزع والخوف، أو تحاول أن تبحث عن مكان تختبئ فيه، أما أن تعود إلى مكانها ويكون لديها من الهدوء ما يكفيها لتنام، فعجيب كل العجب!

فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ، وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟! قَالَتْ وَقُلْتُ مَا قَالَ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ قَالَتْ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَقُلْتُ لَهُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَ اللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا. قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ فَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ قَالَتْ –وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ– فَقَالَ: لِسَعْدٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ –وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ– فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ

الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ قَالَتْ وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِّي فِيمَا قال. قَالَت: فَقَالَ أَبِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ -وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا-: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنْ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ،

قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ. قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَتْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ"، الْعَشْرَ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ –وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ–: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ إِلَى قَوْلِهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ" قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ قَالَتْ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ. ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ. قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ." اهـ

هذه هي رواية البخاري للحادثة، ونلاحظ أنه لم يبين الغزوة التي كان الرسول فيها! فإذا نظرنا في المصادر الأخرى، نجد فيها تفصيلا لم يذكره البخاري، وبهذا تميز ابن هشام بزيادة تفاصيل الواقعة، فلقد ذكر الغزوة التي كانت فيها الحادثة، كما ذكر طرفا من الأحداث التي وقعت بعد الحادثة، مثل ضرب صفوان بن المعطل لحسان، وترضية الرسول له! ولن نذكر كل الرواية حتى لا نطيل على القارئ، وإنما سنذكر منها بعض المقتطفات، التي تظهر الاختلاف بينها وبين رواية البخاري: "قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيّتُهُنّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَلَمّا كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فَخَرَجَ سَهْمِي عَلَيْهِنّ مَعَهُ، فَخَرَجَ بِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ (...) وَيَقُولُ أُصْدُقِي رَسُولَ اللّهِ

–صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– قَالَتْ فَتَقُولُ وَاَللّهِ مَا أَعْلَمُ إلّا خَيْرًا، وَمَا كُنْت أَعِيبُ عَلَى عَائِشَةَ شَيْئًا، إلّا أَنّي كُنْت أَعْجِنُ عَجِينِي، فَآمُرُهَا أَنْ تَحْفَظَهُ فَتَنَامُ عَنْهُ فَتَأْتِي الشّاةُ فَتَأْكُلُهُ. (...) ثُمّ قُلْت: وَاَللّهِ لَا أَتُوبُ إلَى اللّهِ مِمّا ذَكَرْت أَبَدًا. وَاَللّهِ إنّي لَأَعْلَمُ لَئِنْ أَقْرَرْتُ بِمَا يَقُولُ النّاسُ وَاَللّهُ يَعْلَمُ أَنّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَأَقُولَن مَا لَمْ يَكُنْ وَلَئِنْ أَنَا أَنْكَرْت مَا يَقُولُونَ لَا تُصَدّقُونَنِي ،قَالَتْ: ثُمّ الْتَمَسْت اسْمَ يَعْقُوبَ فَمَا أَذْكُرُهُ، فَقُلْت: وَلَكِنْ سَأَقُولُ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" قَالَتْ: فَوَ اَللّهِ مَا بَرِحَ رَسُولُ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– مَجْلِسَهُ حَتّى تَغَشّاهُ مِنْ اللّهِ مَا كَانَ يَتَغَشّاهُ (...) فَاعْتَرَضَهُ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطّلِ، فَضَرَبَهُ بِالسّيْفِ ثُمّ قَالَ كَمَا حَدّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ: تَلَقّ ذُبَابُ السّيْفِ عَنّي فَإِنّنِي غُلَامٌ إذَا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ، قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التّيْمِيّ: أَنّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ الشّمّاسِ وَثَبَ عَلَى صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطّلِ، حِينَ ضَرَبَ حَسّانَ فَجَمَعَ يَدَيْهِ إلَى عُنُقِهِ بِحَبْلِ ثُمّ انْطَلَقَ بِهِ إلَى دَارِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ؛ فَلَقِيَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَا أَعْجَبَك ضَرْبُ حَسّانَ بِالسّيْفِ وَاَللّهِ مَا أَرَاهُ إلّا قَدْ قَتَلَهُ. قَالَ لَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: هَلْ عَلِمَ رَسُولُ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– بِشَيْءٍ مِمّا صَنَعْت؟ قَالَ: لَا وَاَللّهِ. قَالَ: لَقَدْ اجْتَرَأْت، أَطْلِقْ الرّجُلَ. فَأَطْلَقَهُ، ثُمّ أَتَوْا رَسُولَ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَدَعَا حَسّانَ وَصَفْوَانَ بْنَ الْمُعَطّلِ، فَقَالَ ابْنُ الْمُعَطّلِ: يَا رَسُولَ اللّهِ آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْته؛ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– لِحَسّانَ: أَحْسِنْ يَا حَسّانُ أَتَشَوّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللّهُ لِلْإِسْلَامِ ثُمّ قَالَ: أَحْسِنْ يَا حَسّانُ فِي الّذِي أَصَابَك. قَالَ هِيَ لَك يَا رَسُولَ اللّهِ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ أَبَعْدَ أَنْ هُدَاكُمْ اللّهُ لِلْإِسْلَامِ، قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَحَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– حَسّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيّة، فَوَلَدَتْ لِي عَبْدَ الرّحْمَنِ بْنَ حَسّانَ، قَالَتْ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ

تَقُولُ: لَقَدْ سُئِلَ عَنْ ابْنِ الْمُعَطِّلِ فَوَجَدُوهُ رَجُلًا حَصُورًا، مَا يَأْتِي النّسَاءَ ثُمّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِيدًا[72] ." اهـ

هذه هي أهم أحداث حادثة الإفك! التي ينسج غيرُ المسلمين حولها الأساطير، ويتخيلون خيالات مريضة، طاعنين بها في النبي الكريم وآل بيته! والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه أولاً هو: هل وقعت هذه حادثة الإفك فعلا؟ وإذا وقعت، فهل وقعت بهذا الشكل؟! لا يستطيع أي مسلم أن ينكر وقوع حادثة الإفك، لورودها في القرآن، ولكن هل التفاصيل المذكورة في هذه الروايات هي حادثة الإفك؟! ستأتي الإجابة من مسلمي السنة بالإيجاب، فلقد وردت هذه الروايات في أصح كتاب بعد كتاب الله[73] –كتاب البخاري– ومن ثم فلقد وقعت لا محالة، وهي حادثة الإفك!

أما نحن فنؤمن بأن حادثة الإفك ليس لها أي علاقة ببيت النبي الكريم من قريب ولا بعيد! وأن تفاصيلها وأحداثها تختلف كلية عن تلك الروايات، وأن هذه الروايات مختلقة مدسوسة، قصد بها بعض الحمقى تكريم السيدة عائشة فشوهوا سيرتها، وأوجدوا شبهة للطاعنين في الدين، يتمسكون بها دوما!

وحتى لا يتعجل القارئ ويرفض قولنا، نبيّن له كيف أن هذه الرواية تحتوي من التناقضات التاريخية ما يكفي لردها! ثم نبين له من خلال تناولنا لأول سورة النور، أنه لا علاقة بين سورة النور وبين ما يقولون!

[72] عبد الملك بن هشام، سيرة ابن هشام، ص.297–306.

[73] تستفزني هذه المقولة كثيرا، فكتاب الله تعالى لا يقارَن بغيره! وعلى الرغم من إيماننا بأن كتاب البخاري هو أصح كتب الحديث، إلا أن هذا لا يجعله عملاً *فوق بشري*! والعمل البشري لا بد أن يعتريه النقصان! ولا يمكن أن يقارن بعمل الله! ولو قيل أن المراد من ذلك صحة نسبة المحتوى، فصحة نسبة كتابي لي أصح من نسبة كتاب البخاري إليه، فلقد ورد كتاب البخاري عن طريق عدة نسخ، مع وجود اختلاف بين النسخ!

التناقضات التاريخية

يسلّم جمهور أهل السنة بما ورد في هذه الروايات، ولا يرون فيها أي خلل[74]، إلا أن علماء أهل السنة أنفسهم لا يتفقون معهم في هذا، فلقد انتبهوا إلى أنها تناقض روايات أخرى، فحاولوا أن يقدموا تبريرات لتلك التناقضات! إلا أنهم لم ينجحوا في رفع تلك التناقضات!

ومن تلك المحاولات ما قام به الإمام بدر الدين الزركشي، حيث قال: "تَنْبِيْهٌ جَلِيْلٌ: عَلَى وَهْمَيْنِ وَقَعَا فِي حَدِيْثِ الْإِفْك فِيْ صَحِيْحِ الْبُخَارِيِّ: أَحَدُهُمَا: قَوْلُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ" قَالَ: فَدَعَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيْرَةَ ..." وَبَرِيْرَةُ إِنَّمَا اشْتَرَتْهَا عَائِشَةُ وَأَعْتَقَتْهَا بَعْدَ ذَلِكَ ... وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهَا لَمَّا أُعْتِقَتْ وَاخْتَارَتْ نَفْسَهَا جَعَلَ زَوْجُهَا يَطُوْف وَرَاءَهَا فِي سِكَكِ الْمَدِيْنَةِ، وَدُمُوْعُهُ تَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ لَهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ رَاجَعْتِيْهِ؟ فَقَالَتْ: أَتَأْمُرُنِيْ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ" فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا عَبَّاسُ!أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيْثٍ لِبَرِيْرَةَ وَبُغْضِهَا لَهُ. وَالْعَبَّاسُ إِنَّمَا قَدِمَ الْمَدِيْنَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ... وَالْمَخْلَصُ مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ أَنَّ تَفْسِيْرَ الْجَارِيَةِ بِبَرِيْرَةَ مُدْرَجٌ فِي الْحَدِيْث مِنْ بَعْضِ الرُّوَاة ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهَا هِيَ. وَهَذَا كَثِيْرًا مَّا يَقَعُ فِي الْحَدِيْثِ مِنْ تَفْسِيْرِ بَعْضِ الرُّوَاةِ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ مِنَ الْحَدِيْث[75] وَهُوَ نَوْع غَامِضٌ لَا يَنْتَبِهُ لَهُ إِلَّا الْحُذَّاقُ. (...) الثَّانِي: مَا ذَكَرَهُ مِنْ تَحَاوُرِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذ، وَقِصَّة الإِفْكِ كَانَتْ بَعْدَ الْخَنْدَقِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَجَمَاعَةٍ، قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيْ صَحِيْحِهِ: قَالَ مُوْسَى بْن عُقْبَةَ: كَانَتْ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ" (...) وَقَدْ ثَبَتَ بِلَا رَيْبٍ أَنَّ سَعْدَ ابْنَ مُعَاذٍ تُوُفِّيَ عَقِبَ الْخَنْدَقِ؛ وَعَقِبَ حُكْمِهِ فِي بَنِيْ قُرَيْظَةَ وَلَمْ يَكُن بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَقُرَيْظَةَ غَزَاةٌ، وَلِهَذَا يَعْدِلُ الْبُخَارِيُّ فِي أَكْثَرِ رِوَايَاتِهِ لِحَدِيْثِ الْإِفْك عَنْ نِسْبَةِ سَعْدٍ إِلَى أَبِيْهِ

---

[74] كنت من المسلّمين بها، حتى بيّن لي صديق يعمل في مجال "تخريج الكتب"، كيف أن هذه الرواية مليئة بالتناقضات التاريخية، الكافية لنسفها!!

[75] وهذا ما فعله الرواة عند حديثهم عن زواج النبي السيدة عائشة، أما هنا فكمّ التناقضات والعجائب يجعل من المستحيل أن يكون لهذه الرواية أصلا صحيحا.

فَيَقُوْلُ: فَقَامَ سَعْدٌ أَخُوْ بَنِيْ عَبْدِ الْأَشْهَلِ" وَ هَذِهِ رِوَايَتُهُ فِي الْمَغَازِي. وَقَالَ: سَنَةَ أَرْبَعٍ. فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا عَلَى قَوْلِهِ:" قَبْلَ الْخَنْدَقِ" لِأَنَّ الْخَنْدَقَ كَانَتْ فِي آخِرِ السَّنَةِ فِي شَوَّالٍ وَاتَّصَلَتْ بِغَزْوَةِ قُرَيْظَةَ. وَعَلَى هَذَا فَيَصِحُّ أَنْ يَكُوْنُ الْمُرَادُ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ هُوَ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ[76]. (!!!) وَقَدْ تَقَدَّمَ وَهْمٌ آخَرُ: وَهُوَ رِوَايَةُ مَسْرُوْقٍ عَنْ أُمِّ رُوْمَانَ. وَأَجَابَ الْقَاضِيْ أَبُوْ بَكْرٍ ابْنُ الْعَرَبِيِّ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ جَاءَ فِي طَرِيْقٍ: حَدَّثَتْنِيْ أُمُّ رُوْمَانَ" وَفِي أُخْرَى: عَنْ مَسْرُوْقٍ عَنْ أُمِّ رُوْمَانَ" مُعَنْعَنًا. (...) فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَوْهَامٍ ادُّعِيَتْ فِي حَدِيْثِ الْإِفْك: وَهْمٌ فِيْ بَرِيْرَةَ وَوَهْمٌ فِيْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَوَهْمٌ فِيْ أُمِّ رُوْمَانَ وَالثَّلَاثَةُ ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيْحِ فَلَا يَنْبَغِيْ الْإِقْدَامُ عَلَى التَّوْهِيْمِ إِلَّا بِأَمْرٍ بَيِّنٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا يَدْفَعُ الْكُلَّ.[77]" اهـ

هذه هي التناقضات التي انتبه إليها الإمام الزركشي، وحاول أن يعالجها، بجعلها من أوهام الرواة! ولنا أن نتساءل: ألا تكفي هذه الأخطاء لرد الرواية؟! قد يقنع البعض بتبريرات الزركشي، ويتقبل الرواية على الرغم من وجود هذه التناقضات! لذا نقول له: ليست هذه تناقضات الرواية وحسب، فتناقضاتها لم تنته بعد، فهي كثيرة، وأهمها تناقضها مع كتاب الله تعالى! ومخالفتها لسورة النور!

وسنؤجل الحديث عن هذين الدليلين القاطعين، ونبدأ بالتناقضات التاريخية الجلية، والتي ذكر أهمها الأستاذ جواد حسين الدليمي[78]، فقال: "التحقيق العلمي والدراسة المتجرّدة من الأهواء لا يساعدان على التسليم بصحّة ذلك والتصديق به، وذلك للأسباب الآتية:

أوّلا: ادّعاء أُمّ المؤمنين في روايتها أنّ الحادثة كانت بعد رجوعهم من غزوة بني المصطلق، وهذه الغزوة وقعت في أواخر سنة خمس من الهجرة بعد غزوة الخندق بشهرين أو ثلاثة أشهر، ثمّ ذكرت في روايتها أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

[76] لهذا السبب لم يذكر البخاري اسم الغزوة التي يُفترض أنه وقع فيها حادثة الإفك! وإنما أطلقها فقال: في غزاة من الغزوات!

[77] بدر الدين الزركشي، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق: د. رفعت فوزي عبد المطلب، ص. 23–25.

[78] نحن وإن كنا نتفق مع الأستاذ جواد الدليمي الشيعي، في التناقضات التاريخية، الحاكمة ببطلان الرواية وسقوطها، إلا أننا نخالفه في كون السيدة عائشة هي التي اختلقتها، فنجزم أنها وُضعت على لسانها! لأن صاحبة الذاكرة الفولاذية لا يمكن أن تسقط تلك السقطات الهائلة! –بغض النظر عن دينها وصدقها–

اعتزلها شهراً -وفي لفظ: سبعة وثلاثين يوماً- ثمّ نزلت براءتها من السماء في سورة النور. إلاّ أنّ ما ذكرته أُمّ المؤمنين لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه، لأنّ المعروف أنّ سورة النور نزلت في أواخر سنة ثمان على قول[79]، أو أوائل سنة تسع من الهجرة على قول آخر، جملة واحدة، والمقطوع به أنّها نزلت بعد سورة النصر، وسورة النصر نزلت بعد فتح مكّة كما هو ثابت. (...)

ثانياً: ادّعاؤها حضور أشخاص في الحادثة لا يمكن حضورهم بأيّ وجه من الوجوه، فقد ادّعت أنّ الذي وجدها عندما تركها الجيش وأتى بها هو صفوان بن المعطّل، وقد كان في هذا الوقت صبياً لا يمكن أن يكون حاضراً في هذه الغزوة، لأنّه مات بشمشاط وهو ابن بضع وستّين كما في: معرفة الصحابة، وقد مات سنة 60هـ، وبه جزم الطبري، وقيل: سنة 58 كما في أُسد الغابة، وعلى كلّ حال فعمره آنذاك مردّد بين خمس إلى تسع سنوات، فليس من المعقول حضوره ذلك اليوم.

ثالثاً: ادّعاؤها حضور سعد بن معاذ في الحادثة، ولكنّه غير تامّ، لأنّ سعد بن معاذ استشهد في غزوة الخندق وقبل حادثة الإفك. (...)

خامساً: ادّعاؤها أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أهدى سيرين أُخت ماريّة إلى حسّان بن ثابت، إرضاءً له بعد أن ضربه بالسيف صفوان بن المعطّل عندما أراد قتله بسبب خوضه في حديث الإفك، وحضور سيرين في هذه الحادثة غير تامّ، لأنّ المقوقس أهدى ماريّة وأُختها سيرين إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الحديبية ومجيء سيرين كما في سنة 8هـ، وقيل سنة 7هـ.

سادساً: وممّن خاض في الإفك زيد بن رفاعة، وهذا لا يصحّ أيضاً، لأنّه مات في المدينة أثناء الغزوة وعندما رجع المسلمون وجدوه ميّتاً.

---

[79] هذا ما يقوله الشيعة، ونحن لا نوافقهم في ذلك، فنحن نرى أن سورة النور من أول ما نزل في المدينة! ونحن نعرض قولهم ليعرف القارئ ما يقول الشيعة في هذه المسألة!

سابعاً: في بعض طرق الحديث مواضع أُخر للنظر لا يمكن قبولها بوجه أو السكون إليها، بل ينطح بعضها بعضاً. منها: ادّعاؤها بأنّها تأخّرت تبحث عن عقدها الذي سقط منها، ثمّ تركها الجيش ونسوها بأجمعهم بما فيهم زوجها، ومن طريق آخر أنّ الجيش تأخّر معها يبحث عن العقد وبظروف صعبة من قلّة الماء، إلاّ أنّ الله عزّ وجلّ –وهو الرؤوف الرحيم– ساعدهم في حلّ هذه المشكلة والتي تفاقمت أثناء البحث عن العقد، فأنزل آية التيمّم ببركة عائشة وآل أبي بكر. وبسبب هذا التناقض اضطرّ ابن حجر إلى أن يستظهر أنّ العقد ضاع منها في غزوتين مختلفتين، ولكن هيهات. ومنها: ادّعاؤها بأنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر الجيش أن يتقدّم، ويتأخّر هو وعائشة حتّى يجري سباقاً معها، وجرى السباق، وفاز نبيّ العظمة وهيكل القداسة، وقال لها: هذه بتيك، لأنّهما كانا قد تسابقا قبل هذا السباق وفازت هي، ولا أدري هل كان نوع السباق 100 متر حرّة أو 110 متر موانع مختلط؟! وسبب خسارتها في السباق أنّها كانت بدينة، وأنّ اللحم قد رهقها على حدّ قولها، ...[80]" اهـ

هذه أبرز التناقضات الموجودة في الرواية، والتي لا يفطن إلى وجودها إلا من يجمع الروايات المتعلقة بالحادثة وينظر فيها! فالقارئ السني لا يعجب من أن يسقط من السيدة عائشة عقد، فتترك الجيش من أجل البحث عنه! ولكن أن يتكرر هذا الأمر فهذا هو العجب العجاب!

فنحن نجد روايات أخرى تقول أن سبب نزول آية التيمم[81]! هو أن السيدة عائشة كانت قد أضاعت قلادة لها في عودتها مع النبي من غزوة بني المصطلق!! ويتعطل الجيش بسببها، حتى أن أباها يعيرها بأنه تجلب المشاكل حيث حلّت!! ويُنزل النبي الكريم الجيش في صحراء لا ماء فيها، من أجل البحث عن عقدها! فأي عقد هذا

---

(80) جواد حسين الدليمي، شبهات السلفية، ص.251–253.

(81) كم هي مباركة تلك الغزوة التي نزل فيها سورة المنافقين وصدر سورة النور وآية في سورة المائدة!! –على قولهم–! أما على قولنا فلم ينزل فيها إلا سورة المنافقين، أما النور فنزلت قبلها، والمائدة نزلت بعدها بكثير!!

الذي يتكرر فقده، وببركته تنزل آية التيمم، وتتهم صاحبته بالزنا؟! ألم تتعظ من تعطيل الجيش؟!

ولا يعجب كذلك من أن يكون الحمّال لم ينتبهوا إلى خفة الهودج، ويؤمن في عين الوقت أنها كانت قد أرهقها اللحم في نفس الغزوة! حتى أن النبي الكريم يسابقها في سباق، فيسبقها[82]! ومن العجائب الموجودة في الرواية ادعاءها أن الرسول الكريم دعا أسامة بن زيد مع علي بن أبي طالب ليستشيرهما في أمر أهله!

ومن المعلوم أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد اعترضوا على قيادة أسامة للجيش الذي جهزه النبي قبيل وفاته لحداثة سن أسامة! لأنه كان تقريبا في السادسة عشر أو السابعة عشر من عمره، وهذا يعني أنه كان في ذلك الوقت في الحادية أو الثانية عشر من عمره! فلماذا يترك النبي الكريم كبار الصحابة ويستشير الأطفال في أمور النساء؟!

ومن أبرز تناقضات الرواية قولها بأن صفوان بن المعطل كان حصوراً لا يقرب النساء! على الرغم من أننا نجد رواية عند أبي داود وأحمد وغيرهما، تقول بأنه كان لا يقدر على البعد عن النساء! وصحح الألباني الرواية في صحيح سنن أبي داود.

---

(82) لست أدري أي سباق هذا الذي يقيمه النبي الكريم بعد الشجار على ماء المريسيع! وابن هشام يورد لنا نبأ هذا الشجار، فيقول: "فَبَيْنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ وَرَدَتْ وَارِدَةُ النّاسِ وَمَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ أَجِيرٌ لَهُ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، يُقَالُ لَهُ جَهْجَاه بْنُ مَسْعُودٍ يَقُودُ فَرَسَهُ فَازْدَحَمَ جَهْجَاه وَسِنَانُ بْنُ وَبَرٍ الْجُهَنِيّ، حَلِيفُ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ عَلَى الْمَاءِ فَاقْتَتَلَا، فَصَرَخَ الْجُهَنِيّ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَصَرَخَ جَهْجَاه: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ فَغَضِبَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ وَعِنْدَهُ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ إلّا كَمَا قَالَ الْأَوّلُ سَمّنْ كَلْبَك يَأْكُلْك، أَمَا وَاَللّهِ {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ مِنْهَا الْأَذَلّ} ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ وَقَاسَمْتُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ أَمَا وَاَللّهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوّلُوا إلَى غَيْرِ دَارِكُمْ. فَسَمِعَ ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ فَمَشَى بِهِ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَذَلِكَ عِنْدَ فَرَاغِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ عَدُوّهِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، فَقَالَ مُرْ بِهِ عَبّادَ بْنَ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إذَا تَحَدّثَ النّاسُ أَنّ مُحَمّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ لَا وَلَكِنْ أَذّنْ بِالرّحِيلِ وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَرْتَحِلُ فِيهَا، فَارْتَحَلَ النّاسُ. (...) ثُمّ مَشَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالنّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتّى أَمْسَى، وَلَيْلَتَهُمْ حَتّى أَصْبَحَ وَصَدْرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتّى آذَتْهُمْ الشّمْسُ ثُمّ نَزَلَ بِالنّاسِ فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَجَدُوا مَسّ الْأَرْضِ فَوَقَعُوا نِيَامًا، وَإِنّمَا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِيَشْغَلَ النّاسَ عَنْ الْحَدِيثِ الّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللّهِ ابْنِ أُبَيّ. (...) وَنَزَلَتْ السّورَةُ الّتِي ذَكَرَ اللّهُ فِيهَا الْمُنَافِقِينَ فِي ابْنِ أُبَيّ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ أَمْرِهِ" اهـ

فهل هذا الظرف مناسب لإجراء مسابقة؟!

والرواية تقول —والمتن من مسند أحمد–: "عن أبي سعيد الخدري، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةُ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –وَنَحْنُ عِنْدَهُ– فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ زَوْجِي صَفْوَانَ بْنَ الْمُعَطَّلِ يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ وَيُفَطِّرُنِي إذَا صُمْتُ وَلَا يُصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ. قَالَ: وَصَفْوَانُ عِنْدَهُ. قَالَ: فَسَأَلَهُ عَمَّا قَالَتْ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمَّا قَوْلُهَا يَضْرِبُنِي إذَا صَلَّيْتُ فَإِنَّهَا تَقْرَأُ سُورَتَيْنِ فَقَدْ نَهَيْتُهَا عَنْهَا. قَالَ فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ سُورَةٌ وَاحِدَةٌ لَكَفَتْ النَّاسَ. وَأَمَّا قَوْلُهَا يُفَطِّرُنِي فَإِنَّهَا صُومُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَا أَصْبِرُ. قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ: لَا تَصُومَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا قَالَ: وأَمَّا قَوْلُهَا بِأَنِّي لَا أُصَلِّي حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ قَدْ عُرِفَ لَنَا ذَاكَ لَا نَكَادُ نَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ. قَالَ: فَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَصَلِّ." اهـ

فهل صفوان هذا حصور لا يقرب النساء، أم "شبق" لا يقدر على فراقهن؟! وتمسك الطاعنون في الدين بهذه الرواية، لا لإبطال حادثة الإفك، وإنما للبرهنة على وقوع الفاحشة مع عائشة، وأنها كانت كاذبة في قصها للمدارة على فعلتها!

ونحن لا نشغل بالنا بالرد على هذا الادعاء، لأننا نرى أن السيدة عائشة لم يكن لها أي علاقة بحادثة الإفك، وأنها لم تكن في غزوة بني المصطلق أصلا! وحتى لا يتساءل القارئ ما هو مصدرنا في نفي وجود السيدة عائشة في غزوة بني المصطلق أصلا، ندعوه لقراءة العنصر القادم!

التناقض مع القرآن

يتمسك الطاعنون في الدين بهذه الرواية وأمثالها، والتي تقول أن الرسول إذا أراد سفراً كان يقرع بين أزواجه، ويقولون أن محمداً كان شهوانياً لا يستطيع مفارقة النساء، فلو اقتصر الأمر على مصاحبتهن في السفر لكان الأمر مقبولا، أما أن يصحبهن معه في غزواته، فهذا دليل على شهوانيته!!

وبهذه النقطة نبدأ حديثنا عن تعارض هذه القصة مع القرآن الكريم، فإذا كان من المقبول أن يأخذ النبي الكريم بعضاً من أزواجه للقيام بالدور النسائي في المعركة، فإن هذا لم يعد مقبولا بعد غزوة الأحزاب! فبعد هذه الغزوة أنزل الله تعالى سورة الأحزاب، والتي فرض فيها الحجاب على أزواج النبي، وأمرهنّ بالقرار في بيوتهن، وألا يتبرجن تبرج الجاهلية؟! فكيف يأخذهن النبي الكريم بعد ذلك في غزواته؟!

إن العربي كان لا يأخذ المرأة معه في القتال خشية وقوعها في الأسر، ومن ثم تصبح سبية لغيره! وربما كان يجعل النساء في آخر الجيش لتحميسه، فيضربن الدفوف ويغنين ... فهل كانت نساء النبي يفعلن هذا؟!! فكيف يكون الحال إذا أصبحت زوج النبي جارية لأحد المشركين، يطأها بملك اليمين؟! أو أصبح يساوم عليها؟! وكان هذا هو الطبيعي في غزوات النبي، فكان الرجال والشباب يخرجون، ولا يبقى في المدينة إلا النساء والشيوخ والعجائز وغير القادرين و... والمنافقين! حتى أن الله عز وجل كان يعيّرهم بأنهم قبلوا أن يبقوا مع النساء، ولم يخرجوا للقتال: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة التوبة, ٨٧]

فلماذا يخالف النبي الكريم هذا كله، ويصر على أن يأخذ زوجه معه، ويعرضها للسبي؟ –إذا هُزم المسلمون!– بينما يترك المسلمون أزواجهم في آمان؟! فإذا حدث وقال أحدهم أن هذا راجع إلى شهوانيته! فبماذا نرد عليه؟! إن الأمر لا يحتاج إلى أمر من الله حتى يترك النبي أزواجه آمنات، فما بالنا إذا كان هناك أمر من الله بالقرار في البيوت وبالحجاب!!

والعجيب أن بعض الشيعة يقبلون هذه الرواية للطعن في السيدة عائشة، ثم يعودون فيعيبون عليها خروجها على الإمام علي –على حسب قولهم–، فإذا كانت قد أخرجها النبي في هذه الغزوة! –بعد نزول الحجاب، بخلاف بدر وأحد– فما الإشكال إذن أن تخرج لنصرة الدولة الإسلامية والقضاء على التمرد؟!!!

كما نجد في الرواية أن السيدة عائشة قالت أنها كانت جارية حديثة السن لا تقرأ من القرآن كثيرا!! ولست أدري لماذا تقول السيدة عائشة هذا! وما علاقته بالسؤال! أتريد بهذا القول أن تقول أنها كانت مخالفة لأمر الله عزوجل: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [سورة الأحزاب , ٣٤]

فإذا كان الله قد أمر أزواج النبي أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن، فكيف تقول أنها كانت لا تقرأ من القرآن كثيرا؟! إن في هذا القول تشويه لصورة أزواج النبي؟! وإذا كانت السيدة عائشة حتى السنة السادسة من الهجرة لا تقرأ من القرآن كثيرا، فمتى قرأت القرآن وفقهته؟! والذي يقرأ عن السيدة عائشة يعلم أنها فقيهة قرآنية، كانت تعرض الروايات على كتاب الله العزيز، فمن أين ومتى أتت بهذا الفقه؟! أليست السيدة عائشة هي التي كانت تسأل النبي عن آي القرآن، ومراجعتها لها معروفة! أليست هي التي سألته عن رؤيته ربه، فقال أنه رأى جبريل! وغير ذلك من المواقف! فهل تكون هذه جارية لا تقرأ كثيرا من القرآن!

إن من وضع هذه الجملة أراد أن يظهر السيدة عائشة بمظهر الطفلة الساذجة البريئة، إلا أنه نسي أن في هذا مخالفة لأمر الله، وإذا كانت أزواج النبي يخالفن أمر الله أو يقصرن فيه، فمن يطبق؟!! وألا يُعد هذا تقصيرا من النبي في حق أزواجه، أفيعلم الناس وينسى أهل بيته؟!

ومن أهم أوجه تناقضات هذه الرواية مع القرآن ادعاءها أن الله أنزل عشر آيات فقط، ثم أنزل بعد ذلك باقي الآيات متفرقات، مع أن سور القرآن كلها كانت تُنزل جملة واحدة، وهذه السورة تحديدا قال الله في أولها: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [سورة النّور , ١]

فإذا كان الله تعالى يقول أنه أنزل سورة، ويقول بعض البشر أنه أنزل آيات، فمن نصدق؟ كلام الله أم قول البشر؟!

الإفك في سورة النور

قد يتساءل القارئ بعد أن بيّنا له بطلان الرواية الواردة عن الإفك، وتناقضها مع القرآن، وإظهارها الرسول وزوجه بمظهر المخالفين لأمر الله: ما هي حادثة الإفك إذا، التي تحدث عنها القرآن الكريم، إذا كانت الرواية حول السيدة عائشة، مختلقة؟ نقول: يرى الشيعة أن حادثة الإفك نزلت بشأن السيدة مارية، تبرئة لها ولبيت النبي الكريم من الشبهة التي تعرض لها، ويستندون في هذا إلى الرواية التي أوردها مسلم في صحيحه، في باب: براءة حرم النبي صلى الله عليه وسلم من الريبة: "عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُتَّهَمُ بِأُمِّ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ: اذْهَبْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، فَأَتَاهُ عَلِيٌّ فَإِذَا هُوَ فِي رَكِيٍّ يَتَبَرَّدُ فِيهَا فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: اخْرُجْ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ فَأَخْرَجَهُ فَإِذَا هُوَ مَجْبُوبٌ لَيْسَ لَهُ ذَكَرٌ فَكَفَّ عَلِيٌّ عَنْهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمَجْبُوبٌ مَا لَهُ ذَكَرٌ" اهـ

وبغض النظر عن وقوع هذه الحادثة بهذا الشكل، فإن هذه الرواية لا علاقة لها بسورة النور! وقبل أن نبدأ في تناول الأجزاء الأولى من سورة النور، لنبين للقارئ الكريم أن لا علاقة بين السورة وبين ما أوردته الروايات، نتوقف لنتساءل.

متى نزلت سورة النور؟!

تبعا للرواية القائلة أنها كانت بسبب السيدة عائشة فإنه من المفترض أن تكون السورة قد نزلت في السنة السادسة من الهجرة، ويرى الشيعة أنها نزلت في السنة الثامنة أو التاسعة من الهجرة! أما نحن فنرى أنها من أوائل ما نزل في المدينة من القرآن!

وبخلاف استنتاج هذا من آي السورة، فإن لنا دليل من الروايات، فالإمام النيسابوري يقول في كتابه: أسباب النزول "قوله عز وجل: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) الآية. قال المفسرون: قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة،

فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين، فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك.[83]" اهـ

فكما نرى، فلقد نزلت هذا الآية –داخل السورة– عند رغبة بعض فقراء المهاجرين الزواج من البغايا مؤقتا، حتى يصلح الله حالهم، ولم يكن هذا إلا في أول هجرة المؤمنين إلى المدينة، فهذا دليل على أن السورة من أوائل ما نزل في المدينة. وأول دليل على أن التشريعات الواردة في سورة النور تشريعات لجماعة المسلمين في بلدهم الجديد، ومبتدأ استقرارهم به: المدينة!

فالناظر في السورة يجد أن حادثة الإفك حادثة ابتليت بها الجماعة الإسلامية الجديدة، وليست حادثة ابتُلي بها فرد في زوجه، فكانت هذه الحادثة الجماعية أفضل مناسبة تُنزل بعدها هذه التشريعات الجديدة، لتنظم ذلك المجتمع الجديد، وندعو القارئ الكريم ليقرأ معنا سورة النور مجددا، لنبين له كيف أنها تتحدث عن واقعة جماعية وليس فردية: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [سورة النّور ,١-٣]

فتبدأ السورة ببيان أنها أنزلت كسورة وأنها مفروضة، وأول حكم تذكره السورة هي وضع عقوبة للزاني والزانية، وهي الجلد مائة جلدة، وتدعو جماعة المسلمين إلى عدم التهاون في هذا الحكم! ثم تبين أنه ليس للمؤمن أن ينكح زانية، فلا يفعل هذا إلا العاهر والمشرك! ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ

[83] الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، تحقيق: أيمن صالح شعبان، ص. 263.

ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ[84] ۝٥﴾ [سورة النّور, ٤-٥]

كما تضع عقوبة لمن يرمون المحصنات —وليس العاهرات!– بدون شهداء بالجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادتهم أبدا، وأن الأزواج يُستثنون من هذا الحكم، فالزوج لا يأتي بشهداء وإنما يشهد خمس شهادات، وترد عليه الزوجة بخمسٍ مثلها، فتبرأ نفسها! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ۝١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝١٣ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ۝١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ۝١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾ [سورة النّور, ١١-١٨]

يبين الله تعالى أن الذين جاءوا بالإفك هم عصبة —من بين العشرة إلى الأربعين– وليس ثلاثة أو خمسة! ولكل منهم جزاءه، بقدر مشاركته في الإثم! ثم تأتي الآية الفاصلة التي تبين أن الحادثة ليس لها علاقة بالنبي ولا بأهل بيته، وإنما بجماعة المسلمين، وهي قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ۝١٢﴾ [سورة النّور, ١٦] فلو كانت حادثة الإفك في النبي، لقال الله عز وجل: ظن المؤمنون بالنبي أو بزوج النبي خيرا!

[84] اختلف الفقهاء في حكم قبول شهادة التائب المصلح بعد الرمي، فقبله بعضهم استناداً إلى هذه الآية، ولست أدري كيف يقول الله لا تقبلوا لهم شهادة أبدا! ثم يستثني في الآية التالية! إن الاستثناء الموجود في هذه الآية راجع إلى "الفاسقون" المذكورة في الآية السابقة، وليس إلى قبول الشهادة، فمن فعل هذا فهو من الفاسقين، إلا الذي يتوب ويصلح فيغفر الله له ويخرجه من الفاسقين!

ولكنّا نجد الله يقول: "ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم" فأفرد المؤمنات بالذكر بعد المؤمنين، ليدل على أنهن قد مسهن أيضا من الإفك جانب! ولو لم يكن لهن علاقة بالحادثة لما احتيج إلى إفرادهن، لأن التعبير بجمع المذكر يدخل فيه الإناث ضمنا! فحادثة الإفك كانت إطلاق بعض المسلمين شائعات كاذبة تقول أن كثيرا من المسلمين والمسلمات يتعاشرون بدون زواج!!

ربما بسبب دخول بعض الرجال على بعض النساء –ربما لمد يد العون إليهن، فإذا كان بعض فقراء المهاجرين قد فكر في نكاح البغايا مؤقتا، فكيف يكون حال المهاجرات؟!– أو لقضاء حوائج نساء الأنصار! ولا ننسى أن أحكام الاستئذان والدخول وغض البصر لم تكن قد نزلت بعد! فكان دخول الرجال على النساء أمراً غير مستنكر!

ولكن بعض ضعاف النفوس قالوا أنهم يدخلون عليهن لمعاشرتهن! لذلك قال الله تعالى، أنه من المفترض أن يحسن المؤمنون والمؤمنات الظن بأنفسهم، فليست هذه أفعالهم ولا أخلاقهم، التي رباهم الرسول الكريم عليها! وكان من المفترض أن يقولوا أن هذا إفك مبين، لأنهم يعلمون أن ما قيل إشاعات، فإذا كان الإنسان نفسه يعلم لماذا يدخل على فلانة، وأن دخوله هذا ليس لفاحشة! فمن المفترض أن يظن بإخوانه نفس الظن عندما يسمع أنهم يفعلون مثله!

ثم تبين الآيات ضرورة الإتيان بأربعة شهداء، وأن الله ذو فضل على المؤمنين، وتلومهم على تلقي مثل هذه الأقاويل بألسنتهم وقولهم ما ليس لهم به علم، واستهانتهم به! وأنه كان من المفترض أن ينهوا أنفسهم عن الخوض في هذا الأمر! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النّور, ١٩]

وهذه الآية دليل لنا على ما نقول، فالذين قالوا هذا القول أرادوا أن تشيع الفاحشة في المجتمع الجديد، فإذا عُلم أن الزنا قد انتشر بين أفراد المجتمع، سقطت هيبته في

أعين الناس واستهانوا به! فالإنسان يتهيب فعل الزنا في المجتمع النظيف، أما إذا كان منتشراً –كما في المجتمعات الأوروبية– فيسهل على الإنسان فعله! فربما فعلوا ذلك ليسهل عليهم الوصول إلى المهاجرات الضعيفات، –فالغريبة مستضعفة ويُطمع فيها!– أو إلى عامة نساء الأنصار!

ولست أدري كيف يكون القول بوقوع زنا بين فردين –بسبب حالة طارئة وليس عن عشق وغرام مُبيتين– سببا في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [سورة النّور, ٢٣]

ثم تبين هذه الآية أن حادثة الإفك كانت برمي المحصنات الغافلات المؤمنات! وأن الذين فعلوا هذا لُعنوا ولهم عذاب عظيم! فهذا دليل آخر على أن حادثة الإفك كانت في حق نساء مؤمنات غافلات وليس في حق أحد أزواج النبي! ولو كان فيهن لذكرهن الله بأي حال، كما فعل في الأحزاب! أما هنا فالحديث كله عن المؤمنين والمؤمنات وليس للرسول أي علاقة به! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [سورة النّور, ٢٧-٣٠]

ثم تنظم الآيات أحكام دخول البيوت، فتشترط الاستئناس والتسليم ... إلخ! وفي هذا تلميح أيضا إلى أن الإفك قيل بسبب دخول الرجال بدون استئذان! فكما رأينا من خلال تناولنا لسورة النور، أن الله تعالى كان يخاطب بآيات السورة جماعة المسلمين،

ويأمرهم بحسن الظن بأنفسهم، كما يتوعد الذين يرمون المحصنات الغافلات باللعنة والعذاب الأليم!

إن من يجعل الآيات في السيدة عائشة لا يلتفت إلى منطوقها، وإنما يأخذها كما هي، ويسقطها إسقاطا على حادثة الإفك، ولا يهمه أن تتطابق معها أم لا، المهم أنها تتحدث عنها، والبخاري قال أنها كانت في السيدة عائشة فلا بد أن تكون فيها! أما نحن فلنلتفت إلى ما تقول ونفهمها كما قالت، وليس كما ادعت الروايات المتناقضة، فلا نجد فيها أي إشكال!

عائشة .. أم عبد الوهاب!؟

من الروايات التي يتمسك بها الطاعنون في السيدة عائشة، رواية الفتنة، والتي جاء فيها أن النبي جعل مسكن عائشة هو محل الفتنة! فيرون في هذا دليلا على أن النبي الكريم كان يعرف حقيقة عائشة، ولكنه كان صابرا عليها، لذلك فقد حذر منها، وعرّف المسلمين أنها فتنة، ومستند القائلين بهذا القول هو حديث رواه الإمام البخاري في باب: "ما جاء في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم"، فقال: "عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا فَأَشَارَ نَحْوَ مَسْكَنِ عَائِشَةَ فَقَالَ هُنَا الْفِتْنَةُ ثَلَاثًا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ" اهـ

فيقولون أن النبي الكريم أشار إلى مسكن عائشة وقال أنه محل الفتنة ثلاث مرات! فهذا يدل على أنه لم يكن يحبها وأنه كان يعرف حقيقتها وأنها تظهر بخلاف ما تبطن!!

ولقد رد علماء السنة على استدلالهم بهذا الحديث، فقالوا أنه ينبغي أن نفهم الحديث من خلال الروايات المشابهة له، فهذه هي الرواية الوحيدة التي جاء فيها الحديث عن المشرق! فالرسول عند كان يشير ناحية مسكن السيدة عائشة لم يكن يقصد

المسكن، وإنما كان يقصد الجهة! فهو كان يقصد جهة الشرق! وذلك كما جاء في رواية أخرى عند البخاري عن عبد الله بن عمر أيضا، في باب: صفة إبليس وجنوده، قال فيها: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَقَالَ هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ" اهـ

فالرسول كان يشير إلى المشرق ولم يكن يقصد المسكن، ولكن المسكن كان في هذه الناحية! وقال بعضهم: إن الرواية قالت: "نحو مسكن" ولم تقل: "إلى مسكن" وفارق كبير بين الاثنين!

وأعجب كثيرا من هذه "التمحكات"! إن الجلي أن هناك من غيّر متن الحديث بعد عبد الله، وهذا الذي غيّر هو شيعي متسنن حاقد على السيدة عائشة، وهذا هو الرد الذي يقال! أما أن أقول أن هناك فارق بين "نحو" و "إلى" فليس هذا القول من القرآن ولا من أقوال الرسول حتى نتوقف مع اختياره لكلمة دون أخرى، ثم نوجهها! وإنما هو من وضع إنسان! يُفترض أنه رأى النبي يفعل هذا! والمشرق التي تحدث النبي الكريم عنه هو نجد! كما ذكر هو صراحة في حديث آخر، يرويه البخاري كذلك عن ابن عمر، في باب: ما قيل في الزلازل والآيات: "عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا قَالَ: قَالُوا وَفِي نَجْدِنَا قَالَ: قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا قَالَ: قَالُوا وَفِي نَجْدِنَا قَالَ: قَالَ هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ" اهـ

ولأن "نجد" هو موطن دعوة محمد بن عبد الوهاب، مؤسس الحركة الوهابية، وجدنا من يقول من الشيعة والصوفية أن النبي تنبأ بفتنة محمد بن عبد الوهاب! ووجدنا من يحاول الرد على هذا القول بالإدعاء أن المقصود من نجد ليس نجد الجزيرة وإنما نجد العراق! وذلك على الرغم من أن النبي الكريم حدد القبائل الموجودة في هذا المشرق، فقال في الحديث الذي رواه البخاري، في باب: خير مال المسلم غنم يتبع

بها شغف الجبال: "عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْيَمَنِ فَقَالَ الْإِيمَانُ يَمَانٍ هَا هُنَا أَلَا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةَ وَمُضَرَ" اهـ

إلا أن المدافعين قالوا أنه كان هناك ربيعة ومضر في العراق!! ولست أدري كيف تكون أرض العراق السوداء، المعدومة المرتفعات "نجداً!" ولست أدري كيف يكون شرق من في المدينة هو العراق وليس نجد المعروفة!! ولست أدري هل كان هناك ربيعة ومضر في العراق أيام النبي الكريم، وهل كان ربيعة ومضر العراق قد دخلوا في الإسلام أصلا؟!

إن الرسول الكريم عندما رفض الدعاء لنجد بالبركة وعندما قال أنه يطلع منها قرن الشيطان كان يتحدث عن الأعراب الذين أظهروا إيمانا شكلياً ظاهريا بالرسالة، وإن ظلوا على بداوتهم وكفرهم! أولئك الذين سارعوا بالارتداد بعد النبي الكريم وخرج منهم مسيلمة الكذاب، مدعياً النبوة!!

وصدق فيهم حدس الرسول الكريم، فهم أجلاف غلاظ يظهرون خلاف ما يبطنون، لذا لم يستحقوا أن يدعو لهم النبي بالبركة، وبالفعل خرج منهم قرن الشيطان! وعلى الرغم من أننا نرى أن نجد هي نجد! إلا أن الأمر ليس له علاقة بمحمد بن عبد الوهاب، وإنما بالذين ارتدوا بعد النبي الكريم، وغيّروا وادعى منهم النبوة من ادعى! ونحن وإن كنا نختلف مع الوهابية، إلا أنه لا يمكن بحال أن توصف بقرن الشيطان، فهي في نهاية المطاف دعوة إلى الله!

عائشة .. والجنس

لم يكتف أعداء السيدة عائشة بما حِيك حولها كحادثة الإفك، وإنما وضعوا على لسانها الكثير والكثير من الأحاديث المتعلقة بالجنس والعلاقة الزوجية! وهكذا وجدنا

من يقول أن عائشة كانت تحب الجنس حبا جما! ومن شدة حبها له! كانت تُكثر من حديثها عنه! حتى أنه ورد عنها ما يقرب من مائة حديث جنسي في مسند أحمد!! فكانت تتحدث عن علاقتها مع النبي وعن تنظيفها منيه، وعن اغتسالها معه ... كما أنها أكثرت من حديثها حول الحيض[85] وما كانت تفعله فيه وما كان النبي يفعله معها فيه!

ومن ذلك ما قاله نبيل فياض: "رغم صراحة عائشة، أم المؤمنين، وجرأتها في الحديث عن الجنس، فقد كان بعض من أولئك المؤمنين يتحرّج من حديث كهذا، معتبراً إياه أحد أنواع الرفث: «خرج علقمة وأصحابه حُجاجاً، فذكر بعضهم الصائم: يقبّل ويباشر! فقام رجل منهم، قد قام سنتين وصامهما: هممت أن آخذ قوسي فأضربك بها، فكفّوا حتى تأتي عائشة، فسألوها عن ذلك، فقالت عائشة: كان رسول الله (ص) يقبّل ويباشر، وكان أملككم لإربه! قالوا: يا أبا شبل، سلها! قال: لا أرفث عندها اليوم! فسألوها، فقالت: كان يقبّل ويباشر وهو صائم» وقالت عائشة، مرّة، لأخيها عبد الرحمن: «ما يمنعك أن تدنو من أهلك، فتقبّلها وتلاعبها؟ فقال: أقبّلها وأنا صائم! قالت: نعم». وحين سُئلت: «ما يحلّ للرجل من امرأته صائماً؟ قالت: كلّ شيء إلا الجماع». (...) تفاصيل جنسية أخرى، توردها عائشة، تملأ صفحات كثيرة من كتب التراث الإسلامي. من ذلك، على سبيل المثال: حديثها عن واجب الاغتسال على الذي يجامع دون أن ينزل: «فعلناه مرة، فاغتسلنا! يعني: الذي يجامع ولا ينزل» وعنها أيضاً: «قال رسول الله (ص): إذا قعد بين الشعب الأربع، ثم ألزق الختان بالختان، فقد وجب الغسل»؛ وفي نص آخر: «إذ مسّ الختان الختان»؛ وفي نص ثالث: «إذا التقى الختانان، فقد وجب الغسل، فعلته أنا ورسول الله(ص)، فاغتسلنا». لكن الأمر غير واضح: فنحن لا نعرف على وجه الدقة، هل يتوجب الغسل لمجرد مس الختان الختان، أو لا بد من تجاوز الختان الختان؟ فعائشة تقول: «إذا جاوز الختان الختان، فقد وجب الغسل – فعلته أنا ورسول الله (ص)، فاغتسلنا». يبدو،

---

[85] سنفرد للحديث حول أحاديث الحيض عنصرا مستقلا، لما لها من تعلق بالنبي الكريم!

كما أشرنا، أنه كان هنالك بين الجماعة الإسلامية الأولى من يتحرّج من الحديث في مسائل كهذه. لكن عائشة، بجرأتها، كانت تزيل كلّ حرج. روى سعيد بن المسيب «أنّ أبا موسى، قال لعائشة: أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحي منك! فقالت: سل، ولا تستح، فأنا أمك! فسألها عن الرجل، يغشى ولا ينزل، فقالت: عن النبي (ص)، إذا أصاب الختان الختان، فقد وجب الغسل»[86]" اهـ

والذي نقر به هو أن السيدة عائشة كانت تفتي فعلا في مسائل العلاقات الزوجية بين الرجل وامرأته، انطلاقا من كونها أماً للمؤمنين، وترى أنه من الواجب عليها أن تُعلم المسلمين هذا الحكم! ولكنا لا نقر في عين الوقت أنها قالت كل هذه الروايات المنسوبة إليها! وإنما وُضع على لسانها كثير منها! وكثير من هذه الروايات مُضعّف عند علماء الحديث!

وبالإضافة إلى تضعيف علماء الحديث لجزء كبير من الروايات، فإنا نرى أن جزءً كبيرا منها مختلقٌ ومنسوب إلى السيدة عائشة! وهذا هو عادة الرواة، فإذا كان صحابي يكثر الرواية مثلا، كأبي هريرة، فتُختلق الرواية وتُنسب إليه، وهكذا تكثر الروايات عن أبي هريرة بشكل مبالغ فيه وهو من كثير منها براء!

وإذا كانت السيدة عائشة تتحدث عن العلاقات الزوجية، فإذا أراد الراوي تثبيت حكم، اختلقوا الحديث ونسبوه إليها! أو أضافوا إلى ما لديهم ما لم يكن في النص أصلا! فعلى سبيل المثال نحن نرى أن الروايات الواردة عن السيدة عائشة، والمتعلقة بتقبيل الصائم والمداعبة، وأن له كل شيء إلا الجماع مفتراة عليها، وأنها لم تقل منها كلمة واحدة! ولم يصدر هذا الفعل من النبي أصلا! فلم يكن النبي يقبلها وهو صائم ولا يمص لسانها!

---

[86] نبيل فياض، أم المؤمنين تأكل أولادها، ص.127، 128.

وذلك لمخالفة هذا الفعل للقرآن، لأن الله قد حرم على الصائم الرفث، وهو الكلام الجنسي مع الزوجة في نهار الصيام وأحله له بالليل! فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ١٨٧﴾ [سورة البقرة ,١٨٧]

فهل يُعقل أن يبيح له التقبيل والمداعبة الجسدية؟! فما الحاجة إلى الرفث إذا؟! ولماذا تقترح السيدة عائشة على أخيها أن يفعل هذا الفعل مع زوجه أصلا؟! هل هو من مستحبات الصيام؟!!

آفة الرواة أن يكون للرواية أصلا فيزيدون عليها لتأكيدها! فتنشأ المشاكل! فإذا أخذنا أحاديث التقاء الختانين[87] وأنها توجب الغسل كمثال! نجد أنه لا حرج من الحديث في هذه المسألة، لأنها من المسائل التي ينبغي أن يُعرف حكمها!

ولكن المشكلة أن الرواة حوّروها ليأكدوا حكمها، فنجد مثلا أن الإمام مسلم يروي في صحيحة رواية عن عائشة في باب: نسخ الماء من الماء، تقول: "عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الرَّجُلِ يُجَامِعُ أَهْلَهُ ثُمَّ يُكْسِلُ هَلْ عَلَيْهِمَا الْغُسْلُ وَعَائِشَةُ جَالِسَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا وَهَذِهِ ثُمَّ نَغْتَسِلُ" اهـ

فهذا حديث مختلق[88] ومنسوب إلى عائشة، فالحديث يجعل رجلا يسأل النبي عن مسألة جنسية في حضور السيدة عائشة، فلا يجيبه النبي بالحكم، وإنما يقول له أنه يفعل هذا مع زوجه الجالسة بجواره ثم يغتسلان!! لماذا لم يجبه النبي بأن عليه الغسل، فتنتهي المسألة، هل يحتاج الرجل إلى تأكيد من فعل النبي؟! وهل يقول النبي هذا، وهل هذا أصلا شيء يقوله الرجل في حق نفسه؟! ولماذا تحديد المرأة التي يفعل

[87] لا يعني ذلك مجرد ملامسة العضو للعضو، وإنما أن تحدث عملية جنسية ولكن لا يحدث إنزال!

[88] تظهر دلائل الاختلاق مباشرة، فتبدأ الرواية بقول الراوي: عن عائشة زوج النبي، كأنه يريد أن يعطي الرواية تحصينا من النقد! ثم نجد أن عائشة تتحدث عن نفسها فتقول: "وعائشة جالسة" بدلا من أن تقول: "وأنا جالسة"!

معها النبي الكريم هذا؟! المشكلة أن الرواة أرادوا تأكيد الحكم بفعل النبي مع أزواجه، فلم يكتفوا بالقول، وبالطبع فإن من سُينسب إليه الحكم هو السيدة عائشة!!

وهكذا أصبحنا نجد التفاصيل الدقيقة للحياة الزوجية للنبي الكريم معروفة ومتاحة في كل كبيرة وصغيرة! بل وصل الأمر إلى الإدعاء أن الصحابة كانوا يعرفونها في حياة النبي الكريم!

وهكذا أصبحنا نتقبل هذا على الرغم من أن أخذنا عن النبي الكريم أيضا –كما ورد في صحيح مسلم، باب: تحريم إفشاء سر المرأة–: "إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا"

والعجيب أن بعضهم يتقبل مثل هذه الروايات ويعدها من الدين، لأنه يرى أنها تعليم لنا! ونحن لا نعترض على المبدأ وإنما الاعتراض على التفاصيل، فلماذا تحديد الأشخاص ولماذا التفاصيل الزائدة؟ إن لبيوت النبي الكريم حرمة ينبغي مراعاتها، ولا يجوز التحجج بأن هذا من العلم الذي يحتاج المسلم إلى معرفته!

فإذا أخذنا الحديث الذي رواه البخاري عن أنس بن مالك، في باب: "إذا جامع ثم عاد، ومن دار على نسائه بغسل واحد" والذي يقول فيه: "قَالَ كَانَ النَّبِيُّ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ قَالَ قُلْتُ لِأَنَسٍ أَوَكَانَ يُطِيقُهُ قَالَ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ إِنَّ أَنَسًا حَدَّثَهُمْ تِسْعُ نِسْوَةٍ[89]." اهـ

والحديث الذي رواه الطبراني عن أنس أيضا في "المعجم الأوسط"، والذي يقول فيه: "قال رسول الله: "فُضلت على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وشدة البطش."اهـ

---

[89] نرى أن هذا الحديث وُضع عندما انتشرت الجواري في المجتمع المسلم، وأصبح الرجل يمتلك العديد منهن، وأصبح شغل الناس الشاغل وطء الجواري، فظهرت الإشكالية: هل يجب الغسل بين الجارية والأخرى، أم يكفي غسل واحد بعد الانتهاء، فوُضع الحديث!

فهل يُعقل أن يتفاخر النبي الكريم بكثرة الجماع؟! وهل يعني هذا أن كثرة الجماع من السنة، التي يُستحب للإنسان المواظبة عليها؟! ولماذا يقول أنس أن النبي كان يطوف على نسائه، فعلى فرض أنه رأى هذا لأنه كان في بيت النبي، فهل يجوز له إفشاء هذه الخصوصية؟! ولكن –تبعا لكلامه– فإنها ليست خصوصية، فلقد كان الصحابة يتحدثون أنه كان له قوة ثلاثين رجلا[90]!!!

ولست أدري من الذي أعطى الصحابة تلك المعلومة، أن للنبي قوة ثلاثين، هل هو النبي أم أزواجه؟! وهل هذه المعلومة من السنة أم من ...؟!! سيقول بعض الأخوة المتقبلين للرواية: سنخرج من هذا بجواز طوف الرجل على نسائه بغسل واحد! نقول: ومن قال أنه يجب على الرجل أن يفصل بين المعاشرة والأخرى بغسل؟! إن الأصل في الأشياء الإباحة، ولا دليل يوجب هذا، ومن المعروف أن الإنسان يغتسل لأداء العبادات وليس لمعاشرة الزوجات!

فكما تُقوِّل على النبي تُقوِّل على السيدة عائشة، وبخلاف التقول كانوا يقولون، فيضاف إلى كلامهم، فالكلمة كانت تخرج كلمة فتصير جملاً ومواضيع كثيرة! يزيد فيها الرواة تبعا لفهمهم!

فعل سبيل المثال يروي أبو داود في سننه، في باب: القسم بين النساء، حديثاً عن عائشة تقول فيه: "قَالَتْ عَائِشَةُ : يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا"اهـ

[90] المشكلة أن الرواة أرادوا أن يظهروا النبي بمظهر الكمال في جميع الجوانب حتى الجوانب الجسدية، فهو أجمل الناس، وهو أفحل الذكور! وليس الكمال في هذه الجوانب، وإنما هو في الجوانب الخُلقية، وهي التي تحصلت للنبي فعلا! ونطلب إلى القارئ الكريم قراءة كتابنا: السوبرمان بين نيتشه والقرآن، والذي ناقشنا فيه مسألة الكمال البشري، وبيّنا أن النبي الكريم كان هو "السوبرمان الأعظم"!

فهذه الرواية تبين أن النبي الكريم كان يأتي كل أزواجه كل يوم –تقريبا– ليسأل عنهن، فيجلس معهن ويكلمهن، إلا أنه لا يعاشرهن! ثم يذهب إلى من كانت ليلتها فيبيت عندها! وهذه الرواية لا حرج فيها ولا إشكال، وتبين الخلق العالي للنبي الكريم، إلا أن الرواية لم تظل كما هي، وإنما دخلتها الزيادة، فنجد في مسند أحمد: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا امْرَأَةً امْرَأَةً فَيَدْنُو وَيَلْمِسُ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يُفْضِيَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا" فلم يعد الطواف لمجرد السؤال عن الحال، وإنما يجلس ويداعب جسديا، فنجد في هذه الرواية "يلمس" وفي غيرها: "يُقبل"، وفي غيرها يفعل كل شيء إلا الجماع!! وهكذا يجد أعداء الدين المستند لادعائهم شهوانية النبي! ذلك الذي لا يترك يوما بدون ممارسة الجنس مع كل أزواجه، سواء كانت ممارسة كاملة أو منقوصة!!

ولا يستطيع المرء القول بأنهم يلوون أعناق النصوص، أو يُقولونها ما لا تقول، وإنما نقول: إن هذه الزيادات من إضافات الرواة!! وغير هذا أو ذاك نجد بعض الرواة هم الذين رووا الحديث بدون أن يؤذن لهم أصلا! فالنقطة التي يغفل عنها أكثر القراء أن الإنسان لا يتحرج من الكلام في الجنس إذا كان في مجالس خاصة، يُستفتى عن أمر ما أو يُعلم السائل شيئا ما، فما ذنبي إذا أشاع السائل كلامي هذا؟!

ولا يوجد إنسان لم يتكلم عن الجنس في مجالسه الخاصة! وليس في هذا حرج، الحرج كل الحرج فيمن يظهره أمام عامة الناس. فعلى سبيل المثال نجد رواية في النسائي، في باب: ذكر ما كان النبي يصنعه إذا حاضت: "حَدَّثَنَا جُمَيْعُ بْنُ عُمَيْرٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ مَعَ أُمِّي وَخَالَتِي فَسَأَلَتَاهَا: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ إِذَا حَاضَتْ إِحْدَاكُنَّ؟ قَالَتْ: كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا حَاضَتْ إِحْدَانَا أَنْ تَتَّزِرَ بِإِزَارٍ وَاسِعٍ ثُمَّ يَلْتَزِمُ صَدْرَهَا وَثَدْيَيْهَا" اهـ

امرأتان تسألان امرأة مثلهما، فلماذا ينشر "جُميع" هذا قول عائشة لهما؟! وما قيل في هذا الموطن، يقال في باقي المواطن، السيدة عائشة يسألها الرجل أو الرجلان، وليس

هذا على الملأ وإنما في منزلها، وهي تحدثهم من وراء حجاب! فينتقل قولها ويُتداول، فما ذنبها هي؟!

كما ينبغي أن ننتبه إلى أن أكثر أحاديث السيدة عائشة جاءت عن طريق ابن أختها عروة ابن الزبير ابن العوام!! فالناظر في أحاديث السيدة عائشة يجد أن كثيرا منها يُروى عن هشام بن عروة عن أبيه! وأنا كنت أتساءل: ما السر في أن أكثر الأحاديث يأتي عن طريق عروة؟! ولماذا كانت السيدة عائشة تتبسط معه في الحديث هكذا؟! إلى أن علمت أنها كانت تتحدث مع ابن أختها أسماء! فهل هناك حرج في حديثها مع ابن أختها؟!

إن هذه الأقوال وما يشابها لا ينبغي أن نستحي منها، فهي جزء من الثقافة الجنسية، والتي نمنعها عن أطفالنا ولا حرج في أن نلقنها للشباب والكبار! وكل الأمم تدرس هذا الفرع، فما الحرج في الحديث حول الجنس؟!

إن ديننا لا ينظر إلى الجنس تلك النظرة الكارهة المستبشعة، التي تنظرها أديان أخرى، وإنما يراها من ملذات الحياة، التي ينبغي على الإنسان أن يتلذذ بها في الحلال .. وبدون إسراف .. وفي السر!

ونقول للشيعة الذين يتهمون السيدة عائشة بهذه التهمة: لقد ورد في كتبكم بعض الروايات، التي تسيء إلى النبي وإلى السيدة عائشة، وإلى وعلي رضي الله عنه، مثل: جاء في كتاب سليم بن قيس: "وجاء (علي) مرة أخرى فلم يجد مكاناً فأشار إليه رسول الله: هاهنا –يعني خلفه– وعائشة قائمة خلفه وعليها كساء: فجاء علي فقعد بين رسول الله وبين عائشة، فقالت وهي غاضبة: ما وجدت لإستك –دبرك أو مؤخرتك– موضعاً غير حجري؟ فغضب رسول الله وقال: يا حميراء لا تؤذيني في أخي" اهـ

وروى المجلسي في "بحار الأنوار" أن علي بن أبي طالب قال: "سافرت مع رسول الله، ليس له خادم غيري، وكان له لحاف ليس له غيره، ومعه عائشة، وكان رسول الله ينام بيني وبين عائشة ليس علينا ثلاثتنا لحاف غيره، فإذا قام إلى الصلاة –صلاة

الليل- يحط بيده اللحاف من وسطه بيني وبين عائشة حتى يمس اللحاف الفراش الذي تحتنا"!!

فهل يرضى رسول الله أن يجلس علي في حجر عائشة امرأته؟ ألا يغار رسول الله على امرأته وشريكة حياته إذا تركها في فراش واحد ع ابن عمه؟ ثم كيف يرتضي أمير المؤمنين ذلك؟! إننا ننزه الرسول وعائشة وعلي عن أمثال هذه الأحاديث، ونجزم أنها من الموضوعات -بغض النظر عن سندها-، وكما رددنا هذه الروايات، نرد أمثالها الواردة في كتب أهل السنة، لمخالفتها كتاب الله .. وحياء النبي وأزواجه!

وطء المرأة في المحيض

من المطاعن التي يطعن بها أعداء الدين في الإسلام، مسألة وطء المرأة في الحيض، فيقولون أن النبي -لأنه شهواني ولا يقدر على بعد النساء، وحاشاه- خالف أمر الله، بعدم قرب النساء في فترة الحيض، فكان يتمتع بهن! على الرغم من وجود نساء أخريات طاهرات! ومس السيدةَ عائشة أيضا جانبٌ من هذه الشبهة، فهي التي روت هذه الأحاديث! فيقولون أنها أكثرت الحديث عن الحيض، وهذا مما لا ينبغي للمرأة الحديث عنه! كما يرد كثير من القرآنيين هذه الأحاديث ويرونها مختلقة لمخالفتها كتاب الله، ويقولون أن السيدة عائشة لم ترو مثل هذه الأحاديث!

أما نحن فنرى أن السيدة عائشة روت هذه الأحاديث! وأن النبي الكريم فعل ما قالته السيدة عائشة، وأنه ليس في هذه الروايات ما يستحي منه المسلم! فهي من العلم الذي يجب -على الكبار- معرفته!

ونذكر للقارئ الكريم طرفا من هذه الأحاديث التي يثير هؤلاء الأقاويل حولها: روى الإمام البخاري في صحيحه في باب: غسل الحائض رأس زوجها: "حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ

هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا حَائِضٌ"

وكذلك يروي البخاري في باب: قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض: "عَنْ مَنْصُورِ بْنِ صَفِيَّةَ أَنَّ أُمَّهُ حَدَّثَتْهُ أَنَّ عَائِشَةَ حَدَّثَتْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَّكِئُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ" اهـ

وكذلك يروي البخاري في باب: مباشرة الحائض: "عَنْ الْأَسْوَدِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلَانَا جُنُبٌ وَكَانَ يَأْمُرُنِي فَأَتَّزِرُ فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائِضٌ وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ"

ونقول: ما الحرج في هذه الروايات؟ إن السيدة عائشة كانت تريد أن تبين أن المرأة الحائض ليست نجسة، وأن النبي كان يتعامل مع نسائه في حيضهن بشكل طبيعي، فلا يهجرهن –كما يفعل اليهود مع نسائهن!– فكان يقرأ القرآن متكئا في حجرها، وترجل شعره وكان يصلي وهي أمامه وهي حائض ... الخ!

كما أنها بيّنت أن الحيض لا يمنع المداعبة الظاهرية، فالمحرم هو وطء الفرج فقط! أما باقي الجسد فلا إشكال فيه! وليست السيدة عائشة وحدها هي من روت مثل هذا القول، فلقد روي عن غيرها من أزواج النبي مثل ميمونة، فيروي لنا الإمام مسلم في صحيحه، في باب: الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد: "عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ مَيْمُونَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْطَجِعُ مَعِي وَأَنَا حَائِضٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ ثَوْب" اهـ

ولأن الناقدين لهذه الأحاديث، يرون فيها مخالفة للقرآن، نتوقف معها لنبصر، هل خالف الرسول أمر الله في القرآن، أم طبقه خير تطبيق؟!

هل النبي شهواني؟

يدعي المدعون أن الرسول الكريم خالف الأمر الذي أمر الله به المسلمين، في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٢٢]

فهل خالف الرسول حقا أمر الله، أم أن المدعين لم يفهموا الآية كما ينبغي؟ قبل أن نتناول هذه الآية، نتوقف لنتساءل: بغض النظر عن الآية –لأنها لا تقول بما يدعون– ما العيب الحرِج في أن يباشر الإنسان زوجه في حال الحيض مباشرة خارجية؟!

العجب كل العجب أن يرى فريقٌ أن هذا الفعل –بغض النظر عن فاعله– يثير الاشمئزاز! وأعجب، هل اختلفت المرأة في حيضها عنها في غير حيضها؟ إن الجسد واحد، والاختلاف كله في الفرج! وهو متجنَب! فكيف يُشمئز منها؟!

وفريق آخر يرى أن هذا الفعل انسياق من النبي الكريم مع شهواته! فكيف يكون للنبي الكريم هذا العدد من النساء، وعلى الرغم من ذلك يترك الطاهرة ويباشر الحائض؟ فلم لا يضاجع الطاهرة، أو يترك الحائض أصلا؟!

ونرد على هؤلاء المثاليين قائلين: إن فعل النبي الكريم هذا هو قمة الرجولة –وليس الفحولة– من محمد الإنسان النبي! فلقد كان النبي الكريم متزوجا من تسع نساء، وكان لكل واحدة منهن يوما، أي أن النبي الكريم كان يبيت عند كل واحدة منهن ثلاث مرات في الشهر فقط! فإنْ كان بجانب النبي الكريم كل يوم امرأة مختلفة، فإنّ الوضع مختلف بالنسبة للمرأة، فبجانبها رجل كل تسعة أيام! أي إنه إذا كانت المرأة حائضا فهذا يعني أنه سيمر عليها سبعة عشر يوما بدون ممارسة جنسية!! والمرأة بحاجة إلى من يشعرها بأنوثتها! والمرأة تشعر بأنوثتها من خلال جسدها، فهي تعلم أنها إنسان جسد!

ولله در الرافعي عندما قال: "لقد قضت الطبيعة!! أن تكون المرأة سعادة للآخرين!!" فإذا لم يلتفت الرجل إلى هذا الجسد ويتغزل فيه ويداعبه، أُحبطت المرأة أيما إحباط! وإني لأجزم –من خلال نظري وتحليلي لنفسية العظماء– أن الأمر كان بالنسبة للنبي الكريم من "الواجبات" التي يؤديها بالدرجة الأولى من أجل إسعاد الآخرين، ثم تأتي نفسه في الدرجة التالية، (ولا نقول أنه لم يكن يتلذذ، وإنما الدافع الأول هو إسعاد الطرف الآخر!)

لذا فعلينا أن نصحح منظورنا للمسألة، وهي أنه كان لكل زوج من أزواج النبي يوم كل تسعة أيام، ومن غير المقبول أن يضاجع النبي امرأة أخرى غير صاحبة اليوم في يومها! وإذا كان من السهل على النبي الكريم ترك مضاجعة الحائض، إلا أن هذا كان سيزيد من سوء الحالة النفسية التي تمر بها أصلا!

إن المرأة تشعر بالقلق والتوتر في أيام الحيض، لإحساسها أنها فاقدة لأهم أسلحتها "أنوثتها"، والواجب على الزوج في هذه الأيام أن يكثر من مداعبة زوجه والاهتمام بها، حتى لا تشعر أنه مفارق لها أو راغب عنها!

وفي مثل حال النبي الكريم (حيث هناك يوم لكل زوجة) من المستحب الممارسة الخارجية إرواءً لشهوة المرأة وإرضاء لها وإطفاء لنار غيرتها من ضرارئها، اللاتي يقدمن للرجل ما لا تستطيع أن تقدمه هي في مثل هذه الأيام.

لم يخالف النبي الآية

بعد أن عرضنا لموقف المثاليين من الجنس! ننتقل لنتناول الآية، لنُري القارئ الكريم، كيف أن الانحراف عن النص القرآني هو منبت كل طعن ومستند كل طاعن!

وسنبدأ بعرض أقوال المفسرين فيها، معلقين عليها، ثم نحلل الآية بعد ذلك، ونعرض هنا ما قاله الإمام الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، حيث قال: "رُوي أن اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، والنصارى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض[91]، وأن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها في بيت كفعل اليهود والمجوس. فلما نزلت هذه الآية أخذ المسلمون بظاهر الآية فأخرجوهن من بيوتهن (وهذا من عجيب القول، فلو أُخذ بظاهر الآية –تبعا لفهم المفسرين للظاهر!– لخرج الرجال من البيوت وتركوا النساء فيها! –عمرو–) فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله البرد شديد، والثياب قليلة، فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرناها هلكت الحِيّض. فقال عليه الصلاة والسلام: "إنما أمرتكم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم[92]" اهـ

وهذا الفعل من اليهود والمجوس يدل على أن هذا الحكم مما كان في الكتب السابقة، وأنهم أخطئوا فهم وتطبيق الآية!!

ونستكمل ما قاله الإمام الفخر الرازي: "اعلم أن أكثر المفسرين من الأدباء زعموا أن المراد بالمحيض ههنا الحيض، وعندي أنه ليس كذلك، إذ لو كان المراد بالمحيض ههنا الحيض لكان قوله: ﴿... فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ... ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢] معناه: فاعتزلوا النساء في الحيض، ويكون المراد فاعتزلوا النساء في زمان الحيض، فيكون ظاهره مانعاً من الاستمتاع بها فيما فوق السرة ودون الركبة. (هنا بدأ الانحراف عن النص، وسنرى ذلك جليا في تناولنا للآية –عمرو–) ولما كان هذا المنع غير ثابت لزم القول بتطرق النسخ أو التخصيص إلى الآية، ومعلوم أن ذلك خلاف الأصل أما إذا حملنا المحيض على موضع الحيض كان معنى الآية: فاعتزلوا النساء في موضع الحيض، ويكون المعنى: فاعتزلوا موضع الحيض من النساء، وعلى

[91] ينكر النصارى هذا القول ويرون أنهم في هذا الحكم تابعون لشريعة موسى! وأنهم أيضا يستقذرون هذا الفعل.

[92] فخر الدين الرازي، تفسير: مفاتيح الغيب، المجلد السادس، ص.54.

هذا التقدير لا يتطرق إلى الآية نسخ ولا تخصيص، (...) واعلم أن الأذى في اللغة ما يكره من كل شيء. وقوله: ﴿... فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ... ﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢] الاعتزال التنحي عن الشيء، قدّم ذكر العلة وهو الأذى، ثم رتب الحكم عليه، وهو وجوب الاعتزال. (...) أما قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢] فاعلم أن قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ أي ولا تجامعوهن، يقال قرب الرجل امرأته إذا جامعها، وهذا كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿... فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ... ﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢]. (وبسبب الانحراف الأول، كان لا بد أن يقع الانحراف الثاني هنا، فيُعطف الشيء على نفسه!! –عمرو–) ويمكن أيضاً حملها على فائدة جليلة جديدة وهي أن يكون قوله: "فاعتزلوا النساء فِي المحيض" نهياً عن المباشرة في موضع الدم، وقوله: "﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ يكون نهياً عن الالتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع.[93]" اهـ

وبعد أن قدمنا للقارئ نموذج من أقوال المفسرين في الآية، نبدأ تحليلها ليعرف أين حدث الانحراف عن النص، ونبدأ بسم الله وعليه الاتكال: تبدأ الآية بالتعريف بأن ما فيها هو رد على سؤال طُرح على النبي الكريم، وإذا نظرنا في هذه الآية وجدنا أن المسئول عنه هو: المحيض: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ ... ﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢] ، فما هو المحيض؟ اختلف المفسرون في المحيض، فقالوا أنه الحيض[94]، –وليس كذلك لأن الغيب ليس مثل المغيب!!– أو موضع الحيض أو زمان الحيض!

والمعنى الذي يمكن قبوله للمحيض هو أن يكون شيئا يمكن اعتزال النساء فيه! لا أنه هو الذي يُعتزل من النساء!! فلقد قال الرب بعد ذلك: ﴿... فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي

[93] المرجع السابق، ص.55–58.

[94] مشكلة عامة المفسرين أنهم لا ينتبهون إلى الفروق الدقيقة بين الكلمات، والكلمة هنا مثال لذلك، لذا فسنذكر للقارئ كلمة أخرى مشابهة لها حتى يعرف الفارق بين الكلمات: "الغيب هو الشيء الغائب، الغياب هو عدم الوجود، المغيب هو عملية التواري نفسها! وعلى هذا فيكون الحيض هو الشيء النازل نفسه: الدم، والمحيض عملية النزول.

ٱلۡمَحِيضِ ... ﴿٢٢٢﴾] سورة البقرة, ٢٢٢[، والذي جعله الإمام الفخر الرازي –وعامة المفسرين– بمعنى: "فاعتزلوا موضع الحيض من النساء"، ليجعل القول بأن المحيض هو موضع الحيض هو القول الصحيح!

كما يجب أن يكون "أذى"، ولا يمكن أن يكون زمان نزول الدم أذى! فما هو المحيض إذا؟ الذي نقول به –والله أعلم– أن المحيض هو (عملية، فعل) نزول الدم نفسه، فلقد كان السؤال عن نزول الدم على المرأة، لماذا تحيض المرأة؟! فجاء الرد من الله العليم: "﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾، أي أن ما ينزل من المرأة هو أذى موجود بداخلها، فلو لم ينزل لضر الجسم، لذا فإن الجسم يقوم بإخراجه، كما يقوم بإخراج الفضلات! فالبويضة التي تنزل كل شهر، استعدادا لاستقبال المني لتكون طفلا، عندما لا تُلقح تفسد، وتصبح أذى ومن ثم وجب إخراجها!

وتكرار كلمة المحيض في الآية دليلٌ على ما نقول، فلقد قال الله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾، ولم يقل: فاعتزلوا النساء فيه! وذلك لأن الحديث عن المحيض، وهو غير الأذى! ولو كان المراد من المحيض هو الدم، كما يرى كثير من الفقهاء والمفسرين، لما كان هناك فارق كبير ولا حاجة إلى التكرار! أي أنه يجب اعتزال النساء في أثناء هذه العملية!

وهذا الأذى لا ينحصر تأثيره على المرأة فقط، وإنما يتعداه إلى الرجل كذلك –في حالة معينة– لذلك ترتب عليه حكمان قادمان! وهما قوله تعالى: ﴿... فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ... ﴿٢٢٢﴾] سورة البقرة, ٢٢٢[

والمشكلة الكبرى التي وقع فيها عامة المفسرين أنهم جعلوا الأمر والنهي بمعنى واحد! فعدم القرب هو بمعنى الاعتزال! ولذلك رأينا الإمام الفخر الرازي يبرر ورود النهي "ولا تقربوهن" بأنه توكيد أو للطيفة!! أما نحن فنفهم أن هذا الحكم غير ذاك، فهذا أمر بشيء وذاك نهي عن آخر!! وفهمهم المعوج هذا نابع من صرفهم معنى

اعتزال النساء إلى المعنى الجنسي! كما أنهم لم يعطوا معنى دقيقا للاعتزال، لذا كان لزاما أن يحدث هذا الخطأ!

وليس الاعتزال كما يقولون، فإذا نظرنا في المعاجم اللغوية مثل لسان العرب، وجدناه يقول: "عَزَلَ الشيءَ يَعْزِلُه عَزْلاً وعَزَّلَهُ فاعْتَزَلَ وانْعَزَلَ وتعَزَّلَ: نَحَّاه جانِباً فَتَنَحَّى. وقوله تعالى: إِنَّهُم عن السَّمْع لَمَعْزولون؛ معناه أَنَّهم لَمَّا رُمُوا بالنجوم مُنِعوا من السَّمْع. واعْتَزَلَ الشيءَ وتَعَزَّلَه، ويتعديان بعَنْ: تَنَحَّى عنه. (...) والعُزْلةُ الانْعِزال نفسُه، يقال: العُزْلةُ عِبادة. وكُنْتُ بمَعْزِلٍ عن كذا وكذا أَي كُنْتُ بموْضع عُزْلةٍ منه. واعْتَزَلْتُ القومَ أَي فارَقْتهم وتَنَحَّيت عنهم[95] " اهـ

ولا حرج في القول بأن الاعتزال بمعنى التنحي! ولكن الإشكال كل الإشكال في فهمه بمعنى المفارقة! فلم يستعمله الله عزوجل في كتابه أبدا مشيرا إلى المفارقة! فعندما أراد الحديث عن المفارقة قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ... ۝٢﴾ [سورة الـطلاق ,٢]

وعندما أراد الحديث عن قطع العلائق تماما مع عدم المفارقة المكانية استعمل "الاجتناب": ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧﴾ [سورة الزمر ,١٧]

أما المعتزل فيكون مختلطا بمن اعتزله، إلا أن تعامله معه يقل جدا وينحصر في أشكال معينة يحتاج إليها المُعتزِل! ونعرض الآيات الخمس، التي جاء فيها الحديث عن الاعتزال، لنبصر كيف أن الاعتزال يكون مع الاختلاط والتعامل:

أول آية هي قول الله تعالى للمؤمنين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ

[95] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، المجلد الرابع، ص.2930.

عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾] سورة النساء, ٩٠]

فهؤلاء قوم لهم تعامل وعلاقة مع المسلمين، واعتزالهم هنا ليس بمعنى ذهابهم إلى مكان ما، وإنما بمعنى ترك المسلمين في حالهم! فلم يقاتلوهم وألقوا السلم، فليس للمسلمين عليهم سبيلا!

فإذا انتقلنا إلى الآية التالية وجدنا الرب العليم يقول: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾] سورة الكهف, ١٦]

فكما نرى فالاعتزال كان وهم مخالطون لقومهم، إلا أنهم يتجنبون الخوض معهم في مسائل الاختلاف! وترتب على هذا الاعتزال أنهم أووا إلى الكهف!

فإذا انتقلنا إلى الآيتين التاليتين وجدنا المولى يحكي قول الخليل لقومه: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾] سورة مريم, ٤٨-٤٩]

فبيّن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن اعتزاله كان مع وجوده بينهم! فبغض النظر عن أنه لو كان ترك البلدة لكان مهاجرا وليس معتزلا، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أنه كان يعيش بينهم، وإلا لما كان للحديث عن آلهتهم في بلد أخرى معنى معقول!!

ونصل إلى الآية الأخيرة، والتي لم يستطع أحد من المفسرين أن يقول فيها أن الاعتزال كان مفارقة، وقالوا بما قلنا به في معنى الاعتزال، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾] سورة الدخان, ٢١]

فلقد قال الإمام الفخر الرازي: "فاعتزلون" أي اخلوا سبيلي لا لي ولا علي. وقال الإمام الألوسي: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا لي بسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلا حكم. وقيل: المعنى وإن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن فتنحوا واقطعوا أسباب الوصلة عني، ففي الكلام حذف الجواب وإقامة المسبب عنه مقامه والأول أوفق بالمقام، والاعتزال عليه عبارة عن الترك وإن لم تكن مفارقة بالأبدان.[96]" اهـ

فكما رأينا، فليس الاعتزال بمعنى المفارقة ولا الاجتناب ولا الهجر، وإنما بمعنى ترك الإنسان وشأنه، فيكون تعامل الرجال مع النساء في هذه الفترة من باب الطلبات الرقيقة ولا تُكلف بالأعمال الكثيرة، فتُرفع الواجبات المنزلية من على المرأة في تلك الفترة (فإن شاءت فعلت وإن شاءت أجلت إلى ما بعد انقضاءها)، ومن غير المقبول أن يُرفع عن المرأة في تلك الفترة كتاب الصلاة، ثم تظل ملزمة بواجباتها المنزلية! كما أن الاعتزال ليس بمعنى ترك الجنس! ولست أدري لماذا انصرفت أذهان المفسرين إلى الجنس، عند الحديث عن اعتزال النساء!! فكأنه لا علاقة بين الرجال والنساء إلا الفراش!!!

فإذا تركنا الاعتزال وانتقلنا إلى الحكم التالي؛ وهو قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ... ٢٢٢﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢]، وجدنا أنه مؤكد لما نقول في أن الاعتزال ليس بمعنى التجنب أو المفارقة، فلو كان كذلك، لما كان هناك معنى للنهي عن الجماع!! فعندما تكلم المولى عن الخمر أمرنا باجتنابها، ولم يعد لينهانا عن شربها!! فمن غير المعقول أن يُشرب ما هو بعيد عن الإنسان!! أما المعتزِل فهو غير مفارق للمعتزَل، لذلك ورد النهي عن قرب النساء!!

[96] محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المجلد الخامس والعشرون، دار إحياء التراث العربي، ص.122.

وحتى لا يقول أحد أن النهي عن القرب هو بمعنى النهي عن أي شكل من أشكال الاتصال الجسدي، نُذكر بأن الله تعالى نهى عن القرب حتى الطهر، كما أن النهي متعلق ب "هو أذى"، فدل ذلك كله على أن المراد من النهي هو النكاح في الفرج، الذي يصدر منه الأذى! وما عدى ذلك فليس فيه أي إشكال! فما الاختلاف بين المرأة الحائض وغير الحائض إذا كانت ترتدي "لباسا" يستر فرجها؟! وما الأذى الصحي الذي يلحق بالرجل، إذا اضطجع مع امرأة حائض وكانت ترتدي ما يستر فرجها؟!!

إن الله رحيم بعباده، فما الذي يفعله الرجل أو المرأة إذا اشتدت شهوة أحدهما في هذه الأيام، أو كان عائدا من سفر طويل فوجدها على هذه الحالة، أيتجه الإنسان إلى الحرام، أم أن ممارسة جزئية تؤدي الغرض؟!!

ونعود فنذكر أن المرأة قد تشعر أن الرجل قد ينفر منها بسبب دورتها، والروائح التي قد تصدر عنها، فأن يمنع الرب العليم الرحيم الرجل من أن يقبل زوجته أو أن يأخذها في أحضانه، فإن هذا يعني أن الله تعالى يعاقب المرأة بحرمانها من الحنان في هذه الأيام!!!!

وإذا قلنا أنه لا بأس بقبلةٍ وأحضان، فهل من الممكن أن تكون هناك قبلة وأحضان جائزة (البريئة) وأخرى غير جائزة (المقترنة بشهوة)، مع إمكانية تحول أيٌ منهما إلى النوعِ الآخر؟! بداهة، هذا من غير الممكن، أما الممكن فهو أن تعطي المرأة الحب والحنان، بل وتروي شهوتك وشهوتها، مع اجتناب فرجها! وليس هذا بالعسير ولا المستحيل!

فيظهر لنا في نهاية المطاف أن طعن الطاعنين في فعل النبي واتهامه بالشهوانية، وأن طعن آخرين في الروايات الصحيحة المنقولة عن النبي والطعن في السيدة عائشة، راجع إلى قلة تدبر ونظر في كتاب الله، كما يظهر أن فعل النبي الكريم راجع إلى علو أخلاقه، وأنه ما ينبغي على المسلم فعله، لا الاستحياء منه!

عسل أم جارية أم ..؟

من الحوادث الشهيرة التي ارتبطت بالسيدة عائشة، تحايل السيدة عائشة لتمنع النبي من شيء يحبه، وكان ذلك التحايل سببا لأن حرّم النبي الكريم على نفسه هذا الشيء!

واختلفت الروايات في الشيء الذي حرمه النبي الكريم على نفسه، فقالت بعض الروايات أن الذي حرمه النبي على نفسه كان جاريته مارية، لأنه وطأها في يوم عائشة وفي غرفة حفصة، فأبصرته حفصة، فحرمها النبي على نفسه، واستكتمها الحديث! فنبأت به أم المؤمنين عائشة، فأنبأه الله بإنبائها إياها!

وقالت روايات أخرى أن السيدة عائشة احتالت على النبي الكريم، بسبب الغيرة، فاتفقت مع بعض أزواج النبي ليخبرنه أن به رائحة كريهة من العسل الذي شربه! فحرّم النبي الكريم على نفسه العسل! ثم نزلت سورة التحريم، وفيها يلومه الله عز وجل على تحريمه، ما أحل الله على نفسه!! لذا نتوقف مع هذه الروايات، لنرى أيها كانت سببا للتحريم، وماذا حرّم النبي على نفسه فعلا؟!

إذا نظرنا في تفسير الطبري وجدنا أنه ذكر في سبب نزول هذه الآية الروايات التي قالت أن الذي حرّمه النبي على نفسه كان مارية! وذكر في ذلك روايات عدة، فقال: "اختلف أهل العلم في الحلال الذي كان الله جلّ ثناؤه أحله لرسوله، فحرّمه على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه، فقال بعضهم: كان ذلك مارية مملوكته القبطية، حرمها على نفسه بيمين أنه لا يقربها طلبًا بذلك رضا حفصة بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارت بأن خلا بها رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم في يومها وفي حجرتها. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبد الرحيم البرقي، قال: ثني ابن أَبي مريم، قال: ثنا أَبو غسان، قال: ثني زيد بن أسلم أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم أصاب أمَّ إبراهيم في بيت بعض نسائه؛ قال: فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي، فجعلها عليه حراما؛ فقالت: يا رسول الله كيف تحرّم عليك الحلال؟، فحلف لها بالله ألا يصيبها،

فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ قال زيد: فقوله أنت عليّ حرام لغو. (...) عن ابن عباس، قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ (...) إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين وكانتا زوجتي النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، فذهبت حفصة إلى أبيها، فتحدثت عنده، فأرسل النبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيرة شديدة، فأخرج رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم جاريته، ودخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله لقد سُؤْتَنِي، فقال النبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: "واللهِ لأرْضِيَنَّكِ فَإنّي مُسِرّ إلَيْكِ سِرًا فَاحْفَظِيهِ"؛ قالت: ما هو؟ قال: "إنّي أُشْهِدُك أنَّ سُرِّيَّتي هَذِهِ عَلَيَّ حَرَامٌ رِضًا لَكِ[97]" اهـ

والناظر في كتاب الطبري يجد أنه ذكر روايات كثيرة تقول أن المحرم كان مارية، وذكر روايتين تقريبا تقولان أن المحرَم كان شرابا يحبه النبي! ولم يذكر تفصيلا لهذا الشراب، فلم يقل أنه كان عسلا أو غيره، ولم يذكر له قصة! ولم يرجح الإمام الطبري في نهاية المطاف ما هو الشيء الذي حرمه النبي الكريم على نفسه!

فإذا نظرنا في كتاب البخاري وجدنا كثيرا من الروايات التي تتحدث عن أن المحرم كان عسلا، فنجده يذكر في باب: لم تحرم ما أحل الله لك: "عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ زَعَمَ[98] عَطَاءٌ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْتَقُلْ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ. فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا بَلْ

(97) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المجلد الثالث والعشرون، ص.475-478.

(98) الملاحظ أن بعض أسانيد هذه الرواية تكرر فيها "الزعم"! فنجد في هذه الرواية: "زعم عطاء أنه سمع" وفي رواية أخرى في البخاري كذلك نجد: "زَعَمَ عَطَاءٌ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَزْعُمُ"!! وهذه الروايات كلها عن عبيد بن عمير! فإذا كان هناك شك في سماع عطاء، فهذا يسقط الروايات من الأساس!

شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ. فَنَزَلَتْ: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إِلَى إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ" لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ "وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ" لِقَوْلِهِ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا" اهـ

فهذه الرواية تقول أن عائشة وحفصة هما من قاما بهذه الخدعة حسداً لزينب لأن الرسول كان عندها وشرب!

إلا أن البخاري يذكر لنا رواية أخرى تقول بغير ذلك، فيقول في باب: ما يُكره من احتيال المرأة مع الزوج والضرائر: "عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَيُحِبُّ الْعَسَلَ وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ أَجَازَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ لِي أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةَ عَسَلٍ فَسَقَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَرْبَةً فَقُلْتُ: أَمَا وَاللَّهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَوْدَةَ قُلْتُ: إِذَا دَخَلَ عَلَيْكِ فَإِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ فَقُولِي لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ، فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَا فَقُولِي لَهُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ فَقُولِي لَهُ جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ وَسَأَقُولُ ذَلِكِ وَقُولِيهِ أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ. (...) فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ قَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، قَالَتْ تَقُولُ سَوْدَةُ: سُبْحَانَ اللَّهِ لَقَدْ حَرَمْنَاهُ قَالَتْ قُلْتُ لَهَا اسْكُتِي." اهـ

فهذه الرواية تقول أن الرسول كان عند حفصة، فغارت عائشة، فقامت هي وسودة وصفية بهذه الحيلة، ولنا أن نتساءل: من تحايل على من؟ هل كانت عائشة وحفصة ضد زينب؟ أم عائشة وسودة وصفية ضد حفصة؟

وبغض النظر عن من قام بماذا، فإننا لا نجد في الروايتين ما يقول أن النبي حرّم على نفسه العسل، وإنما قال لا حاجة لي به، أو لن أعود إليه! وفي جميع الأحوال فإن

الموقف لا يستدعي بحال أن تنزل فيه سورة من القرآن! فهذا مما يحدث بين الأزواج، وهو أمر هين يسير!

نخرج من هذا أن القول الذي قال أن الذي حرّمه النبي على هو مارية هو القول الأرجح! ولكن هل حرّم الرسول مارية بسبب ما جاء في الرواية، من أنه كان معها في يوم غيرها؟ أم لغير ذلك؟! ننظر في سورة التحريم، لنبصر كيف ستؤكد أن الذي حرمه الرسول على نفسه هو مارية! كما أنها ستبين لنا لماذا حرّمها الرسول على نفسه!

التحريم في التحريم

لم يتناول المفسرون مطلع سورة التحريم تناولا دقيقا كافيا، لهذا لم يروا فيها محددا لما حدث بين النبي الكريم وأزواجه!

ولهذا لم يُحكّموا السورة في الروايات، وإنما جعلوها تابعا لها، لذا ننظر في هذه السورة لنعرف كيف وافقت السورة الروايات وخالفتها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ① قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ② وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ③ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ④ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ⑤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ⑥﴾ [سورة التحريم, ١-٦]

تبدأ السورة بمعاتبة النبي الكريم على استمراره[99] في تحريم ما أحل الله له، وهذه هي أول نقطة لم ينتبه إليها المفسرون، وهي أن الله تعالى قال: "ما أحل الله لك" ولم يقل: "ما أحل الله" ولا: "ما أحل الله لكم". وهذا يعني أن الشيء الذي حرمه النبي على نفسه هو شيء أحله الله له بشخصه! فما هو الشيء الذي أحله الله للنبي؟

إذا نظرنا في كتاب الله تعالى وجدنا أن الشيء الوحيد الذي أحله الله له فقط، هو: بعض أصناف الأزواج وملك اليمين، وذلك في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ... لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ ... ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٥٠-٥٢]

فيكون ما حرمه النبي على نفسه هو وطء زوج أو ملك يمين، ولقد فعل النبي الكريم هذا ابتغاء مرضات أزواجه، ولم يفعله ابتغاء مرضات زوج واحدة منهن! (لاحظ أن الله قال: أزواجك، ولم يقل: زوجك!) وهذا يدل على أنهن كلهن كن يردن منه البعد عن مارية وهجرها، وذلك لأنهن غرن من اهتمام النبي الكريم بها لمّا أنجبت له الولد! ثم يقول الله: "قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم"، فلماذا تتمسك يا محمد بتحريمك مارية، وقد فرض الله للمسلمين[100] تحلة الأيمان، والله مولى المسلمين، ينصرهم على من يعادونهم! ثم تتحدث الآية عن موقف حدث بين النبي الكريم وبعض أزواجه، وذلك أنه أسر بحديث، فأُفشي هذا الحديث!

---

[99] لاحظ أن الله تعالى لم يقل: "لم حرمت ما أحل" كما قال في نفس السورة: "وإذ أسر"، وإنما قال: "لم تحرم"، وذلك لأن الله تعالى لا يؤاخذنا بتحريم الحلال، ويعد هذا من اللغو في اليمين، واللغو في اليمين لا يؤاخذ به المسلم، فعاتبه الله على بقاءه على التحريم على الرغم من أنه في حل منه! ونطلب إلى القارئ الكريم قراءة تناولنا لموضوع اليمين على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com ففيه تصحيح لكثير من المفاهيم حول اليمين!

[100] لاحظ أن الله تعالى استعمل في هذه الآية "لكم" ولم يستعمل "لك" لأن التحلل من الأيمان مفروض لكل المسلمين في سورة البقرة، وليس النبي فقط! بينما يلومه على تحريم ما أحله له في سورة الأحزاب!

والعجب كل العجب أن المفسرين جعلوا الآيتين في موضوع واحد! على الرغم من أن الآية الأولى خاطبت النبي، والأخرى تكلمت عن النبي بصيغة الغائب، كما أنها بدأت ب "وإذ"! وهذا يعني أنها تتحدث عن موقف آخر سابق! فكيف يكون الاثنان في نفس الأمر؟!! فأظهره الله على إفشاءها الحديث، فتوعد على بعض الإفشاء وأعرض عن بعض[101] –ولقد عرّف النبي ولم يعاقب ابتغاء مرضاتها أيضا!– فالله عز وجل يذكر هذا الموقف كتأكيد لحرص النبي على ابتغاء مرضاتهن! ثم يقول الله تعالى مخاطبا أزواج النبي، أنهما إن يتوبا فقد مالت قلوبهما إلى الله مرة أخرى، بعد أن كانت مالت عن الحق بفعلهما!

وهذه الآية هي التي جعلت المفسرين يظنون أن الله تعالى يتحدث عن اثنتين من أزواج النبي! على الرغم من أن الله تعالى قال: "قلوبكما"! فهل لزوجي النبي قلوب أم قلبين؟! إن الله تعالى يخاطب بهذه الآية أزواج النبي واللاتي كن فريقين[102]، فريق حرّض وفريق استجاب، أو توافقوا على ذلك! فيخاطب الله تعالى الفريقين إن يتوبا فقد صغت قلوبهما، وإن يتفقا ويتحدا عليه فإن الله هو مولاه! ثم جبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير[103]! ثم يهدد الله تعالى أزواج النبي بأنه إذا طلقهن فسيبدله خيرا منهن، مسلمات مؤمنات ... الخ.

---

[101] التعريف يأتي بمعنى التعريف! إلا أن له معان أخرى، فإذا نظرنا في لسان العرب لابن منظور وجدناه يقول: "أَعْرَفَ فلان فلاناً وعرَّفه إذا وقَّفَه على ذنبه ثم عفا عنه ... والتعريفُ: الإعْلامُ. والتَّعريف أَيضاً: إنشاد الضالة. وعرَّفَ الضالَّة: نَشَدها ... وفي حديث عَوْف بن مالك: لتَرُدَّنّه أَو لأُعَرِّفَنَّكَها عند رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، أَي لأُجازِيَنَّك بها حتى تَعرِف سوء صنيعك، وهي كلمة تقال عند التهديد والوعيد." اهـ ونحن لا نزال نستعملها في العامية المصرية، فنقول عند التهديد والتوعد: هاعرفك!!

[102] استنتجنا أن أزواج النبي الكريم كن فريقين من هذه الآية، ووجدنا في التاريخ ما يؤيده، فيروي الإمام البخاري في صحيحه: "عنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنَّ حِزْبَيْنِ فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ وَالْحِزْبُ الْآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..." الخ

[103] أعجب ممن يصل الكلمة بما بعدها فيقول: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ... ٤﴾ [سورة التحريم ,٤] ثم يقف! ثم يقرأ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [سورة التحريم ,٤] إن الله تعالى هو مولى المؤمنين، ولا يُعطف عليه في هذه المسألة أحد! ثم إنه قد قال في أول السورة: "والله مولاكم" وهذا يفيد الحصر! وفي هذه الآية قال: "فإن الله هو مولاه"، فما فائدة "هو" إذاً، إذا كان سيُعطف عليه؟ الأصح أن تُقرأ الآية بهذا الشكل: ﴿... وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾.

وهذا دليل على أن هذا الموقف صدر من كل أزواج النبي، فإذا كان هذا الموقف قد صدر من عائشة وحفصة فقط، فما ذنب باقي نساء النبي؟ وإذا كان قد صدر بالشكل الذي ورد في الرواية، فليس على عائشة أو حفصة أي حرج أو عتب! فهل يتوعد الله أزواج النبي بالطلاق، لأن بعضهن رأين النبي مع جارية له في يومها، فحرمها النبي على نفسه؟!!

إن هذا الوعيد من الله جزاء لهن على مطالبتهن النبي ترك مارية، والوقوف صفا واحد للمطالبة بهذا الأمر! لذلك توعدهن الله عز وجل! وليس هذا القول مجرد قراءة للآيات بدون سند تاريخي! فالسند التاريخي موجود إلا أن عليه بعض الغبش، وسنقوم بإزالته!

تظاهر أزواج النبي عليه

المشهور من تاريخ النبي الكريم، أنه اعتزل أزواجه شهرا، وخرجت إشاعة تقول أن النبي طلق أزواجه أو سيطلقهن! وهذه الحادثة هي التي نتحدث عنها! والتي أُحيطت بقدر من التعمية! فالناظر في الروايات الواردة بهذا الشأن لا يجد تعليلا مناسبا لهذا الهجر، ولهذا الإقدام على هذه الخطوة الكبيرة.

فنجد الإمام الطبري مثلا يقول:"وقيل: إن هذه الآية نزلت على رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم تحذيرًا من الله نساءه لما اجتمعن عليه في الغيرة. (...) عن عمر، قال: بلغني عن بعض أمهاتنا، أمهات المؤمنين شدّة على رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وأذاهنّ إياه، فاستقريتهنّ امرأة امرأة، أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، وأقول: إن أبيتنّ أبدله الله خيرًا منكنّ، حتى أتيت، حسبت أنه قال على زينب، فقالت: يا ابن الخطاب، أما في رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم ما يعظ نساءه حتى

تعظهنّ أنت؟ فأمسكت، فأنزل الله: "عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ[104]" اهـ

فالرواية تقول أن الآية نزلت لما اجتمعت أزواج النبي عليه في الغيرة! كما يورد الإمام الطبري رواية أخرى عن عمر أنه بلغه شدة أمهات المؤمنين على النبي، وأنه أخذ يعظهن، ولم يوضح عمر –أو الرواة من بعده– فيما كانت هذه الشدة.

وهنا نتساءل: ما هي الغيرة والشدة، التي اجتمع أزواج النبي الكريم عليها؟ هل كونهن يغرن من بعض؟ ليس هذا بالجديد ولا بالداعي إلى تطليقهن! ثم كيف يجتمعن أصلا وهن يغرن من بعضهن بعضا؟ أما إذا كانت الغيرة من مارية، فإن هذا عنصر يجتمعن عليه!

ثم تأتي رواية البخاري فتؤكد هذا الأمر، وإن كانت بحاجة إلى تفكيك الاشتباك فيها حتى يظهر الدليل فيها: أورد البخاري في باب: موعظة الرجل ابنته لحال زوجها: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" حَتَّى حَجَّ وَحَجَجْتُ مَعَهُ وَعَدَلَ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِإِدَاوَةٍ فَتَبَرَّزَ، ثُمَّ جَاءَ فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْهَا فَتَوَضَّأَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" قَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، هُمَا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ. ثُمّ اسْتَقْبَلَ عُمَرُ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهُمْ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِمَا حَدَثَ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْوَحْيِ أَوْ غَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ، فَصَخِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَرَاجَعَتْنِي

[104] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المجلد الثالث والعشرون، ص.488.

فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، قَالَتْ: وَلِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُرَاجِعْنَهُ وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ. فَأَفْزَعَنِي ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهَا: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكِ مِنْهُنَّ. ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي. فَنَزَلْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ حَفْصَةُ أَتُغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: قَدْ خِبْتِ وَخَسِرْتِ، أَفَتَأْمَنِينَ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِغَضَبِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَهْلِكِي لَا تَسْتَكْثِرِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ وَلَا تَهْجُرِيهِ وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ، وَلَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ أَوْضَأَ مِنْكِ وَأَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يُرِيدُ عَائِشَةَ[105]- قَالَ عُمَرُ: وَكُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ الْخَيْلَ لِغَزْوِنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ إِلَيْنَا عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَثَمَّ هُوَ فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ الْيَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قُلْتُ: مَا هُوَ أَجَاءَ غَسَّانُ؟ قَالَ: لَا بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَهْوَلُ طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ؟ وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ حُنَيْنٍ: سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ فَقَالَ: اعْتَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْوَاجَهُ، فَقُلْتُ خَابَتْ: حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَصَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشْرُبَةً لَهُ فَاعْتَزَلَ فِيهَا وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكِ أَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ هَذَا أَطَلَّقَكُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: لَا أَدْرِي هَا هُوَ ذَا مُعْتَزِلٌ فِي الْمَشْرُبَةِ. فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْمَشْرُبَةَ الَّتِي فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِغُلَامٍ لَهُ أَسْوَدَ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ. فَدَخَلَ الْغُلَامُ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: كَلَّمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ، فَانْصَرَفْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ فَقُلْتُ لِلْغُلَامِ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ فَدَخَلَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ

---

(105) ليس هذا من كلام عمر وإنما هو إدراج صريح من الرواة، والحمد لله أنهم قالوا: يريد عائشة، ولم يدخلوها مباشرة في الرواية فيجعلونها: جارتك عائشة!

لِعُمَرَ. فَدَخَلَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا قَالَ إِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي فَقَالَ: قَدْ أَذِنَ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَرَفَعَ إِلَيَّ بَصَرَهُ فَقَالَ لَا. فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ أَسْتَأْنِسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ إِذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَنِي وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَهَا لَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ أَوْضَأَ مِنْكِ وَأَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يُرِيدُ عَائِشَةَ- فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبَسُّمَةً أُخْرَى فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ قَدْ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ. فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ أَوَفِي هَذَا أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي. فَاعْتَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَكَانَ قَالَ مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ عَاتَبَهُ اللَّهُ. فَلَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَبَدَأَ بِهَا فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ كُنْتَ قَدْ أَقْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا وَإِنَّمَا أَصْبَحْتَ مِنْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَعُدُّهَا عَدًّا فَقَالَ الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً فَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً. قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تعَالَى آيَةَ التَّخَيُّرِ فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ فَاخْتَرْتُهُ ثُمَّ خَيَّرَ نِسَاءَهُ كُلَّهُنَّ فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ" اهـ

ونبدأ في تحليل الرواية: ابن عباس يسأل عمر فيقول أنهما عائشة وحفصة، ثم ينتقل الحديث مرة واحدة! ونلاحظ أن البخاري يذكر رواية أخرى عن ابن عباس عن عمر

تبدأ ب "كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ ..." بدون الحديث عن المرأتين اللتين يُفترض أن الله قال فيهما كذا وكذا!

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا اختار ابن عباس هذا الموقف –أن يكون مختليا بعمر– حتى يسأل فيه؟ لماذا لم يسأله في أي موقف آخر؟! هل كان يعرف أنهما عائشة وحفصة؟!

لن نعلق كثيرا على هذه الجزئية، وإنما سندعو القارئ إلى مواصلة قراءة التحليل ليبصر عدم الترابط في الرواية: يبدأ عمر بحديثه عن أن أهل مكة كانوا يغلبون نساءهم، فلما اختلطت نساء مكة بنساء الأنصار قلدنهن وأخذن يراجعن رجالهن، فلمّا علم عمر أن أزواج النبي يفعلن هذا، رأى أن هذا شيئا عظيما! ثم جمع ثيابه ونزل إلى حفصة!

ثم بعد ذلك يأتيه الخبر بأن النبي الكريم طلق أزواجه! وهنا نسأل: إذا كان كل نساء النبي قد ضايقنه وأزعجنه –في مسألة ما– ما ذنب عائشة وحفصة تحديدا حتى يكونا هما اللتين فعلا هذا؟! وإذا كانا قد فعلا شيئا ما، فلماذا يكاد النبي أن يطلق أزواجه؟ لماذا لا يقتصر عليهما؟

فينزل عمر إلى حفصة مرة أخرى، ثم يسأل عن النبي فيجده معتزلا في مشربة له! ونسأل: مشربة من التي اعتزل فيها النبي الكريم؟ هذا هو بيت القصيد، فالمشربة التي اعتزل النبي الكريم فيها هي مشربة مارية! فهي المكان الذي أنزلها النبي الكريم فيها، يقول ابن سعد: "ومشربة أم إبراهيم، وإنما سميت مشربة أم إبراهيم لأن أم إبراهيم مارية كانت تنزلها، وكان ذلك المال لسلام بن مشكم النضري [106]"

[106] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الأول، ص.502.

"وكان رسول الله معجبا بأم إبراهيم، وكانت بيضاء جميلة، فأنزلها رسول الله في العالية في المال الذي يقال له اليوم مشربة أم إبراهيم. وكان رسول الله يختلف إليها هناك وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين[107]." اهـ

فلماذا يعتزل النبي الكريم في المشربة تحديدا؟ إذا كن قد ضايقنه جميعا؟ لأن نساء النبي كن قد اتحدن عليه بسبب مارية، فتركهن أجمعين ونزل عند السيدة مارية القبطية! وندعو القارئ أن يتذكر الرواية التي رواها ابن سعد، وذكرناها عن عائشة في أول كتابنا، والتي تقول فيها:

قالت عائشة رضي الله عنها: "ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة–أو دعجة– فأعجب بها رسول الله وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيتٍ لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها، حتى فرغنا لها، فجزعت فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا ثم رزق الله منها الولد وحرمنا منه[108]" اهـ

فهذه الرواية توضح أصل المشكلة، فلقد تفرغ نساء النبي لمضايقة مارية، فلم تتحمل هذه المضايقات، فحوّلها النبي إلى منزل آخر، وكان ذلك شديد عليهن لأنه كان يختلف إليها كثيرا، وخاصة بعدما أنجبت له الولد! فاجتمعن على مطالبته أن يترك مارية، ففعل ليرضيهن، فأنزل الله معاتبته على ذلك! وبعد ذلك نجد الرواية تقول أن النبي اعتزل نساءه شهرا بسبب الحديث الذي أفشته حفصة! ولست أدري ما علاقة هذا الكلام بالسابق له؟! إن عمر كان يتحدث عن أن النبي كان سيطلق أزواجه، ثم بعد ذلك نجد أن الرواية تقول: "فَاعْتَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ ..." وأن عمر نزل ليحدثه، وأنه دخل عليه وأخذ يحدثه ... إلخ

---

(107) المرجع السابق، المجلد الثامن، ص.212.

(108) المرجع السابق، ص.212-213.

فما معنى أن يعود عمر ليقول أن النبي اعتزل أزواجه بسبب الحديث؟! وما ارتباطه بالكلام السابق له؟ فهل كان الاعتزال لأفعالهن أم لحديث نشرته ابنته؟! إن هذا القول ليس من قول عمر، وإنما هو من أحد الرواة، الذين حاولوا أن يربطوا هذه الرواية بروايات عائشة وحفصة!

ولأن الرواة لم يجدوا سببا لاعتزال النبي الكريم حاولوا أن يوجدوا هذا السبب فأتوا بأعجب العجب! فنجد الرواية تقول: "وَكَانَ قَالَ مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ عَاتَبَهُ اللَّهُ" أي أن النبي اعتزلهن شهرا بسبب أن الله تعالى عاتبه في سورة التحريم على تحريم (شيء ما) مرضاة لهن! وهذا يعني أنه يكرر نفس الفعل!! فإنه قد عوتب لتحريم شيء على نفسه، فلتضايقه من هذا العتاب يحرمهن على نفسه شهرا!!

كما نجد أن الرواية جعلت آية التخيير تنزل في هذه المناسبة! مع أنها نزلت ضمن سورة الأحزاب في السنة الخامسة من الهجرة، والتي نزلت بعد غزوة الأحزاب!! وآيات سورة الأحزاب التي تتكلم عن التخيير، تتحدث عن مطالبة أزواج النبي النبي بأن يوسع عليهن في الإنفاق! فنزل قول الله تعالى يخيرهن بين متاع الدنيا وبين البقاء مع النبي! فما العلاقة بين الموقفين؟! فعلى قولهم فالنبي حرم مارية إرضاءً لعائشة وحفصة، فما المنطق أن يخير كل أزواجه بين البقاء معه وبين متاع الدنيا؟!

إن الذي ينبغي أن يلام في هذا الموقف –تبعا لرواياتهم– هو النبي، لأنه هو الذي أتى جاريته في غير يومها وفي غير بيتها! ونحن ننزه النبي الكريم عن هذا، أفلا يستطيع أن يملك إربه حتى يأتي يومها، أو –على أقل تقدير– يأخذها إلى بيتها؟

أما تبعا لفهمنا الروايات والآيات، فإن اللوم كل اللوم يقع على أزواج النبي، اللائي شغلوه بمطالبتهن وبصراعاتهن، في ذلك الوقت الذي كانت المدينة فيه في حالة قلق شديد، بسبب الأنباء عن غزو غسان للمدينة، والتي بسببها سيخرج النبي في غزوة تبوك!

لذلك استحق هؤلاء هذا الوعيد بأن يطلقهن النبي وأن يبدله الله خيراً منهن، فهذا الوعيد درس لأزواج النبي حتى لا يدخلهن العجب، فيظنن أن لهن حصانة خاصة لأنهن أزواج النبي.

ولهذا ذكر الله عز وجل امرأة نوح وامرأة لوط، فلقد كانا تحت نبيين وخانتاهما، فلم يغن هذا عنهما شيئا! فليست العبرة بمن ينتسب إليه الإنسان، وإنما العبرة بما يقول ويفعل. وبهذا يسقط استدلال الشيعة بهذه الآية والسورة على كفر عائشة، فهم يدعون أن الله ذكر امرأة نوح وامرأة لوط كمقابل للسيدة عائشة والسيدة حفصة!

فكما رأينا فليست السيدة عائشة وحفصة هما من تظاهر على النبي، وإنما كل أزواجه قد تظاهرن للمطالبة بنفس الطلب! وليس هذا الأمر من الكفر في شيء، وإلا لبيّن الله هذا، وإنما توعد بالطلاق والاستبدال، وهذا حال من يأتي بفعلة كبيرة تؤثر على الزواج وليس على الإيمان!

عائشة .. والجمل

إذا تحدث متحدث عن السيدة عائشة، فلا بد أن يعرض لمعركة الجمل، فهي من أشهر المواقف في حياتها وأكثرها تأثيرا! وبسبب موقف السيدة عائشة في هذه المعركة قيل في حق السيدة عائشة ما قيل، واختُلق في حقها الكثير والكثير من الروايات، ما بين مدح وذم وسب ولعن!

والناظر في الكتابات حول معركة الجمل يجد أن جميع من كتبوا حولها يُخطّأون السيدة عائشة رضي الله عنها، لأنها هي نفسها قد أقرت بخطئها وندمها في نهاية المعركة، وتمنت أن لو لم تكن خرجت لها أصلاً أو ماتت قبلها أو لم تُخلق أصلا! إلا أنهم يختلفون في توجيه هذا الخطأ، فمنهم من يعُد السيدة عائشة متأولة، ومن ثم يلتمس لها عذرا، ومنهم من يراها خرجت عصبية لبني قومها، وأنها هي التي حرّضت

على قتل عثمان! وأنها كانت تخطط ليتولى طلحة الحكم بعد عثمان! فلّما وصلت الخلافة إلى علي، ثارت عليه وسعت لأن تسقط خلافته. ويُشنع الشيعة على السيدة عائشة بهذه الفعلة أيما تشنيع، ويرون أنها قد كفرت بخروجها على الإمام علي، الإمام الموصى به من النبي، فلم تكتف بالتآمر لتولية أبيها بعد النبي، وإنما خرجت على الإمام علي عند توليه الحكم! ومن ثم فتحت الباب لإعطاء الشرعية للانقلابات على الحكام والخروج عليهم!

ويستند القائلون بهذا القول إلى أن العصبية القبلية عند السيدة عائشة لم تكن قد خمدت بعد، وكان خروج السيدة عائشة انتصارا لأقاربها، وكذلك لوجود عداوة مبيّتة بين السيدة عائشة والإمام علي، بسبب الكلمة التي قالها في حادثة الإفك!

فعلى سبيل المثال نجد أن السيد نبيل فياض يذكر عددا من الروايات عن السيدة عائشة، تقول أنها حرضت على قتل عثمان، ويقول علماء أهل السنة أنها ضعيفة، مثل الرواية التي تقول: "اقتلوا نعثلاً فقد كفر!" والرواية عجيبة وعلامات الوضع جلية في متنها، فهو مخالف للقرآن العظيم، ولكنه لا يلتفت لهذا، ويصر على اعتباره هو الصحيح[109]!

ثم يذكر عددا آخر من الروايات، والتي تقول أنها حزنت على قتله ورثته! فيرفضها ويصحح الروايات الأولى ويعللها أيضا، فيقول: "تحفل الروايات بمبررات وآراء حول هذا التبدل المفاجئ –غير العصي على الفهم– في موقف عائشة. يقول ابن سعد في طبقاته: إن عائشة رثت عثمان بعد قتله، فقالت: «تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه، كما يذبح الكبش. فقال لها مسروق: هذا عملك، أنتِ كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه! فقالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به

[109] على الرغم من شهرة هذه الرواية وانتشارها، واعتماد كثير من المتهجمين عليها، فإن رواية " أقتلوا نعثلا فقد كفر " مصدرها رواية واحدة ضعيفة منقطعة عن سيف بن عمر الأخباري المطعون فيه، رواها الإمام الطبري و أخذها عنه البقية ممن أتى بعده بدون تمحيص ولا نظر في السند! معتمدين على ذكرها في كتبٍ كثيرة! والراجح أن أول من قالها هو: جبلة بن عمرو الساعدي، كما في تاريخ الطبري ثم رددها بعده: جهجاه الغفاري، ثم انتشرت بعد ذلك حتى نُسبت إلى السيدة عائشة!

الكافرون، ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا! قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها». لماذا كانت عائشة مسكونة، وهي أم المؤمنين والمرجع الكبير في أمور الدين، بكل هذا العداء لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وهو صهر النبي وابن عمه؟

يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: «أوّل بدء الضغن، كان بينها وبين فاطمة (ع)، وذلك لأن رسول الله (ص) تزوجها عقب موت خديجة... والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة... وإذا كانت قد ماتت، ورثت ابنتها تلك العداوة ... مال [إلى عائشة] زوجها وأحبّها، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله (ص) فاطمة إكراماً عظيماً... فكان هذا وأمثاله يزيد الضغينة عند الزوجة. ثم حصل عند بعلها [علي] ما هو حاصل عندها... وكانت تكثر الشكوى من عائشة... وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها، كانت تشكو عائشة إلى أبيها، [أبي بكر]، فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثر ما، ثم تزايد تقريظ رسول الله (ص) لعلي (ع) ... فأحدث ذلك حسداً له وغبطة في نفس أبي بكر منه، وهو أبوها، وفي نفس طلحة، وهو ابن عمها؛ وكانت تجلس إليهما، وتسمع كلامهما، وهما يجلسان إليها، ويحادثانها، فأعدى إليها منهما كما أعدتهما..." اهـ[110]

وكما رأينا فنبيل فياض يعتمد المراجع الشيعية ذات الروايات الضعيفة، ويراها المصادر المعتمدة! ولست أدري لماذا لم يقل لنا لماذا لم تكره فاطمة سودة، وقد تزوجها النبي قبل عائشة؟! ثم ما الدليل على ما يقوله ابن أبي الحديد؟ إن كل هذا من علم الغيب، فمن أدراه أن ما قاله هذا حدث بالفعل؟!

إن نبيل فياض –وأمثاله من العلمانيين والملاحدة– يسلمون بصحة الروايات القادحة، ويرفضون الروايات المادحة أو المُصوِّبة، ويرونها مختلَقة للتبرير! ولست أدري ما المانع أن تكون الروايات التي يستندون إليها مختلقة للتشويه؟! وما المانع فعلا أن

(110) نبيل فياض، أم المؤمنين تأكل أولادها، ص. 93.

يكون ما قاله هنا –معترضا عليه– هو الصواب، وأنه كُتب فعلا على لسان السيدة عائشة؟!

أما نحن فنرى أن أهل بيت النبي الكريم، والسيدة عائشة الفقيهة العالمة تحديدا، أكبر من هذه الصغائر، ومن ثم فهي ليست الدوافع التي تحركهم وتدفعهم إلى القتال! وإنما لكل منهم وجهة نظره في إدارة الأمور! ولكلٍ اجتهاده!

ماء الحوأب

يتصيد الشيعة الروايات التي تقول أن عائشة خرجت انتصاراً للعصبية، وأنها كانت تعرف أنها على غير صواب، وعلى الرغم من ذلك واصلت المسير إلى ما عزمت عليه، ومن أمثال ما يستندون إليه الرواية الشهيرة: ماء الحوأب.

وملخص الرواية أن النبي الكريم تنبأ أن هناك واحدة من أزواجه ستنبحها كلاب الحوأب، وأنها ستكون ناكبة عن الصراط! وأن السيدة عائشة وهي في طريقها إلى البصرة نبحتها كلاب الحوأب! ولم ترجع! كما جاء في مسند أحمد: "حَدَّثَنَا قَيْسٌ قَالَ: لَمَّا أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ بَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتْ الْكِلَابُ، قَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ. قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا أَنِّي رَاجِعَةٌ. فَقَالَ: بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا: بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ فَيُصْلِحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتَ بَيْنِهِمْ. قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ" اهـ

فيقولون: أي عذر للسيدة عائشة في مخالفتها أمر النبي، ألم يحذرها النبي قبل وفاته؟ وعلى الرغم من ذلك تصر على غيّها وضلالها! فنقول: بادئ ذي بدء الرواية معلولة سنداً، كما أنها مردودة متنا! وتُناقض الرواية الواردة عن السيدة عائشة في المراجع الأكثر صحة!

فإذا نظرنا في البخاري نجده أورد رواية عن السيدة عائشة، تقول بنقيض هذا: "عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهْ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ:"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"، "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ "وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا" وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ" الْآيَةَ. وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ" اهـ

فإذا كانت السيدة عائشة تنفي أن يكون النبي الكريم يعلم ما في غدٍ! وتقول أن من يقول هذا كاذب، فكيف تقول أن النبي الكريم تنبأ عن ماء الحوأب؟!

إن هذا القول لا يمكن أن يصدر من السيدة عائشة، وإنما من اختلاقات بعض الرواة الكارهين لها، ثم لماذا لم يذكر النبي الكريم، أيهنّ تنبحها كلاب الحوأب؟! لماذا لم يقل أن فلانة ستنبحها كلاب الحوأب؟!

إن هذا راجع إلى خيبة المختلق! ورغبته في تشويه صورة عائشة، بالقول بأنها كانت تعلم أنها مخالفة لأمر النبي العظيم! وربما حدث فعلاً أن السيدة عائشة أرادت أن ترجع وهي في الطريق لمّا وصلت لماء الحوأب، فنصحها من معها بالمسير للإصلاح، فواصلت، فزيدت النبوءة من أحد الرواة لتبرير رغبتها في الرجوع، بدلاً من أن تكون قد رأت أن من الأفضل عدم المواصلة!

وهكذا سيجد المرء دوما روايات، قلّت أو كثرت، يستدل بها كلا الطرفين! والروايات بهذا الشأن كثيرة، ولكي يكتب المرء فيها فإن الأمر يحتاج إلى كتاب كامل، وليس إلى بضع صفحات في كتاب واحد، لذا فإننا سنختصر على القارئ ونقول له: لا يستطيع أحد أن يعطي حُكما نهائيا في هذه المسألة، لأنه يعتمد على دخيلة النفس، ولا

يستطيع أحد أن يجزم إذا ما كانت السيدة عائشة قد خرجت عصبية لقومها، أو نصرة لهيبة الدولة الإسلامية! وكل طرف يستنتج من خلال الروايات الموضوعة أمامه، والتي يشكل من خلالها ملامح الشخصية!

ومن خلال ملامح الشخصية التي تكونت لنا عن السيدة عائشة، تلك العاقلة المدافعة عن دين ربها وأحاديث زوجها، والتي تتسم بحدة الطباع، فإننا نرى أن السيدة عائشة خرجت مطالبة بثأر عثمان، للحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية! لأنه إذا مرّ الأمر هكذا بكل بساطة بدون أن يُقتص من قتلة الخليفة، فلن تحتاج الدول بعد ذلك إلى الثورة أو إلى إرسال الجيوش، وإنما سيكفي الأمر أن يرسلوا بعض الثوار إلى مقر حكم الخليفة فيقتلونه، وينتهي الأمر! لقد رأت السيدة عائشة الأمر كرِدة جديدة ولا بد من وأدها في مهدها، حتى لا تستفحل، لذا تحركت للمطالبة بدم عثمان!

المشهد بعد عثمان

كما قلنا، لكي يخرج المرء بتصور ناجع، يشعر معه باليقين حول هذه المسألة فهو بحاجة إلى أن يقرأ الكثير والكثير من الروايات حول هذه المسألة[111]، ويرجح منها ما يرتاح إليه فؤاده، بعد أن يُعمل فيها آليات النقد العقلي ... قبل التاريخي!!

وحتى لا يقول قائل: ولماذا تفعل عائشة وغيرها هذا، أليس هناك حاكم مسئول عن الدولة الإسلامية، ينبغي أن يقوم بهذا الأمر؟! إن هذا نوع من الفوضى، بعدم الخضوع لتطبيقات الدولة للأحكام! نقول: نتفق مع القائل تمام الاتفاق إذا كانت الأمور تسير بشكل مألوف في الدولة الإسلامية، وكان هناك حاكم مستقل، يدبر الأمور بإرادته المستقلة، ولكن هذا لم يكن موجودا بحال!

---

[111] ندعو القارئ لقراءة "الفتنة الكبرى" للدكتور راغب السرجاني، والذي فصّل فيها تفصيلا طيبا حول هذه المرحلة ، بأسلوب معاصر جيد!

وحتى يفهم القارئ لماذا خرجت عائشة نقدم له ملخصا سريعا للحال بعد مقتل عثمان، ولوضع علي في الدولة: بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، سيطر الثائرون على المدينة، وكان عددهم يقدر بما يقارب العشرة آلاف من البصرة والكوفة ومصر، ولم يكن قد اختير خليفة بعد، وكان أحد زعماء الفتنة "الغافقي بن حرب" يصلي بالناس في مسجد النبي صلي الله عليه وسلم. ثم اختير الإمام علي ليتولى الخلافة، وكان قتلة عثمان هم من عملوا على توليته هذا المنصب وباشروا هذه المهمة!

وبعد تولي علي الخلافة كانوا لا يزالون المسيطرين على المدينة، وكانوا من قواد جيش علي ومساعديه، كما كان لهم الكثير والكثير من المساندين في بلدانهم! وحاول الإمام علي تهدئة الأجواء، فكان أن عزل كبار الولاة، الذين اتخذهم الثوار ذريعة للطعن في عثمان، فعزل معاوية بن أبي سفيان عن الشام، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح عن مصر، وعبد الله بن عامر عن البصرة، وأبا موسى الأشعري عن الكوفة. ولقد حاول ابن عباس أن يُثنيه عن هذه الخطوة، فطلب إليه أن يؤجلها ولو قليلا، إلا أن الإمام علي لم يستجب له!

وهنا لا بد من التساؤل: ألا يبدو من هذه الصورة أن علياً ليس هو الحاكم الفعلي للمدينة ولا للأمة الإسلامية، وأن الثوار هم الذين يتحكمون في الأمة من خلاله؟! هذا مع إحسان الظن بعلي رضي الله عنه، فمن الممكن أن نسيء الظن ونشوّه الوضع ونقول، أن علي هو من خطط لهذا كله، لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة، -كما تُجمع كل المصادر التاريخية- وأنه هو الذي راسل الثوار واستقدمهم بسبب عدم رضاه عن أفعال عثمان وأنه شعر أن الدولة الإسلامية تنحرف عن الطريق الذي خطه النبي، وأنه لا بد من القضاء على عثمان! وبعد موت عثمان قام بتمثيلية من يرفض الخلافة ثم تولاها! وبعد ذلك أبقى الوضع على ما هو عليه، وجعلهم قواداً له مكافئة على ما فعلوا!!

ولا يمكن لأحد أن يدعي أن هذا القول متكلَف! فهو يرى أن فعل علي كان انتصاراً للمبادئ وللدين، ولست أدري لماذا لم يقل به أحد؟! لماذا إلقاء اللوم دوماً على عائشة؟ لماذا هي التي تحيك المؤامرات؟ لماذا هي التي تحكمها وتحركها العصبية؟! ونعود فنقول: إننا لا نقول بهذا القول ونرفضه، فكما أحسنّا الظن بعائشة نحسن الظن بعلي، ولا نتهم الناس إلا بأدلة قاطعة كثيرة لا جدال فيها!

فإذا قرأنا الوضع من هذه الزاوية فهمنا لماذا كان معاوية وغيره يطالبون بالاقتصاص من قتلة عثمان! ولماذا تحركت عائشة وبعض الصحابة بمفردهم بدون أن ينتظروا موافقة علي، لعدم رضاهم بما يفعله، لأنهم رأوا أنه مُسيّر وليس مُخيرا! والحق يُقال، فلم يكن الأمر باليسير على الإمام علي، فكيف يستخرج القتلة من وسط هؤلاء الآلاف الكثيرة، كما أنهم موجودون بين قوات وقواد جيشه؟! كما أن هناك الكثير والكثير من المؤيدين لهم، ولو أُعدم هؤلاء فسيرون أنهم مصنّفين كخارجين على الدولة، ومن ثم سيقتلون عليا، ويظل الأمر فوضى! ثم كيف يُعدمهم أصلا، من أين له القوة لذلك؟!

والشائع من أقوال المؤرخين أن عليا كان يرى أن يؤجل هذا الأمر حتى يستقر الحال، ثم يبدأ في الاقتصاص! إلا أننا نرى أن علياً لم يكن سينفذ القصاص فيهم، لأنه كان في وضع لا يُحسد عليه، فلم يكن يعرف كيف سيقتص من قتلة عثمان، لأن الطريقة الوحيدة للاقتصاص منهم هي الاغتيال! وهذا ما لم يكن الإمام علي سيلجأ إليه، ولا يمكنه أن ينتظر سنين طويلة حتى ينسى الناس، لأنه سُيفهم أنه لا يريد الأخذ بالثأر! ومن ثم فلقد كان الخيار الوحيد أمام علي هي التهدئة!

إلا أن كبار الصحابة أمثال عائشة وطلحة والزبير لم يروا هذا الرأي، وإنما رأوا حاكما يُسيّره الثوار، ورأوا أن دم الحاكم السابق وهيبة الدولة الإسلامية ستضيع هدرا! وأن الحاكم الذي يضيع حداً من حدود الله، -لأنه لا يستطيع إقامته- لا تقوم له بيعة! لأنه ليس بحاكم حقيقي!

ومن ثم يمكننا القول أنهم اجتمعوا على المطالبة بدم عثمان كمطلب يمكن جمع الجماهير حوله من أجل إنقاذ الدولة الإسلامية والقضاء على الثورة! ومن ثم رأوا أن المسئولية الملقاة على عواتقهم -ككبار أصحاب الحل والعقد-تحتم عليهم ألا يظلوا مكتوفي الأيدي وأن يتحركوا!

ولا بد أن نُقر أنهم لم ينظروا إلى العواقب التي يمكن أن تترتب على خروجهم هذا، وهذا هو دوما حال من بخارج السلطة، يظن أن الحاكم مُقصِّر ويطالبه بالمطالب الكثيرة، ويظن أنه يتهاون أو يعبث! ولو أُسند إليه الأمر لتصرف نفس التصرف!

وفي الأثناء التي كان الإمام علي يراسل معاوية ليبايعه وليقر له بالخلافة ومن ثم ليعزله! كانت عائشة تجتمع في مكة مع طلحة والزبير والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر -والي البصرة المعزول- وغيرهم، ويتشاورون، كيف يقضون على الثورة والثوار، وكيف يقتصون من قتلة عثمان، وكيف يعيدون الاستقلالية إلى عاصمة الدولة الإسلامية .. المدينة!

ويدعي بعض الكاتبين في التاريخ أن طلحة والزبير وعائشة كانوا على خلاف شخصي مع علي، وأنهم كانوا غير راضين بحكومته، وأنهم كانوا يريدون خلع عليّ وتوليته طلحة مكانه! وأن هذه التحركات كانت لهذا الغرض! ويدعي آخرون أن طلحة والزبير تحركوا لمّا أنقص علي أعطيتهم!

ويعجب المرء من هذه الأقوال، فإذا كان الزبير وطلحة قد رفضوا ترشيح عمر لهم كخلفاء من بعده، فلماذا يبحثون الآن عن المنصب؟ كما أن الذين سبقوا إلى الإسلام وضحوا بكل شيء -في شبابهم- من أجله لا يمكن أن يبيعوا كل هذا من أجل إنقاص عطاياهم، بعد أن شابوا وفترت الشهوات! كما أن هذه العطايا لم تكن ستقدم أو تؤخر كثيرا بالنسبة لهم، فلقد كانوا على قدر كبير من الغنى، فحتى لو أُلغيت العطايا أصلا فلن يؤثر هذا فيهم إلا تأثيراً معنويا!

إن خروجَ عائشة وطلحة والزبير كان بعد أربعة أشهر تقريبا من مقتل عثمان، فهل كان أول قرار اتخذه علي بعد أن تولى الحكم هو إنقاص العطايا؟! لقد ضاعت هذه الأشهر الأربعة في إتمام البيعة ولقاء الوفود والنظر في أحوال الولاة، واتخاذ القرارت التنظيمية الجديدة، فما المبرر للخروج؟!

يدّعي بعض الكتّاب في التاريخ أن خروج طلحة والزبير كان لأنهم رأوا أن عليا سينتهج سياسة تقشفية تضييقية، لن تتناسب مع الانفتاح الاقتصادي الذي قد حدث في عهد عثمان، والذي أدى إلى تكدس الثروات! ومن ثم كانت هذه المعركة صراعا بين الرأسمالية –متمثلة في تيار عائشة وطلحة والزبير– والاشتراكية –متمثلة في على ومن معه–. إلا أن هذا القول ينقضه كثير من الأدلة، أولها سرعة خروج طلحة والزبير، فلماذا لم ينتظرا حتى يتبين لهم أي سياسة سينتهجها علي؟! إن الرأسمالي لا يخاطر هذه المخاطرة الكبيرة إلا في حالة التأكد من الخسارة!

إن هذا القول قول مثالي وهمي، يريد إرجاع الصراع إلى مذاهب ومبادئ لم تكن قد نشأت أصلا! ولا ينظر إلى واقع هذه الفترة، فإذا كان علي لا يستطيع الاقتصاص من قتلة عثمان، ومعاوية لا يسلم له بالخلافة، ويفكر في الحركة إليه، فهل يفتح على نفسه أبواباً جديدة، بعداء أصحاب الثروات الضخمة ومن يساندهم؟!

لم يكن هذا ليخطر ببال الإمام علي في تلك المرحلة بحال، كما لم يكن يخطر ببال كبار الصحابة السابقين إلى الإسلام، فمن قال أن الصحابة كانوا يفكرون هذا التفكير المادي الصِرف؟ ليس الذين باعوا الدنيا في شبابهم هم الذين يشترونها في شيخوختهم!

بعد هذا الاستطراد نعود إلى الأحداث، فنقول: في الاجتماع الذي كان بين عائشة وطلحة والزبير ... إلخ، اقتُرحت بعض الاقتراحات، فرأى بعضهم تجهيز جيش والذهاب إلى المدينة، لأن علي لا يستطيع أن يقاتل الثوار بمفرده، ومن ثم القضاء عليهم وتحرير علي!

ورأى آخرون الذهاب إلى الشام ليستعينوا بمعاوية، في هذا الأمر، ورأى آخرون الذهاب إلى البصرة، فيقتلوا قتلة عثمان، ثم يتزودون بالرجال ويعودون إلى المدينة فيحاصرون القتلة فيها فيقتلونهم!

ووقع الاختيار على البصرة لأن طلحة كان له هناك كلمة، كما أن الحاكم السابق كان معهم، ومن ثم يستطيعون تنفيذ ما أرادوا! وتخرج السيدة عائشة إلى البصرة، وهناك يحدث ما يحدث وتقع معركة الجمل! والتي سُميت بهذا الاسم لأن السيدة عائشة كانت في هودج على جمل، اسمه: عسكر! ونشبت المعركة وتركز الصراع حول الجمل!

ولا تهمنا التفاصيل التي كانت، وأدت إلى نشوب هذه المعركة! فالذي يهمنا في المقام الأول هو أن السيدة عائشة خرجت دفاعا عن هيبة الدولة، لأنها رأت أن علياً حاكم صوري في المدينة، وأن قتلة عثمان هم من يديرون الدولة، ورأت أنه لزامٌ القضاء على هذه الثورة لسد باب الفتنة، وحتى لا تكون ردة جديدة!

وأعجب ممن يدعي أن عائشة هي من فتح باب الثورات والانقلابات والخروج على الحاكم، كأنها هي التي بدأت هذا الأمر، ولم يكن الذين قتلوا عثمان هم من فعل هذا، إن حركة عائشة كانت رد فعل وليس إنشاء فعل! وشتان بين من يخرج على ثُوار، وبين من يخرج على حاكم شرعي!

لقد تحركت عائشة، والتي لم تكن تعرف قدْر الثوار ولا قوتهم ولا قدر من يساندونهم، وهي تظن أن الأمور على سابقتها، ولم تكن قد استوعبت أن الدولة لم تعد تلك الدولة الصغيرة وإنما تشعبت بشكل كبير، وأن موازين القوى لم تعد كما كانت، وأن مواطن الثقل قد اختلفت كثيرا! وفي نهاية المطاف اقتنعت أن الصواب مع علي فيما قال وفعل، فعادت إلى المدينة نادمة أشد الندم على ما فعلت!

عدد قتلى معركة الجمل

يُضخِّم المشنعون على عائشة خاصة –والطاعنون في الصحابة عامة– عدد قتلى معركة الجمل بصورة كبيرة، وغرضهم من هذا تشويه صورة السيدة عائشة بالقول بأنها كانت سبباً لمقتل آلاف بل عشرات آلاف من المسلمين!

وليس الأمر كذلك، فلم يكن عدد الجيشين أصلا بهذا الحجم الكبير، حتى يُقتل منهما هذا العدد العظيم! إن الأمر لا يزيد عن مبالغات بعض المؤرخين المتعصبين أو غير الناقدين، الذين ينقلون كل ما يصلهم! وقولنا أن العدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل أقل من هذا بكثير، لا يعني أننا نقلل من قيمة هذا الحدث أو بشاعته، فقتل إنسان مؤمن واحد أمر كبير، فما بالنا إذا وصل الأمر إلى قتل مئات من المسلمين يتراوح عددهم بين الثلاثمائة إلى التسعمائة!! إنه أمرٌ ليس بالهين على أي حال.

والمشكلة الكبرى أن كثيراً ممن تعرضوا لهذه المعركة من المستشرقين وغيرهم من العرب والمسلمين، لم يتناولوا أحداثها بالتحليل الكافي، فلم يزيدوا عن أنهم اختاروا من الأرقام المتاحة أمامهم ما رأوه أكثر واقعية .. أو إثارة! ثم عرضوه في كتبهم! وكالعادة فإن عامة المستشرقين كانوا يميلون إلى اختيار الروايات التي تزيد من عدد القتلى، ليظهروا كمّ البشاعة التي حدثت بسبب أم المؤمنين عائشة! وكمّ التوحش والهمجية عند المسلمين!

فتأكد الأمر عند قارئ العصر الحديث وأصبح كثرة عدد القتلى ومسؤولية عائشة عنه من المسلَّمات، ويعلق الدكتور عبد المنعم الحفني على هذه النقطة، بعد أن يورد خبراً شهيرا يُحمل أم المؤمنين الذنب عن هذه المعركة –وهو الذي استند إليه نبيل فياض عند تسمية كتابه: أم المؤمنين تأكل أولادها–: "عن بكر بن أبي شيبة قال: دخلت أم أوفى العبدية على عائشة بعد وقعة الجمل، فقالت لها: يا أم المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً؟ قالت: وجبت لها النار. قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفاً في صعيد واحد؟ قالت عائشة: خذوا بيد

عدوة الله! (ابن عبد ربه الأندلسي) (واضح أن القياس لا يستقيم، والمسألة قائمة على المغالطة، فعائشة لم تقتل عشرين ألفا، ولم تتسبب في قتلهم، وإنما امتثلت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكأنني أمام مدرستين في الفكر الإسلامي: مدرسة ترى للمرأة أن تكون بلا دور خارج البيت، وأخرى تقول أن ما أوجبه الله على الرجال أوجبه على النساء ومن ذلك الجهاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم كيف يُقتل عشرون ألفاً وعدد من كان مع عائشة ليس أكثر من ثلاثمئة، وكانت الحرب جِلادا بين أفراد، وكان مدارها جمل عائشة لكي يأسروها، وقد قُتل من أخذوا بخطام الجمل، وعددهم في رأي سبعين، وفي رأي أربعون، وللأسف لم يتناول عباس العقاد ولا طه حسين، ولا بنت الشاطئ، ولا عبد الصبور شاهين هذه الفرية بالتمحيص والتحليل ثم التكذيب، وكل ما كان يعني هؤلاء "الأنثى" في عائشة!!!)" [112] اهـ

ولا يمكن لأحد أن يحدد عدد القتلى في هذه المعركة أو في أي معركة من معارك الزمن الغابر، لأنه لم يكن هناك إحصاء رسمي للجنود وللميت منهم أو المفقود! وإنما كل ما هنالك أن بعض من حضر المعركة يُخمن عدد القتلى من طرفه أو من كلا الطرفين، ثم يحدث بهذا التخمين بعد المعركة. لذلك من المنطقي أن تختلف الآراء القائلة بعدد القتلى، فكل رأي جاء من مخمن ومُقدِّر، هذا إذا توفرت الموضوعية في المُخمّن، أما إذا كان يميل إلى المبالغة –وما أكثر من يعشقون ذلك– فمن المتوقع أن تزيد الأرقام كثيرا! هذا إذا غضضنا الطرف عن الكذب المتعمد واختلاق القصص والأرقام من بعض المخبرين. لذلك، فلكي يصل المرأة إلى تخمين أو تقدير راجح لعدد القتلى في معركة ما، فعليه أن يرجح أولاً عدد أفراد كل جيش، –وهو أمر كذلك يعتمد على تخمين الرواة!– وكذلك المكان الذي وقعت فيه المعركة، كم كان يستوعب من المقاتلين، وكذلك الفترة الزمنية التي استغرقتها المعركة! وغير ذلك من المُرجِحات، التي ترجح قولا من الأقوال، أو حتى تقول بقول جديد مخالفٍ لكل ما

[112] عبد المنعم الحفني، موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، ص: 856.

قيل! فما يفعله المؤرخ هو عين ما فعله المخبر الأول عن الحدث، فهو كذلك يُخمّن ويستنتج، إلا أن المفردات والمعطيات التي توفرت للمؤرخ أفضل بكثير من التي توفرت للمخبر!

ومن الأقوال الرائعة التي ناقشت أعداد قتلى هذه المعركة بموضوعية، ما قاله الدكتور علي الصلّابي عند تعرضه لهذه المسألة، حيث قال: "أسفرت هذه الحرب الضروس عن عدد من القتلى اختلفت في تقديره الروايات، وذكر المسعودي أن هذا الاختلاف في تقدير عدد القتلى مرجعه إلى أهواء الرواة. فيذكر قتادة أن قتلى يوم الجمل عشرون ألفًا. ويظهر أن فيها مبالغة كبيرة، لأن عدد الجيشين حول هذا العدد أو أقل، أما أبو مخنف الرافضي الشيعي، فقد بالغ كثيرًا – بحكم ميوله – وقد أساء من حيث يظن أنه أحسن؛ إذ ذكر أن العشرين ألفًا هم من أهل البصرة. وأما سيف فيذكر أنهم عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي –رضي الله عنه– ونصفهم من أصحاب عائشة، رضي الله عنها، وفي رواية أخرى قال: وقيل خمسة عشر ألفًا، خمسة آلاف من أهل الكوفة، وعشرة آلاف من أهل البصرة، نصفهم قُتل في المعركة الأولى ونصفهم في الجولة الثانية. والروايتان ضعيفتان للانقطاع وغيره، وفيهما مبالغة أيضًا. ويذكر عمر بن شيبه بسنده أن القتلى يزيدون على ستة آلاف، إلا أن الرواية ضعيفة سندًا، أما اليعقوبي، فقد جاوز هؤلاء جميعًا؛ إذ وضع عدد القتلى اثنين وثلاثين ألفًا، وهذه الأرقام مبالغ فيها جدًا، (...) أما عن العدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل فقد كان ضئيلاً جدًا للأسباب التالية:

– قصر مدة القتال؛ إذ أخرج ابن أبي شيبه بإسناد صحيح، أن القتال نشب بعد الظهر فما غربت الشمس وحول الجمل أحد ممن كان يذب عنه.

– الطبيعة الدفاعية للقتال حيث كان كل فريق يدافع عن نفسه ليس إلاّ.

– قياسًا بعدد شهداء المسلمين في معركة اليرموك «ثلاثة آلاف شهيد»، ومعركة القادسية «ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد»، وهي التي استمرت عدة أيام، فإن العدد

الحقيقي لقتلى معركة الجمل يُعدّ ضئيلاً جدًا، هذا مع الأخذ بالاعتبار شراسة تلك المعارك وحدَّتها، لكونها من المعارك الفاصلة في تاريخ الأمم.

– أورد خليفة بن خياط بيانًا بأسماء من حُفظ من قتلى يوم الجمل فكانوا قريبًا من المائة، فلو فرضنا أن عددهم كان مائتين وليس مائة، فإن هذا يعنى أن قتلى معركة الجمل لا يتجاوز المائتين. وهذا هو الرقم الذي ترجَّح لدى الدكتور خالد بن محمد الغيث في رسالته: «استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري– دراسة نقدية[113]»" اهـ

فنخرج من هذا بأن عدد قتلى المعركة كان جد قليل، وأنه لم يصل إلى الألف بحال، وأن التهويل والتضخيم في عدد قتلى هذه المعركة هو من المستشرقين وبعض الشيعة، ومن سار على دربهم من غير الممحصين، والذين ينقلون الأخبار من كتب التاريخ، بدون مقارنة ولا نظر للمشهد العام الذي وقعت فيه!

الشيعة و .. وقرن في بيوتكن

من أكبر المطاعن التي يطعن بها الشيعة في السيدة عائشة قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ... ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأحزاب ,٣٣] فيقولون أن الله تعالى أمر نساء النبي بالقرار في البيوت، فكيف تخرج لقتال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؟!

وكما قلنا سابقا، فالسيدة عائشة لم تخرج لقتال علي، ولا للتمرد عليه، وإنما خرجت محاولةً القضاء على الثوار! والرد على هذا القول يكون بالتساؤل: هل الأمر بالقرار يعني عدم الخروج أبدا؟!

[113] علي الصلابي، أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص. 497–499.

إذا كانت الإجابة بنعم، فإن هذا يعني أن الله عز وجل قد عاقبهن عقابا شديدا، هو نفس عقاب السحاقيات: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [سورة النساء, ١٥]

فلقد جعل الله عقاب السحاقية أن تمسك في البيت حتى يتوفاها الموت! فهل الأمر كذلك مع أمهات المؤمنين؟! بالطبع لا، فإن الرب الرحيم لم يكن يعاقب أمهات المؤمنين في هذه الآيات وإنما يأمرهن بالتزام الطريق القويم، الذي يصلح حالهن مع النبي، فأمرهن بإطاعة الله ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وذكر آيات الله والحكمة!

وحتى لا يقول قائل أن هذا ليس بالعقاب وإنما هو الهدي المناسب لأزواج النبي، نقول: لقد نهى الله نساء النبي عن التبرج تبرج الجاهلية الأولى، وهذا يعني أنهن سيخرجن، لأنه لا تبرج إلا خارج البيت! ولو كان الأمر بالقرار يعني عدم الخروج لما كان هناك فائدة في النهي عن التبرج! فالله عندما أمرنا باجتناب الخمر لم ينهنا عن شربها، لأنه من غير الممكن أن أشرب ما لا أقرب! فكذلك لا فائدة من النهي عن التبرج لمن لا تخرج من البيت، وإنما تُنهى من تخرج فعلا.

وهذا ما كان من واقع حال أزواج النبي، فلم يكن محبوسات في البيوت، فهذا عقاب شديد لا يُحتمل[114]! وإنما كن يخرجن بمفردهن ويخرج النبي الكريم معهن! ولقد حججن مع النبي الكريم، وهذا يعني أنهن سافرن من المدينة إلى مكة! ولكي نفهم هذا الأمر على حقيقته لا بد أن ننظر في السياق الذي جاء فيه، فإذا نظرنا في الآية السابقة لها، وجدنا الله تعالى يقول: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ٣٣﴾ [سورة الأحزاب, ٣٢-٣٣]

(114) قد تكون المرأة قليلة الخروج فعلا، ولا يؤثر هذا فيها، أما أن تعلم أنها لا تستطيع الخروج فإن هذا عقاب ما بعده عقاب!

فالله تعالى يقول لنساء النبي أنهن لسن كأحد من النساء، وهذا يعني أن لهن بعض الأحكام الخاصة، راجعة إلى مكانتهن الاجتماعية، ومن هذه الأحكام أن يقررن في بيوتهن، أي أنهن يجب عليهن أن يترفعن عن المهنة.

فليس لأزواج النبي الكريم أن يعملن، وإنما يجلسن معززات مكرمات في بيوتهن، ويكون هذا غالب حالهم، فلا يكنّ أكثر الوقت خارج بيوتهن، وإنما مقيمات في بيت النبي، فإذا خرجن لحاجة يخرجن وعليهن ثياب الحشمة، فلا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى!

وبهذا نرى أنه ليس على السيدة عائشة حرج فيما فعلت، فهي لم تخالف أمر الله، فهي لم تخرج لتلهو وإنما خرجت لتدافع عن دولة الإسلام ولتقضي على الثورة!! فإذا كان من لا يزال حياً من أزواج النبي قد رضي بالسكون ولم يتحرك، فإن نفس عائشة الأبية لم ترض أن تكون من الخاملين القاعدين الناقدين، وإنما دعتها للحركة وللإصلاح ما استطاعت!

أهل البيت

بعد أن ناقشنا استدلال الشيعة على مخالفة عائشة لأمر الله، وبيّنا أن لا مخالفة، نتوقف مع الجزء الأخير من نفس الآية: آية القرار.

فالناظر يجد أن الشيعة يأخذون الجزء الأول منها ويجعلونه في أزواج النبي، فإذا وصلوا إلى آخرها جعلوه في علي وفاطمة والحسن والحسين، واستبعدوا أزواج النبي الكريم! ومستندهم الرئيس في هذا حديث الكساء الشهير –المكذوب– والذي يدعون تواتره! والذي يقول أن النبي الكريم استبعد أزواجه من أهل البيت، وجعلهم: علي وفاطمة والحسن والحسين!

والحديث ورد عن طريق أم سلمة، إلا أن العجب كل العجب أنه ورد في رواية عن طريق عائشة، فيروي الإمام مسلم في صحيحه في باب: فضائل أهل بيت النبي: "قَالَتْ عَائِشَةُ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ قَالَ: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا[115]" اهـ

وهكذا أصبح هؤلاء هم أهل البيت! لذا ننظر في الآية لنبصر من هم أهل البيت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [سورة الأحزاب, ٣٣]

فيقول الشيعة أن الله تعالى لم يقصد أزواج النبي الكريم ب: أهل البيت، لأنه لم يستعمل ضمير المؤنث المستعمل في الآية والآيات السابقة والتالية، فلم يقل: "عنكن"، وإنما قال: "عنكم" وهذا ضمير يفيد أن الداخل تحته ذكور، وهم: علي والحسن والحسين وفاطمة!

ولست أدري كيف نفهم الآية على قولهم، فهذا معناه أن الله يأمر نساء النبي بالقرار في البيوت، وألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ... إلخ، لأنه يريد أن يُذهب الرجس عن على وفاطمة والحسن والحسين؟!

وأهل السنة يقولون أن المراد من أهل البيت هم أزواج النبي بدليل سياق الآيات، وأن "الأهل" تستعمل مع الزوجة الواحدة أو الأزواج، فيُراعى اللفظ في الحديث، فاستعمل ضمير المذكر!

[115] أثبت علامة المغرب الدكتور محمد عمراني بطلان هذا الحديث على موقعه الشخصي، على الرغم من كثرة طرقه! ونحن نرد الحديث كذلك، ونرى أن الرواية المذكورة عن عائشة عبث بها الرواة كذلك، فبعد أن كانت: "خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعَرٍ أَسْوَد" والتي يمكن الاستفادة منها في التواضع في اللباس –كما بوّبها الإمام مسلم فعلا–، أضاف الرواة إليها تلك النصوص التي جعلتها تدخل ضمن روايات الكساء!

والذي يظهر من اختلاف السنة والشيعة حول الآية أنهم استثنوا النبي الكريم من "أهل البيت"، فكأنه هو البيت!! ودار الخلاف حول تحديد الأهل!

وهذا من العجب، فلقد استعمل الله عز وجل ضمير المذكر "عنكم" لأن الحديث عن كل من في البيت، بما فيهم النبي، ولست أدري لماذا استُبعد؟

فعندما أسأل أي إنسان: من أهل هذا البيت؟ فتأتي الإجابة بذكر أفراده، فيُبدأ بصاحب البيت ثم الأزواج ثم الأولاد، ولا يقول عاقل أن صاحب البيت يُستثنى من الأهل! وإنما يُستثنى أحد أفراده عندما يكون هو المتحدث، فعندما أتحدث عن أهل بيتي، فإن هذا يعني أني خارج من هذه المعادلة، وإذا تحدث آخر من البيت يخرج كذلك، أما إذا تكلم عنا غيرُنا فكلنا نكون من أهل البيت!!

وهذا المعنى ظاهر جلي في سورة هود، فلقد قالته الملائكة وهي تخاطب زوج سيدنا إبراهيم، فقالت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة هود, ٧٢-٧٣]

فالجواب أن رحمة الله وبركاته "عليكم" أهل البيت، والذين هم إبراهيم وزوجه! وكذلك هنا التطهير وإذهاب الرجس عن النبي وأزواجه ومن يوجد من الأبناء، وهذا يتحقق عندما تكون النساء نساء صالحات راضيات قانعات مطيعات!

والسؤال الذي يجب طرحه هنا: ما الذي أدخل علي والحسن والحسين في أهل بيت النبي؟ لو كان قيل: "أهل النبي" لكان من الممكن قبول قولهم، أما أن يكون الحديث عن الأزواج، وأن بصلاحهن ينصلح الحال ويذهب الرجس عن الأسرة وتُطهر، فيكون الحديث عن من لا يسكن البيت أصلا، فهذا عجيب!

وبهذا يكون قد ظهر أن أهل البيت هم النبي الكريم وأزواجه المطهرات، والتي من بينهن السيدة عائشة، والتي طهّرها الله تطهيرا!

التشكيك في موتها

حتى في موتها لم تسلم السيدة عائشة من الخلاف حولها وتَقوّل القائلين، فيرى أهل السنة أنها ماتت ميتة عادية، ودفنت بالبقيع ليلا! ويروي ابن سعد في طبقاته عدة أخبار عن وفاتها، تؤكد هذا القول، وتبيّن أنها ماتت ميتة طبيعية، أثقلت فيها، وأوصت قبل أن تموت!

فمما روى بهذا الشأن: "عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: قالت عائشة عند موتها: لا تدفئوا مني النار ولا تحملوني على قطيفة حمراء. "أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني بن أبي الزناد عن أبيه قال: دخل بن أبي عتيق على عائشة وهي ثقيلة فقال: يا أمة كيف تجدينك جعلت فداك؟ قالت: هو والله الموت. قال: فلا إذا. فقالت: لا تدع هذا على حال، تعني المزاح." "عن سالم سبلان قال: ماتت عائشة ليلة سبع عشرة من شهر رمضان بعد الوتر فأمرت أن تُدفن من ليلتها، فاجتمع الناس وحضروا فلم نر ليلة أكثر ناسا منها نزل أهل العوالي، فدفنت بالبقيع" "أخبرنا محمد بن عمر حدثني بن أبي سبرة عن عثمان بن أبي عتيق عن أبيه قال: رأيت ليلة ماتت عائشة حمل معها جريد في الخرق فيه النار ليلا ورأيت النساء بالبقيع كأنه عيد" "أخبرنا محمد بن عمر حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: صلى أبو هريرة على عائشة في رمضان سنة ثمان وخمسين ودفنت بعد الإيتار[116]" اهـ

وروى الإمام الطبراني في المعجم الكبير: "عَنْ نَافِعٍ، وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: صَلَّيْنَا عَلَى عَائِشَةَ، وَأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطَ الْبَقِيعِ، وَالإِمَامُ يَوْمَ صَلَّيْنَا عَلَى عَائِشَةَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَحَضَرَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بن عُمَرَ، وَدَخَلَ فِي قَبْرِ عَائِشَةَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُرْوَةُ ابْنَا مُحَمَّدِ بن أَبِي بَكْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن أَبِي بَكْرٍ، وَمَاتَتْ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ فِي رَمَضَانَ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْهُ بَعْدَ الْوِتْرِ، وَدُفِنَتْ مِنْ لَيْلَتِهَا." اهـ

---

(116) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثامن، ص.76-77.

إلا أن الشيعة كالعادة يشككون في هذه الأخبار الكثيرة، ويرون أنها مُختلقة، وأنها لم تمت ميتة عادية، وإنما ماتت مقتولة، وأن الذي قتلها هو معاوية! ويقولون أن معاوية ضاق بها ذرعاً، بسبب معارضتها له، لأنه كان يريد أن يولي ابنه يزيد بعده وهي تعارضه في هذا، فأمر أن يُحفر لها حفرة في طريق تسلكه، فوقعت فيه وهي على بغلة ودفنت في تلك الحفرة سراً! وهكذا أصبح قبرها مجهولاً، وهذا القبر في دمشق. ويتساءلون: أين قبرها بالبقيع تحديداً، بجوار قبر من؟!

وليس هذا بالدليل، فإذا كان الشيعة يهتمون بقبور كبراءهم، فإن أهل السنة لا يهتمون بهذه المسائل بنفس القدر من الاهتمام، لذا لا عجب في عدم تحديد قبرها! وليس الشك في قبر عائشة هو مستند الشيعة في رفضهم موتها بهذا الشكل، وإنما بعض الأقوال المتناثرة، والتي يحاولون الاستدلال بها على أن شهادة كل هؤلاء الشهود غير صحيحة، وأن هذا القول الذي قيل عرضاً وهو غير صحيح سنداً ولا حاسمٌ معنى، وذكره المتأخرون هو الصحيح!

فمما استدلوا به، ما رواه: العاملي النباطي[117] في "الصراط المستقيم": "لمّا قدم (معاوية) الكوفة قال: ما قتلتكم على أن تصلوا وتصوموا فإني أعلم أنكم تفعلون ذلك! بل لأتأمّر عليكم. فقال الأعمش: هل رأيتم رجلا أقلّ حياءً منه؟ قتل سبعين ألفا فيهم عمار وخزيمة وحجر وعمرو بن الحمق ومحمد بن أبي بكر وأويس وابن صوحان وابن التيّهان وعائشة وابن حسّان، ثم يقول هذا!" اهـ

والرواية ساقطة، فالأعمش لم يشهد معاوية أصلا! وهم يقرون بهذا! إلا أنهم يتمحكون من أجل تصحيح الرواية! وهذه الرواية وأمثالها من الكتب المتأخرة التأليف، وهي أدلة ساقطة! فكيف خفيت هذه الروايات عن كل المتقدمين، ولم تظهر إلا في هذه القرون المتأخرة؟!

---

(117) هو زين الدين علي بن يونس العاملي النباطي، عالم من علماء الشيعة، له كتب عديدة، من أشهرها الكتاب المذكور: الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم. توفي عام: 877هـ.

إننا لا نتعصب لمعاوية ولا ندافع عنه، فنحن نرى أن له من الأخطاء والطوام ما يكفيه ويكفي من بعده! ولكن هذا لا يعني أن نرميه بالتهم بدون أدلة كافية!

وختاما نقول للشيعة: على فرض صحة قولكم فهذا يعني أن الله تعالى قد أكرم السيدة عائشة بأن جعلها تُقتل وهي تدافع عن دينها، حتى لا يظهر الملك العضوض في الأمة! فتكون قد حيت مدافعة عن الدين، وماتت وهي تدافع عنه!! رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته، وجعلها مع زوجها وحبيبها .. النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وله منا التسليم المبين!

الباب الثالث

عائشة .. الفقيهة

تلميذة النبي

بعد أن تحدثنا عن أهم الحوادث في حياة السيدة عائشة، وبيّنا كيف أن كثيرا من هذه الأحداث قد عبثت به أيدي الرواة، فأضافوا إليه من عند أنفسهم، أو اختلقوه اختلاقا، مما كوّن صورة سيئة لها، وأثار كثيراً من الشبهات في حق النبي قبل أن يكون في حقها! وبعد أن قدمنا صورة مغايرة للجانب الشخصي للسيدة عائشة، ننتقل إلى أعظم ما تركته السيدة عائشة لنا، وهو الجانب العلمي من حياتها! ذلك الجانب الذي يستحق التبجيل والاحترام والتقدير.

فلقد تركت السيدة عائشة تراثا علمياً دينياً كبيرا، تستحق به أن توصف بالفقهية العظيمة! فلقد روت عن النبي الكريم وصحّحت بعضا مما رواه الصحابة عن النبي استناداً إلى ما سمعته هي من النبي، كما صححت بعضاً منه استناداً إلى كتاب الله تعالى، فرأت أن ما يقولونه لا يمكن أن يكون قد صدر عن رسول الله بهذا الشكل وأنه لزامٌ أن يكونوا قد ذهلوا في النقل[118]!

وهذا التراث الكبير يستحق الاعتناء والدراسة، فهو تراث يشعر معه المرء بالاختلاف الكبير وبالبون الشاسع بينه وبين كل ما يأتي عن غيرها! ولم لا أليست تلميذة النبي؟! ألم تنشأ في بيت أبي بكر التاجر الأمين ذي العقل الرصين، العالم بالنسب وبأحوال العرب؟! ثم انتقلت منه إلى بيت النبي الكريم وهي صغيرة، فتكونت شخصيتها وعقلها على يد النبي الكريم! قرأ النبي الكريم عليها وعلى الأمة القرآن، فلم تكن تسمع وتسكت وإنما تسأل النبي الكريم عما قد يُشكل عليها أو لم تعلم تأويله!

ولهذا نجد أن السيدة عائشة تروي كثيرا من الأحداث التي لم تكن قد عايشتها مع النبي الكريم! والتي أُنزل فيها قرآنا! وذلك لأنها سألت النبي الكريم عنها! فسألت النبي وسألت .. وسألت، حتى تحصل لهم غزير وفير، كانت تفتخر به، ويحق له أن

[118] بهذا تكون السيدة عائشة من الصحابة الأوائل، الذين عرضوا السنة على القرآن، وقبلوها تبعا لموافقتها له، أو ردوها لمخالفته، كما فعل عمر وغيره، إلا أن أهل الحديث يصرون على رفض هذا المنهج ويعدونه بدعة مرفوضة!!

تفخر به كل الفخر، فالعلم هو مفخرة الإنسان الحقة! ومن مواطن افتخارها ما يرويه الإمام مسلم في صحيحه في باب: مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وَهَلْ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ؟ "عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ. قَالَ وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ: فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فَقَالَتْ أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ..." اهـ

فهي تفتخر أنها أول من سأل النبي الكريم عن هذه الآية، والتي من خلالها نفت أن يكون النبي الكريم قد رأى ربه، لأن الله لا تدركه الأبصار! وسؤالها النبي دليل على صواب قولها، فلقد سألت النبي فأجاب، وليس لأحد أن يتكلم بعد النبي! كما نجد أنها تروي أحاديث بدء الوحي، والتي يطعن بعضهم في روايتها لها، لأنها لم تكن قد وُلدت على قولهم، ولم تشاهدها!

وعلى الرغم من قولنا بأنها كانت صغيرة في هذه الفترة، إلا أن هذا المطعن غريب، فلماذا لا تكون قد سألت النبي الكريم، ثم روت هذه الرواية بعد ذلك استناداً إلى ما سمعته من النبي؟! وكذلك نجد أنها ترد على بعض الأقوال التي أرادت أن تعطي رحلة المعراج بعداً جسديا، فجزمت بأن جسد النبي الكريم ما غادر الفراش!

ولا يتأتى له كل هذا إلا بإدمانها سؤال النبي الكريم وحرصها على العلم! وهذا يبطل الروايات التي تدعي أنها كانت تتصرف بصبيانية وطيش في عهد النبي!

وتميّزت السيدة عائشة عن غيرها من الصحابة بكثرة مخالطتها للنبي، فلقد كانت في بيته! وكانت من حبها له تتابعه فلا يكاد يغيب عنها، وانحفر كل ما فعله في قلبها فلم

تنساه بعد وفاته، أليس هذا هو الذكريات المتبقية منه؟! أخذت تتابع وتراقب .. وبعد مراقبة طويلة للنبي الكريم أصدرت الحكم النهائي عليه، فقالت: "كان خلقه القرآن"

ولأنها رضي الله عنه رأت أن تركة النبي الكريم هي القرآن وتأويله له، كان يعز عليها أكثر من غيرها أن ترى تأويلات النبي تُغير –سهوا أو عمداً–، لذا فلقد وقفت بالمرصاد في وجه هذه التشوهات التي حدثت في نقلها!

وعلى الرغم من أن السيدة عائشة امرأة، والمرأة لم تكن لها الصدارة في المجتمع العربي –الحديث الإسلام– إلا أنها نجحت وبجدارة في انتزاع الصدارة لنفسها، بالعلم الذي حازته من تتلمذها على يد النبي! كما كان لجهودها دورا كبيرا في تحسين صورة المرأة ومكانتها عند علماء المسلمين وغير المسلمين! ولو لم يكن هذا النشاط للسيدة عائشة لرأينا تعنتاً كبيرا من كثير من علمائنا تجاه المرأة! –ونحن لا نزال نجد هذا التعنت حتى زماننا هذا!–

لهذا كله وجدنا كثيرا من الروايات عن الصحابة والتابعين تتحدث عن عظم علم السيدة عائشة. فمن ذلك ما رواه الإمام الطبراني في المعجم الكبير: "عَنْ مَسْرُوقٍ، أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَتْ عَائِشَةُ تُحْسِنُ الْفَرَائِضَ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ مَشْيَخَةَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهَا عَنِ الْفَرَائِضِ"

وما رواه الإمام الزركشي في كتاب "الإجابة" –والذي سنأخذ منه أبرز مواقف السيدة عائشة–:"عن أبي موسى الأشعري قال: ما أُشكل علينا –نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم– حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما."

ومنه ما رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: "عن عطاء، قال: «كانت عائشة، أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا في العامة» وكذلك: "عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: «ما رأيت أحدا أعلم بالحلال والحرام والعلم والشعر والطب من عائشة أم المؤمنين»

والأقوال في علم السيدة عائشة كثيرة، ونحن نرى أنها لم تكن من باب المبالغة أو المديح الزائف أو المتعصب، وإنما كانت شهادة حق في حق امرأة .. رجلة! شهادة تصرخ أن كثيرا من الروايات التي وردت في حقها، والتي تشوه صورتها روايات كاذبة، لأنه لا يمكن أن يجتمع النقيضان!

وسنذكر للقارئ الكريم طرفا من فصاحتها، ثم نتحدث عن روايتها ومروياتها، ثم نبدأ بعد ذلك ذكر أهم استدراكات عائشة على الصحابة، وتعليقنا على هذه الاستدراكات.

فصيحة مبينة

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها –بفضل ملاصقتها للنبي الكريم– من أفصح الناس! حتى أننا وجدنا كثيرا ممن أثنوا على فصاحتها وبيانها، لذلك فإن جل من ترجم للسيدة عائشة قد تعرض لهذا الجانب!

فعلى سبيل المثال يذكر الإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين مدح الأحنف بن قيس لفصاحتها، فيقول: "عن الأحنف بن قيس، قال: «سمعت خطبة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم والخلفاء هلم جرا إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها» ويقول: عن موسى بن طلحة، قال: «ما رأيت أحدا أفصح من عائشة رضي الله عنها» اهـ

ولا نطيل على القارئ بالحديث حول ما قيل في فصاحتها، ونقدم له مثالا على ذلك، وخير مثال نذكره لفصاحة السيدة عائشة هو ما خطبتها، التي أوردها ابن طيفور[119] في كتابه "بلاغات النساء"! ولفصاحة هذه الخطبة استفتح ابن طيفور بها كتابه!

---

[119] أبو الفضل أحمد بن طاهر الماروزي، (204–280هـ) مؤرخ وأديب وجغرافي عراقي، ولد في بغداد وله مؤلفات كثيرة في السفر والرحلات وأخبار الشعراء.

نص الخطبة: "بلغَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنْها أنَّ قَوْماً يَنالُونَ من أَبِيها رضي اللهُ عنه، فأرسلتْ إلى أَزْفَلَةٍ من الناس، فلما حضروا، أسدلتْ ستارَها، وعلَتْ وِسادَها، ثم قالتْ: أبيْ وما أَبِيَه، أبيْ واللهِ لا تَعْطُوهُ الأيْدِي، ذاكَ طَوْدٌ مُنِيفٌ، وَظِلٌّ مَدِيدٌ، هَيهَاتَ، كَذَبتْ الظنونُ، أَنْجَحَ واللهِ إذْ أَكْدَيْتُم، وَسَبَقَ إذ وَنَيْتُمْ، سَبْقَ الجوادِ إذا استولَى على الأَمَد، فتى قُريشٍ ناشِئاً، وكَهفُها كَهْلاً، يُرِيشُ مُملِقَها، ويرأَبُ شَعْبَها، وَيَلُمُّ شَعْثَها، ثمَّ اسْتَشْرَى في دِينِهِ، فما بَرِحَتْ شَكِيْمَتُهُ في ذاتِ اللهِ حتى اتَّخَذَ بِفِنائِهِ مَسجِداً، يُحْيِي فيه ما أماتَ المُبْطِلُون، كانَ واللهِ غَزِيْرَ الدَّمْعَةِ، وَقِيذَ الجَوانِحِ، شَجِيَّ النَّشَجِ، فَأَقْصَفَتْ عليهِ نُسْوانُ أَهْلِ مَكَّةَ وَوِلْدانُهُمْ يَسْخَرُونَ مِنهُ، ويَسْتَهْزِئُون بِهِ، "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ". وأَكْبَرَتْ ذلكَ رِجالاتُ قُرَيْشٍ، فَحَنَتْ قِسِيَّها، وَفَوَّقَتْ سِهامَها، وَأَمْشَلَتْهُ غَرَضًا، فَمَا فَلُّوا لَهُ صَفَاةً، وَلا قَصَفُوا لهُ قَنَاةً، وَمَضَى على سِيْسائِهِ حتَى إذا ضَرَبَ الدِّينُ بجِرَانِهِ، وَرَسَتْ أَطْوادُهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْواجَاً، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَالاً وأَشْيَاعًا اختَارَ اللهُ لنبيِّهِ ما عِندَهُ. فَلَمَّا قَبَضَ اللهُ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، اضْطَرَبَ حَبْلُ الدَّيْنِ، وَمَرَجَ عَهْدُهُ، وَمَاجَ أَهْلُهُ، وبُغِيَ الغَوائِل، ونُصِبَتْ الحَبَائِلُ، وظَنَّتْ رِجَالٌ أَنْ قدْ أَكْثَبَ نَهزُها، ولاتَ حِينَ الذِي يَظُنُّونَ، وَأَنَّى والصِّدِّيْقُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَقَامَ حَاسِرًا مُشَمِّرًا، فَرَفَعَ حاَشِيَتَيْهِ، وَجمَعَ قُطْرَيْهِ، وَلَمَّ شَعْثَهُ بِطِبِّهِ، وَأَقَامَ أَوَدَهُ بِثِقَافِةِ، حَتَّى امْذَقَرَ النِّفَاقُ بِوَطْئِهِ، فَلَمَّا انْتَاشَ الدِّينَ فَنَعَشَهُ، وَأَرَحَ الحَقَّ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَرَّرَ الرُّؤوسَ على كواهِلِها، وَحَقَنَ الدِّمَاءَ فِي أُهُبِهَا، فلمَّا حَضَرَتْهُ مَنِيَّتُهُ، فَسَدَّ ثُلْمَتَهُ بِنَظِيْرِهِ فِي المَعْدِلَةِ، وَشَقِيْقِهِ فِي السِّيْرَةِ وَالمَرْحَمَةِ. ذَاكَ ابنُ الخَطابِ، للهِ دَرُّ أَمٍّ حَفَلَتْ لَهُ، وَدَرَّتْ عَليهِ، لقدْ أَوْحَدَتْ بهِ، فَفَنَخَ الكَفَرَةَ، ودَنَّخَها، وّشَرَّدَ الشِّرْكَ شِذَرَ مِذَرَ، وَبَخَعَ الأَرْضَ فَنَخَعَها، حتَّى قاءَتْ أُكُلَها، وَلَفَظَتْ خَبِيْئَها، تَرْأَمُهُ وَيصُدُّ عَنْها، وتَصَدَّى لَهُ، وَيَأْبَاهَا، ثُمَّ ظَعَنَ عَنْها على ذَلكَ، فَأَرُونِي مَا تَرْتَئُون، وَأَيُّ يَوْمَيْ أَبِي تَنْقِمُون؟ أَيومَ مُقامِهِ إذْ عَدَلَ فِيكُم، أَمْ يومَ ظَعْنِهِ إذْ نَظَرَ لَكُمْ، أقولُ قَوْلِي هذا وأستغْفِرُ اللهَ لي ولَكُمْ. ثُمَّ أقبلَتْ على الناسِ بوجْهِهَا، فقالتْ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ هلْ أَنْكَرْتُمْ مِما قلتُ شَيئاً؟ قالوا: اللَّهُمَ لا."

الراويـة

تعد السيدة عائشة من المكثرات من رواية الحديث عن النبي الكريم، وعلى الرغم من أن الرواة يقولون أن النبي الكريم دعا لأبي هريرة ألا ينسى، فإننا نجد أنه قد نسي وصححت له السيدة عائشة فلم يعترض وأقر بالنسيان! أما السيدة عائشة فتميزت بأهم مزية، يُشترط توفرها في الراوي وهي "الذاكرة الحادة الناقدة"فلا يكفي فقط أن يكون الإنسان وعاءً، وإنما يجب أن يُعمل عقله فيما يقول وينقل!

ولأنها امرأة .. ولأنها نشأت في الإسلام فلم تتدنس بشرك .. ولأنها تتلمذت على يد النبي الكريم وعاشرته .. ولأنها كانت حادة الطباع .. كانت راويةً ممتازة! واختلفت رواية السيدة عائشة عن باقي الصحابة –باستثناء قصها عن حياتها مع النبي وعن أفعاله في المنزل– بأنها كانت في الغالب رواية تصحيح وتصديق وتعديل! فكان الصحابة يرون عن النبي الكريم، وهي تُصحح لهم ما وهموا فيه! أو يسألها التابعون عن روايات الصحابة فتُصدق أو تُعدل!

وعلى الرغم من أن السيدة عائشة وهّمت كثيرا من الصحابة وخطأتهم في روايتهم، فلم نجد من يوهّمها، وإنما كان الصحابة أجمعون يقبلون تصحيحها! بل كان بعضهم يأتي فيحدث بالقرب من بيتها حتى تسمع ما يقول!

وفي هذا يروي الإمام مسلم في صحيحه، في باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم: "عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ وَعَائِشَةُ تُصَلِّي فَلَمَّا قَضَتْ صَلَاتَهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى هَذَا وَمَقَالَتِهِ آنِفًا إِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ" ولا يعني هذا أنها لم ترو روايات ابتداءً عن النبي الكريم، فلقد روت عنه كذلك كثيرا من الروايات! وروت كذلك عن صحابة النبي، وروى عنها كثير من الصحابة وجمهرة من التابعين، مثل مسروق والأسود وسعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد وعطاء وعكرمة ونافع مولى ابن عمر وآخرون غيرهم.

ونجد جزءً كبيرا من هذه الروايات التي تفردت بها السيدة عائشة كان يدور حول بيت النبي، وعلاقته بأزواجه وعلاقته بها .. وحبه لها! وهذا شيء طبيعي متوقع من المرأة المحبة لزوجها! والتي تريد أن تُعلم غيرها هدي النبي الكريم في بيته وفي تعامله مع أزواجه، وتأديبه لهم بآداب الإسلام.

والعجيب أننا نجد من يعيب على السيدة عائشة إكثارها الحديث عن النبي الكريم، ولست أدري كيف سيكون الوضع لو لم ترو السيدة عائشة! فلقد صححت السيدة عائشة كثيرا من الأقوال التي نُسبت إلى النبي الكريم، أو التي أخطأ الصحابة سماعها أو نسوها أو وهموا فيها! فلو لم ترو، لما وجدنا إلا القول الآخر، المخالف لكتاب الله، والذي سيقول به أتباع مدرسة الحديث! أما مع تصحيحها أصبحنا نجد عن رسول الله العزيز الروايات الموافقة لكتاب الله، والتي يطمئن قلب المؤمن في الأخذ والعمل بها!

وبسبب كثرة تفردات السيدة عائشة ومخالفتها لبعض الصحابة، وجدنا الإمام الزركشي يؤلف كتابا، يجمع فيه هذه التفردات، أسماه: "الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة"! وسنأخذ من هذه الكتاب أهم مواطن مخالفة السيدة عائشة للصحابة، ونعرضها ونناقشها، لنبين كيف أن الحق غالبا ما كان معها، إلا في مواطن قليلة!

وبهذه المواطن التي سنذكرها سيكتشف القارئ العادي كيف أننا أضعنا كثيرا من السنن النبوية، وتمسكنا بما يخالفها!

وعرضَ لمرويات السيدة عائشة في عصرنا الحديث كثيرون من أهل السنة، من أجل استخراج الأحكام والحكم والمواقف ... إلخ. وعلى الطرف الآخر وجدنا من الشيعة من عرض لأحاديث السيدة عائشة من أجل تصيد الأخطاء أو إظهارها بصورة سيئة، متبعين القول الذي يقول: "من كلامك أدينك"! إلا أن هناك من تناول روايات السيدة عائشة في الشيعة بشيء من الموضوعية، مثل المرتضي العسكري في كتابه: أحاديث

أم المؤمنين عائشة! ويكفي أنه سمّاها أم المؤمنين، فلم يستكثر عليها الوصف، مثلما يفعل أكثر الشيعة!

والذي نعيبه على المرتضي أو غيره من الشيعة، في نقدهم للمروي عن السيدة عائشة، أنهم ما أن يجدوا بالرواية تناقض أو عيب، حتى يسارعوا باتهامها بالنسيان –على أفضل الفروض– أو الوهم أو اختلاق الرواية! وهذا ما لا يُقبل بحال من الناقد الذي يُفترض حياده! والذي عليه أن يبحث ويتيقن، هل العيب من الرواة أم من الصحابي!

إحصاء رواياتها

بعد أن تكلمنا عن السيدة عائشة، الراوية عن النبي، ننتقل إلى التعريف برواياتها عن النبي الكريم. وكنا قد قلنا أنها كانت من المكثرين الرواية عن النبي، لذا نقدم له هنا إحصاءً لرواياتها في كتب السنة[120]:

على الرغم من كثرة روايتها عن النبي، فلم تتفرد السيدة عائشة إلا بالقليل من أحاديث الرسول الكريم –جزء كبير منها لا يمكن أن يرويه إلا هي، لحدوثه في بيت النبي!–:

1– ومجموع الروايات التي انفردت به السيدة عائشة بدون تكرار هو ثمان وثلاثون ومائة رواية (138)، وبالتكرار سبعمائة وأربعون رواية.

2– رواياتها في الكتب الستة (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة هو (2210) رواية.

3– رواياتها في الكتب التسعة (الستة السابقة، بالإضافة إلى موطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل ومسند الدارمي (5965) رواية.

[120] الإحصاءات المذكورة في هذا العنصر هي للدكتور محمد عبده يماني، وزير الإعلام السعودي الأسبق، إلا أننا عرضناها بأسلوبنا!

4- الآثار التي انفردت بروايتها السيدة عائشة بدون تكرار هي سبعة وعشرون أثرا، وبالتكرار خمسة وثلاثون.

5- عدد الروايات التي روتها السيدة عائشة ورواها صحابة آخرون هو خمس وسبعون وخمسمائة رواية (575).

ويقدم لنا المرتضي العسكري مقارنة بين عدد مرويات السيدة عائشة وباقي أزواج النبي الكريم، مظهرا زيادة رواياتها بمفردها عن مجموع رواياتهن، فيقول: "رووا عن أم المؤمنين عائشة -وحدها- عن النبي(ص) 2210 حديثا، وعن سائر أمهات المؤمنين الثمان 612 حديثا، ولها في مسند أحمد وحده أكثر من 2270 حديثا بما فيها المكرر، ولسائر أمهات المؤمنين 427 حديثا. وقد اشتمل كتاب البخاري ومسلم على 1200 حديث في الأحكام، وفي الكتابين نيف وتسعون ومائتا حديث عن أم المؤمنين عائشة، ولم يخرج من الأحكام منها إلا يسيرا ومن ثم قالوا: حُمل منها ربع الشريعة.

أحمد وجوامع السيرة:

1- أم سلمة: لها في مسند أحمد 277 حديثا، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 378 حديثا.

2- ميمونة: لها في مسند أحمد 62 حديثا، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 76 حديثا.

3- حفصة: لها في مسند أحمد 44 حديثا، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 60 حديثا.

4- أم حبيبة: لها في مسند أحمد 27 حديثا، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 65 حديثا.

5- صفية: لها في مسند أحمد 9 أحاديث، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 10 أحاديث.

6- زينب: لها في مسند أحمد 4 أحاديث، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 11 حديثا.

7- جويرية: لما في مسند أحمد 4 أحاديث، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 7 أحاديث.

8- سودة: لم يخرج لها في المسند، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 5 أحاديث.

فيكون مجموع أحاديثهن في مسند أحمد 427 حديثا، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 612 حديثا. أما أحاديث عائشة وحدها فهي في مسند أحمد 2270 حديثا، ومجموع أحاديثها في جوامع السيرة 2210 حديثا[121]" اهـ

استدراكاتها

بعد أن تكلمنا عن مرويات السيدة عائشة، نعرض لأهم استدراكاتها على الصحابة، ونعلق عليها! ولسنا أول من فعل هذا، فلقد أفرد الإمام الزركشي لهذا الأمر كتابا كاملاً، سماه: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة! وعلق فيه على استدراكات السيدة عائشة، يُصوِّب قولها أحيانا ويصوب قول غيرها أحيانا أخرى!

ولأننا نؤمن أن "الكتاب حاكم على السنة" وأن "القرآن قاضٍ على السنة" وليس العكس! لذا فإننا سنحاول تطبيق هذه القاعدة قدر الإمكان! وعندما يتعلق الأمر

(121) المرتضي العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة، الجزء الثاني، ص.32-33.

بتطبيقات نبوية مجردة "سنن"، فإننا سنلجأ إلى تحليل الرواية ونقد مفرداتها، للوصول إلى الصواب!

وسيرى القارئ الكريم بهذا التناول كيف أن تشوه المروي عن رسول الله قد بدأ منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وأنهم كانوا ينسون فيُغيرون! وأنهم كانوا يسمعون عن النبي الكريم سماعاً مقتضبا، فينقلون كما سمعوا، ظانين أن ما سمعوه هو كل ما قاله النبي! ولولا وجود السيد عائشة لأصبح هذا المنقول هو عين السنة! ولأصبح لزاماً أن نفهم القرآن على هذا الأساس! ومن يخالف فهو مبتدع ضال يتبع عقله –وليس القرآن!– ويشكك في السنة!

وهذا كله يحتم علينا تعميم القاعدة المذكورة سابقا، وهي تحكيم القرآن في السنة، لا العكس! فالقرآن هو المطلق والسنة هي النسبي[122]! والقرآن هو المحفوظ بالحرف فلا تحريف، بينما السنة قد دخلها التحريف منذ الجيل الأول، فما بالنا بتحريفات الأجيال التالية، المتعمَد منها وغير المتعمد؟!

ونبدأ في عرض الاستدراكات.

الطواف بالصفا والمروة

من الآيات التي تثير المسلم عند قراءته القرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة البقرة, ١٥٨]

[122] عرضنا لمسألة: وجوب عرض السنة على القرآن، بتفصيل كبير في كتابينا: عقائد الإسلاميين، والقرآنيون مصلحون أم هادمون، فمن يرغب في التوسع في معرفة الأدلة، يرجع إليهما!

ولقد لفتت انتباهي وأنا صغير فسألت أستاذ القرآن عنها في المرحلة الإعدادية، ولقد انتبه إليها السابقون، وسُئلت حوله السيدة عائشة، وأورد الإمام الزركشي هذه الرواية في "الإجابة" فقال: "أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ واللفظ لَهُ عَنْ عُرْوَةَ بْن الزُّبَيْر قَالَ:قُلْت لعَائِشَة زَوْج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أرى عَلَى أَحَد لَمْ يطف بين الصفا وَالمروة شَيْئًا وما أُبَالِيْ إِلَّا أطوف بينهما. قَالَت: بئس مَا قُلْت يَا بْن أُخْتي، طاف رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاف المُسْلِمون فكَانَتْ سنة وإِنَّمَا كَانَ من أَهْل لمناة الطاغية الَّتِيْ بالمشلل لَا يَطُوْفون بين الصفا والمروة فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَام سَأَلَنَا النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فأنزَلَ الله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر اللهِ فمن حج الْبَيْت أَوْ اعتمر فَلَا جناح عَلَيْهِ أن يَطُوْف بهما﴾ ولو كَانَتْ كَمَا تَقُوْلُ لكَانَتْ: "فَلَا جناح عَلَيْهِ أَلَّا يَطُوْف بهما" قَالَ الزُّهْرِيّ: فذكرت ذَلِكَ لأبي بَكْر بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن الْحَارِث بْن هِشَام فأعجبه ذَلِكَ وقَالَ: إن هَذَا للعلم ولَقَدْ سَمِعت رِجَالًا من أَهْل الْعِلْم يَقُوْلُوْنَ إِنَّمَا كَانَ من لَا يَطُوْف بين الصفا والمروة من الْعَرَب يَقُوْلُوْنَ إن طوافنا بين هَذَين الْحَجّرين من أمر الْجَاهِلية. وقَالَ آخرون من الْأَنْصَار: إِنَّمَا أمرنا بالطواف بالْبَيْت ولم نؤمر بين الصفا وَالمروة فأنزَلَ اللهِ عز وجل: إن الصفا وَالمروة من شعائر الله. قَالَ: أَبُوْ بَكْرٍ بْن عَبْد الرَّحْمَن فأراها نَزَلَت فِي هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ. ولفظ مُسْلِم: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: قَدْ سن رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطواف بينهما فلَيْسَ لأحد أن يترك الطواف فِيْهِمَا".

ويعلق الإمام الزركشي فيقول: "قَالَ بَعْضُ عُلَمَاء التفسير: إِذَا كَانَ الحرج فِي الْفِعْل قِيْلَ: لَا جناح أن تفعل. وإن كَانَ فِي الترك قِيْلَ لَا جناح أَلَّا تفعل. وَالحرج هُنَا كَانَ فِي الْفِعْل لإِرَادَة مخالفة المشركين فِي مَا كَانُوْا يفعلونه من التطوف بهما لإساف وَنائلة. فاستدل ابْن الزُّبَيْر عَلَى عدم الوُجُوْب بأن الحرج كَانَ فِي الْفِعْل لَا فِي الترك فَقَالَتْ: لَهُ عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُا لَوْ كَانَ الحرج فِي الترك وأريد نفيْهِ كَانَ لَا جناح إِلَّا يَطُوْف

لَكِن الحرج كَانَ فِي الْفِعْل فقِيْلَ لَا جناح أن يَطُوْف. واستُفِيد الوُجُوْب من ابدؤوا بِمَا بدأ الله بِهِ ونحوه من اِلْأَدلة عَلَى الوُجُوْب.[123]" اهـ

أول ما نبدأ به حديثنا هو التنبيه على مخالفة استعمالنا للاستعمال القرآني، فالله تعالى يقول: "الطواف بالصفا والمروة" ونحن نقول: "السعي بين الصفا والمروة"! وعلينا أن نصحح هذا الاستعمال فنجعله كما قال الله!

نعود بعد ذلك إلى الآية فنتساءل: هل قالت الآية أن حكم الطواف بالصفا والمروة واجب أو ركن؟! لم تقل الآية بهذا، وإنما قالت أنه لا جناح عليه، أي أنها تبين أن هذا الفعل ليس مما ابتدعه العرب! والإمام الزركشي نفسه عندما علّق على الآية رأى أنه لا دليل فيها على الوجوب، وقال أن الوجوب استفيد من قواعد استخراج الأحكام، لا أن الآية نفسها تقول به!

والسيدة عائشة نفسها لم تستدل على وجوبه بالآية، وإنما بفعل النبي الكريم، فلقد رأته يفعل، وبما أنه فعل فيُفترض للمسلم أن يفعل، فهذا هو دأب المسلم الحريص على التطبيق الأمثل للدين!

ولقد اختلف الفقهاء في حكم الطواف بالصفا والمروة، فقيل أنه ركن، وقيل أنه واجب يُجبر بدم، وقيل أنه سنة مستحب! والذين قالوا أنه سنة مستحب جماعة من الصحابة والتابعين كابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وأبي بن كعب وأنس، وابن سيرين، وعطاء في الرواية الأخرى عنه.

فنخرج من الآية أنها تقول أن الطواف بالصفا والمروة من الأشياء التي يستحب فعلها، أي أنها من السنن! فليس فعلها أو تركها سواء، وإنما في فعلها الثواب وليس في تركها ... حرج!

---

[123] بدر الدين الزركشي، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، ص. 141–142.

المرأة ليست شؤما

من المسائل التي يُطعن بها في الإسلام، ويلعب على أوتارها المستشرقون والملاحدة كثيراً، الإدعاء أنه يقلل من منزلة المرأة، بل إنه يراها شؤما، كما ورد في بعض أحاديث النبي!

ولقد ذكر الإمام الزركشي في "الإجابة" مثالا من هذه الأحاديث، وكيف ردت السيدة عائشة عليه، فقال: "قَالَ أَبُوْ دَاوُدَ الطيالسي في مُسْنَده حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْن راشد عَن مكحول قَالَ: قِيْلَ لعَائِشَة إن أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُوْل: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشؤم فِي ثَلَاثَة فِي الدار والْمَرْأَة والفرس. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَمْ يَحْفَظْ أَبُوْ هُرَيْرَةَ، إِنَّهُ دَخَلَ ورَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْل: قاتل اللهِ إِلَيْهوَد، يَقُوْلُوْنَ: الشؤم فِي ثَلَاثَة: فِي الدار والْمَرْأَة والفرس. فسمع آخر الْحَدِيْث ولم يَسْمَع أوله" (...) وقَدْ جَاءَ الْإِنْكَار عَلَى وجه آخر قَالَ: الْإِمَام أَحْمَد فِيْ مُسْنَدِهِ حَدَّثَنَا روح ثَنَا سَعِيْد عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي حسان أن رجلين دخلا عَلَى عَائِشَة فَقَالَا: إن أَبَا هُرَيْرَةَ يحَدَّث أن نبي اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُوْل: إِنَّمَا الطيرة فِي الْمَرْأَة والدابة والدار. قَالَ: فطارت شقة مِنْهَا فِي السَّمَاء وشقة مِنْهَا فِي الْأَرْض، وقَالَتْ: والَّذِيْ أنزَلَ الْقُرْآن عَلَى أَبِي الْقَاسِم مَا هَكَذَا كَانَ يَقُوْل الطيرة فِي الْمَرْأَة والدابة والدار، ثُمَّ قرأت عَائِشَة: "ما أصاب من مصيبة في الْأَرْض وَلَا فِي أنفسكم إِلَّا فِي كِتَاب من قبل أن نبرأها ... الْآيَة[124]" اهـ

فكما رأينا فلقد استنكر المسلمون الأوائل أن يكون هناك شؤم في شيء! وذهبوا ليسألوا السيدة عائشة عن هذا! —وهذا يدل على المكانة العلمية التي كانت لها! فلم يذهبوا إلى غيرها من كبار الصحابة، وإنما ذهبوا لها لفقهها— فلما سمعت السيدة عائشة قولهم عرّفتهم أن الرسول فعلا قد قال، ولكنه لم يقل بنفس هذه الطريقة، وإنما الخطأ هو في سماع الراوي، فلم يسمع حديث الرسول من أوله، فيظن أن هذا هو ما

[124] المرجع السابق ، ص. 104

يقوله الرسول، فيرويه عنه! فالرسول في هذا الموقف كان يقص عن غيره قوله، ويعيب عليهم هذا القول، فأصبح هذا القول قول الرسول!

وبخلاف إظهارها الهيئة التي قيل عليها الحديث، أرجعتهم السيدة عائشة إلى القرآن ليحكموه في الرواية، فالله تعالى يقول أن أي مصيبة تحدث هي في كتاب من قبل أن يبرأها، فكيف يكون أي واحد من هؤلاء الثلاثة سبباً للشؤم؟!

وديننا الحنيف يريد منا البعد عن أمثال هذه الخرافات، فبين لنا أن: لا طيرة، فهو ينهانا عن التطاير والتشاؤم، فكيف يؤكد لنا هذا الأمر بأن الشؤم في كذا وكذا؟! وإذا كان فيه فهذا يعني أن الله تعالى قد خلق شيئا على هيئة الشر! والله تعالى لا يخلق شرا، وإنما كل شيء قد ينتج خيراً أو شرا!

المرأة لا تقطع الصلاة

من الشبهات التي تثار بشأن المرأة أيضا، أن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها شيء نجس! أو مثل الحيوانات، ولذلك اشتركت معها في بعض الأحكام، فهي مثلاً تقطع الصلاة مثل الحمار .. والكلب!

ولقد بدأ ظهور هذا القول في عهد الصحابة، ووصل إلى السيدة عائشة، فكان لها منه موقف، أورده الإمام الزركشي في "الإجابة"، فقال: "أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقْطَعُ الصَّلَاة الْمَرْأَة وَالحِمَار والكلب ويقي ذَلِكَ مثل مؤخرة الرحل. وقَدْ رَوَى قطع الْمَرْأَة الصَّلَاة غَيْره من الصَّحَابَة مِنْهُم أَبُوْ ذَرٍّ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا. وَمِنْهُم ابْن عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ أَبُوْ دَاوُدَ وزاد الحائض. قَالُوْا: أوقفه جَمَاعَة ومِنْهُم عَبْد اللهِ ابْن معقل أَخْرَجَهُ قاسم ابْن أصبغ فِيْ مُصَنَّفِهِ. (...) وقَدْ استدركت عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُا ذَلِكَ، فأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِيْ صَحِيْحِيهما عَن مَسْرُوْق عَنْ عَائِشَةَ وذكر عِنْدَهَا مَا يَقْطَعُ الصَّلَاة الكلب والحِمَار والْمَرْأَة، فَقَالَتْ عَائِشَةُ:

شبهتمونا بالحمير وَالكلاب، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ يُصَلِّيْ وأَنَا عَلَى السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لِيْ الْحَاجّة فأكره أن أجلس فأوذي رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأَنَسل من عِنْدَ رجليه." ذكره الْبُخَارِيّ فِي بَاب من قَالَ: لَا يَقْطَعُ الصَّلَاة شَيْء. وأَخْرَجَا نحوه عَن اسود عَنْ عَائِشَةَ. وأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَةَ عَنْهَا أَيْضًا[125]" اهـ

فكما رأينا فقد استنكرت السيدة عائشة أن تكون المرأة تقطع الصلاة، واستقبحت تسوية المرأة بالحمير والكلاب! وحاول بعض العلماء توجيه هذه الرواية، فقالوا أن المراد من قطع الصلاة هو قطع الخشوع لا إبطال الصلاة، أي أن المرأة عندما تمر أمام المصلي تشغله وربما تثير شهوته! فيكون المراد من ذلك إنقاص الأجر وضياع الخشوع! وقال بعضهم أن الحديث نُسخ، أي أنه كان حكماً موجودا ثم نُسخ بعد ذلك!

إلا أن جمع المرأة مع الكلاب والحمير يعكر على هذا كله، فما الخاصية المشتركة بين المرأة والحمار والكلب، والتي وُجدت فيهم، ولم توجد في باقي الحيوانات حتى يكونوا قاطعين للصلاة؟! جاء في بعض الروايات أن الكلب الأسود شيطان، –وهو ليس كذلك قطعاً– فهل الحمار شيطان كذلك، وهل المرأة شيطانة؟!

الذي نراه أن أصل مسألة قطع المرأة والكلب للصلاة راجع إلى حرص النبي الكريم على ألا يمر بين يديه شيء وهو يصلي، حتى لا يضيع الخشوع، إلا أنه في عين الوقت لم يكن يعيد الصلاة أو يراها ناقصة إذا مر شيء بين يديه.

ولأن الكلب والحمار كانا أبرز الحيوانات السائبة المستحقرة، والتي تمر أمام المصلين، ظهرت هذه الأقوال –المتشددة– التي حاولت منع مرورها بين يدي المصلي، ولمّا كان للمتشددين عداءٌ ضد المرأة فقد جمعوها مع الحمار والكلب!!

(125) المرجع السابق، ص.154.

ويدل على فساد هذه الأحاديث روايات أخرى تؤكد أن الرسول صلى ومرت هذه الأشياء بين يديه! فمن ذلك ما رواه أبو داود في باب: "من قال الكلب لا يقطع الصلاة": "عن الفضل بن العباس رضي الله عنه، قال: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ في بَادِيةٍ لَنَا، وَمَعَهُ العَبَّاسُ، فَصَلَّى في صَحْرَاءَ، لَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ سُتْرَةٌ، وَحِمَارَةٌ لَنَا وَكَلْبَةٌ تَعْبَثَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَا بَالى ذلِكَ."

ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه في باب: سترة المصلي: "حَدَّثَنَا عَوْنُ بْنُ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَهُوَ بِالْأَبْطَحِ فِي قُبَّةٍ لَهُ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَمٍ (...) قَالَ ثُمَّ رُكِزَتْ لَهُ عَنَزَةٌ فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ الْحِمَارُ وَالْكَلْبُ لَا يُمْنَعُ ثُمَّ صَلَّى الْعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ" اهـ

وما رواه البخاري في صحيحه في باب: سترة الإمام سترة من خلفه: "عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِهِمْ بِالْبَطْحَاءِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَنَزَةٌ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ وَالْعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ تَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ"

وما رواه مسلم في صحيحه، في باب: سترة المصلي: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الِاحْتِلَامَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ بِمِنًى فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ الصَّفِّ فَنَزَلْتُ فَأَرْسَلْتُ الْأَتَانَ تَرْتَعُ وَدَخَلْتُ فِي الصَّفِّ، فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ عَلَيَّ أَحَدٌ" اهـ

يتأكد لنا من هذه الروايات أن الرسول الكريم لم يقل هذا، وأن الصحابة كانوا لا يتحرجون من مرور أي شيء أمامهم، وعلى الرغم من ذلك ظهر هذا القول المتنطع في عهد الصحابة ونُسب إلى الرسول!

جواز سفر المرأة بدون محرم

حرص الإسلام أشد الحرص على حماية المرأة وحفظها، فلم يتركها كلأً مباحا، ولم يقيدها تقييداً كاملا يمنعها من الحركة، فيقيد حريتها ويلغي شخصيتها! ومن المسائل المتعلقة بحرية المرأة، مسألة سفرها! فيرى أكثر الفقهاء أن المرأة لا يجوز لها السفر إلا بوجود محرم! فإن لم يتوفر فلا يجوز لها السفر! ويستندون في هذا إلى بعض أحاديث للرسول الكريم!

إلا أن السيدة عائشة كان لها رأيٌ آخر في هذه المسألة، أورده الزركشي في "الإجابة"، فقال: "إِنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَت أن أَبَا سَعِيْد الخُدْري قَالَ: نهى رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرْأَة أن تسافر إِلَّا ومعها ذو محرم، قَالَت عَمْرَة: فالْتَفَتَت عَائِشَة إِلَى بَعْض النِّسَاء وقَالَتْ: مَا لكلكِن ذو محرم. وأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِيْ سُنَنِهِ ثُمَّ قَالَ أَبُو حَاتِم: لَمْ تكن عَائِشَة بالمتهمة أَبَا سَعِيْد لعدالته، وإِنَّمَا أَرَادَت بِقَوْلِها: "مَا لكلكِن ذو محرم" تريد أَنَّهُ لَيْسَ لكلكِن ذو محرم تسافر معه فاتقين اللهِ وَلَا تسافر وَاحِدة منكن إِلَّا بذي محرم يَكُوْنُ معها. قُلْت ينافِي هَذَا رِوَايَة الْبَيْهَقِيّ: "مَا كلهن ذوات محرم"، وقَدْ أدخله فِي بَاب لزومها الْحَجّ مَعَ النِّسَاء الثقات. وقَالَ الطَّحَاوِيُّ فِي "مَعَانِي الْآثَار": احْتَجَّ بخبر عَائِشَة هَذَا من لَمْ يشترط الْمُحْرِم فِي وُجُوْب الْحَجّ. وَلَا حجة فِي قَوْل أَحَد مَعَ قَوْل النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَحِلّ لامرأة أن تسافر مسيرة ثَلَاثَة أَيَّام إِلَّا ومعها محرم" قَالَ: وقَدْ قِيْلَ لأبي حنيفة: فإِنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تسافر بِلَا محرم فَقَالَ أَبُو حنيفة: كَانَ النَّاس لعَائِشَة محرما مَعَ أيهم سافرت فَقَدْ سافرت مَعَ محرم ولَيْسَ لغَيْرهَا من النِّسَاء كَذَلِكَ.[126]" اهـ

ولقد ورد في مسألة النهي عن سفر المرأة بدون محرم روايات كثيرة عن رسول الله، فنجد البخاري يروي في صحيحه، في باب: في كم يقصر الصلاة: "عن أبي هريرة:

---

[126] المرجع السابق، ص. 130.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ"

فهذه الرواية لا تجيز للمرأة أن تسافر مسيرة يوم وليلة بدون ذي محرم!

فإذا نظرنا في صحيح مسلم وجدناه يروي في باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره: "... سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعًا فَأَعْجَبْنَنِي وَآنَقْنَنِي نَهَى أَنْ تُسَافِرَ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمَيْنِ إِلَّا وَمَعَهَا زَوْجُهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ وَاقْتَصَّ بَاقِيَ الْحَدِيثِ"

فهذه الرواية لا تجيز للمرأة أن تسافر مسيرة يومين إلا بوجود ذي محرم، وهذا يعني أنه يجوز لها أن تسير مسيرة يوم بدون محرم!

كما نجد رواية عند مسلم، في نفس الباب، عن أبي هريرة كذلك، يقول فيها: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تُسَافِرَ ثَلَاثًا إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا"

ورواية أخرى في نفس الباب، يقول فيها: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ سَفَرًا يَكُونُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَصَاعِدًا إِلَّا وَمَعَهَا أَبُوهَا أَوْ ابْنُهَا أَوْ زَوْجُهَا أَوْ أَخُوهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا" اهـ

فهذه الرواية تحدد النهي بثلاثة أيام، وهذا يعني أنه يجوز لها أن تسافر أقل من ذلك بدون ذي محرم!

والسؤال الذي نطرحه: هل المنهي عنه هو يوم أم اثنان أم ثلاثة؟ وهل النهي هنا يفيد الحرمة أم الكراهة؟! الناظر في الأحاديث يجد أن هناك روايات أخرى تتحدث عن نهي النبي بدون استعمال "لا يحل" وإنما تكلمت فقط عن النهي، ومن ذلك ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: "عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسافر امرأة فوق ثلاثة إلا مع ذي محرم".

والإمام الترمذي نفسه نجده يقول في سننه: "بَاب مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ أَنْ تُسَافِرَ الْمَرْأَةُ وَحَدَهَا: وَرُوِي عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: لَا تُسَافِرُ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ. وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ يَكْرَهُونَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُسَافِرَ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ." اهـ

فالإمام الترمذي يعد النهي الواردة في الأحاديث من باب الكراهة، وليس حراما، ونحن نقول أنه ليس حراما، لأنه لم يرد بشأنها أي حكم في القرآن! والحرام مفصل في القرآن! والاختلاف الوارد في الأحاديث راجع إلى نسيان الرواة! –وهذا ما لا نرجحه– أو إلى أن الرسول الكريم ذكر هذه الإمكانيات المختلفة في أكثر من مرة! فمرة يقول يوم ومرة يومين ومرة ثلاثة أيام! وهذا يدل على أن هذا الحكم صادر عن النبي الكريم كتشريع ظرفي مؤقت مرتبط بمناسبته، فعندما يكون الوضع أكثر أمنا تزيد الأيام، وعندما يضعف الأمن تقل الأيام!

فالنبي الكريم لما رأى أن سفر المرأة بمفردها قد يُعرضها للاختطاف أو للسرقة ولمخاطر كثيرة، عد هذا من باب إلقاء النفس إلى التهلكة! لذا لم يجز السفر للنساء –بصفته قائد للمسلمين– إلا بوجود ذي محرم! وهذا من الأمور التنفيذية، التي يمكن لأي حاكم التصرف فيها، وتغيير حكمها حسب الأحوال، من فترة إلى أخرى، وليس من شرع الله، لأن شرع الله لا يُغير.

والسيدة عائشة لمّا سمعت هذا الحديث فهمت أن النبي الكريم لم يكن يقصد وجوب وجود المحرم لذاته، وإنما هو حكم معلل، والعبرة منه وجود ما يحمي المرأة، سواء كانوا ذوي محارم أو غير ذلك، لذلك قالت: "ما لكلكن ذو محرم"!

لذا فإذا عم الأمن وساد، جاز للمرأة أن تسافر بدون محرم! فإذا ضعف الأمن وجب وجود من يحميها!

صلاة الجنازة على المقابر

من الأمور المسلم بها عند عامة المسلمين في زماننا هذا أن الصلاة على الميت تُصلى في المسجد! ويظن العامة أن هذا هو السنة المنقولة عن النبي الكريم، مع أن الأمر بخلاف ذلك! فلم يُصل النبي على الميت في المسجد إلا مرة تقريبا! وهذا يبين الجواز، إلا أنه يعني في عين الوقت أن هذا ليس هو الأصل! ولهذا انتُقد على السيدة عائشة صلاتها على ميت في المسجد!

ولقد أورد الإمام الزركشي هذا الموقف في "الإجابة"، فقال: "أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَن عباد بْن عَبْد الله بْن الزُّبَيْر: إِنَّ عَائِشَةَ أمرت أن يُمر بجنازة سَعْد بْن أَبِي وقاص فِي الْمَسْجِد فتُصلي عَلَيْهِ، فأَنْكَرَ الناس عَلَيْهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ: مَا أسرع -تعني مَا نَسِيَ النَّاس- مَا صَلَّى رَسُوْل اللهِ عَلَى سُهَيْل بْن الْبَيْضَاء إِلَّا فِي الْمَسْجِد. وفِي لفظ لَهُ: أن أَزْوَاج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسلن أن يمروا بجنازته فِي الْمَسْجِد فِيصلين عَلَيْهِ، ففعلوا. فوُقف بِهِ عَلَى حُجَرهن يُصَلِّيْن عَلَيْهِ، (ثم) أَخْرَجَ بِهِ من بَاب الجنائز الَّذِيْ كَانَ إِلَى المقاعد. فبلغهن أن النَّاس عابُوا ذَلِكَ وقَالُوْا: مَا كَانَتْ الجنائز يَدْخُل بِهَا الْمَسْجِد. فبلغ ذَلِكَ عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُا قَالَتْ: مَا أسرع النَّاس إِلَى أن يعيبوا مَا لَا علم لهم بِهِ، عأَبُوا عَلَيْنَا أن يُمَر بجنازة فِي الْمَسْجِد، وما صَلَّى رَسُوْل اللهِ على سُهَيْل بْن بيضاء إِلَّا فِي جوف الْمَسْجِد.[127]" اهـ

فهذا يدل على أن الصلاة على الميت لم تكن في المسجد، ولا ينبغي أن تُصلى في المسجد، لأن صلاته على سهيل كانت لظرف استثنائي!

ويعلق الإمام ابن القيم على هذه المسألة، فيقول: "ولم يكن من هديه الراتب الصلاة عليه في المسجد، وإنما كان يصلي على الجنازة خارج المسجد، ورُبما كان يصلي أحياناً على الميت في المسجد، كما صلى على سهيل بن بيضاء وأخيه في المسجد

[127] المرجع السابق، ص. 155.

ولكن لم يكن ذلك سنتَه وعادتَه، فقد روى أبو داود في "سننه" من حديث صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَلَّى على جَنَازَة في المَسْجِد فَلاَ شَيء له". وقد اختُلف في لفظ الحديث، فقال الخطيب في روايته لكتاب السنن: في الأصل "فلا شَيءَ عَلَيْهِ" وغيرُه يرويه "فَلاَ شَيءَ لَهُ" وقد رواه ابن ماجه في "سننه" ولفظه: "فَلَيْسَ لَهُ شَيء".

ولكن قد ضعف الإمام أحمد وغيره هذا الحديث، قال الإمام أحمد: هو مما تفرد به صالح (...) وَأَنّ مَنْ سَعَى إلَى الْجِنَازَةِ فَصَلّى عَلَيْهَا بِحَضْرَةِ الْمَقَابِرِ شَهِدَ دَفْنَهُ وَأَحْرَزَ أَجْرَ الْقِيرَاطَيْنِ وَقَدْ يُؤْجَرُ أَيْضًا عَلَى كَثْرَةِ خُطَاهُ وَصَارَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ مَنْقُوصَ الْأَجْرِ بِالْإِضَافَةِ إلَى مَنْ يُصَلّي عَلَيْهِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ. (...) وَالصّوَابُ مَا ذَكَرْنَاهُ أَوّلًا وَأَنّ سُنّتَهُ وَهَدْيَهُ الصّلَاةُ عَلَى الْجِنَازَةِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ إلّا لِعُذْرٍ وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ جَائِزٌ وَالْأَفْضَلُ الصّلَاةُ عَلَيْهَا خَارِجَ الْمَسْجِدِ . وَاَللّهُ أَعْلَمُ[128]" اهـ

فكما رأينا، فالإمام ابن القيم يقول أن سنة النبي أن يُصلى على الجنازة خارج المسجد، وهذا ما يقوله القرآن ويؤيده، فالله تعالى قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ... ﴿٨٤﴾﴾ [سورة التوبة , ٨٤]

فالله تعالى ينهى النبي عن الدعاء لأي واحد من المنافقين، والصلاة على قبورهم! وهذا يبين أن الصلاة كانت في عهد النبي على القبور! ثم بعد ذلك أخذت تُصلى على القبور وفي المساجد، ثم لم يبق إلا الصلاة عليها في المسجد، ونُسيت الصلاة على القبور!

[128] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، المجلد الأول، ص. 502.

عدد عمرات النبي

بعد أن ذكرنا نموذجا لسماع الصحابي الحديث من رسول الله من منتصفه ووضعه في غير موضعه، نذكر مثالا آخر لسهو الصحابي ونسيانه، وهو عدد العمرات التي اعتمرها النبي الكريم! وكان هذا الصحابي الذي نسى عبد الله بن عمر، وكان الذي صحح له السيدة عائشة، ولهذا أورده الإمام الزركشي في "الإجابة" فقال: "روى ذلك البخاري ومسلم عن مجاهد قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد فإذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما جالس إلى حجرة عائشة رضي الله عنها. (...) ثم قال له: كم اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أربعاً إحداهن في رجب، فكرهنا أن نرد عليه، قال: وسمعنا استنان عائشة أم المؤمنين في الحجرة، فقال عروة: يا أماه يا أم المؤمنين ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: ما يقول؟ قال: يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمرات إحداهن في رجب. قالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن ما اعتمر عمرة إلا وهو شاهده وما اعتمر في رجب قط[129]" اهـ

فعلى الرغم من أن عبد الله بن عمر لا يقص عن شيء لم يره وسمعه من غيره، وإنما يقص عن أحداث شهدها، إلا أنه نسي! كما ينسى أي إنسان! فصححت له السيدة عائشة ما قالت! ولم يرد عبد الله عليها، وهذا يعني موافقته لها فيما تقول!

وبين الإمام ابن القيم تفاصيل هذه العمرات، فقال: "اعتمر صلى اللَّه عليه وسلم بعدَ الهِجرة أرْبَعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ فى ذى القعْدة؛ الأولى: عُمرةُ الحُديْبِيَة، وهى أولاهُن سنةَ سِت، فصدَّه المشركون عن البيت، فنحرَ البُدْنَ حيثُ صُدَّ بالحُديبيةِ، وحَلَقَ هو وأصحابُه رؤوسهم، وحلُّوا من إحرامهم، ورجع مِن عامه إلى المدينة. الثانية: عُمْرَةُ القَضِيَّةِ فى العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثاً، ثمَّ خَرَجَ بعد إكمال عُمرتِه، (...) الثالثة: عُمرتُه التى قرنها مع حَجَّتِه، فإنه كان قارناً لبضعة عشر دليلاً، سنذكرها عن قريب إن شاء اللَّه. الرابعة: عُمرتُه من الجِعْرَانَةِ، لما خرج إلى حُنين، ثم رجع إلى مكة،

(129) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، ص. 92–93.

فاعتمر مِن الجِعْرَانَةِ داخلاً إليها. ففي الصحيحين عن أنس بنِ مالك قال: "اعتمَر رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم أَرْبَعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ فى ذِى القِعْدَةِ، إلاَّ الَّتى كانَتْ مَعَ حَجَّتِهِ: عُمْرَةٌ مِنَ الحُدَيْبيةِ أو زَمَنَ الحُدَيْبِيةِ فى ذى القِعْدَةِ، وَعُمْرَةٌ مِنَ العَامِ المُقْبل فى ذى القِعْدَةِ، وعُمْرَةٌ مِنَ الجِعْرانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِم حُنَيْنٍ فى ذى القعْدَةِ، وَعُمْرَةٌ مَعَ حَجَّتِه[130]". اهـ

وهذا يؤكد حفظ السيدة عائشة وسهو عبد الله بن عمر! وهذا يفتح باب الترجيح بين الروايات استناداً إلى احتمالية نسيان الصحابي أو الراوي، فتُرد رواية أو تُستبعد لمخالفتها القرآن أو الروايات الأخرى الأصح! بدلا من اعتماد المذهب التلفيقي، القائم على: ربما! والتي تُمكن كل مدع من أن يقول ما يشاء!

الشِّعر ليس مُحرما!

من المقولات الجائرة التي نسمعها من غير المسلمين، وللأسف البالغ من بعض المسلمين، أن الإسلام يحرم الفنون! أو يُكرهها! ومن بين الفنون التي يحرمها الإسلام أو يكرهها: الشعر! ويستندون في ذلك إلى حديث وارد عن النبي الكريم يقول بهذا! ولأن السيدة عائشة كان لها موقفا مُبينا لهذا الحديث! أورده الإمام الزركشي في "الإجابة"، فقال: "قَالَ: ثَنَا الكلبي عَنْ أَبِي صَالِح عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ قَالَ: لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا وَدما خير لَهُ من أن يمتلئ شعرا. فَقَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُا: لَمْ يَحْفَظْ الْحَدِيْث، إِنَّمَا قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا وَدَمًا خَيْرٌ لَهُ من أن يمتلئ شعرا هجيت بِهِ[131]." اهـ

---

[130] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، المجلد الثاني، ص. 90.

[131] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، ص. 115.

فالسيدة عائشة تبين أن الشعر في حد ذاته ليس بالشيء القبيح، وإنما العبرة بالمضمون! والنبي عندما كان يتكلم عن الشعر المذموم كان يقصد الشعر الذي يُسيء إليه أو إلى الإسلام، وليس أي شعر!

ولست أدري كيف يُحرم الإسلام الشِّعر أو يكرهه، والنبي الكريم كان له شاعره الخاص، وهو: حسان بن ثابت! كما كان النبي يسمع الشعر ويستحسنه! والذي ورد في القرآن هو تنزيهه عن أن يكون شعرا، ولا ينبغي له أن يكون شعرا! كما لا ينبغي للنبي أن يقوله.

والعبرة في الشعر بما يقول، فحلاله حلال وحرامه حرام! فإن كان شعراً فاحشا متهتكا يطعن في الأعراض والأنساب ويسخر من الناس، أو شعراً يحمل قدراً كبيرا من التهويل والمبالغة، فهو من المذموم، الذي قال القرآن في حقه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [سورة الشعراء, ٢٢٤-٢٢٧] وهؤلاء الشعراء الذين ذمهم القرآن ليسوا مؤمنين أصلا، وإنما هم كفار يتقولون على النبي وعلى الدين ويستغلون شعرهم في مهاجمة الإسلام! لذا ذمهم الله في كتابه!أما إذا كان الشاعر مؤمنا وكان يقول غير ذلك، وكان صادقا في شعره، فلا حرج عليه، أن يقول ما تجيش به مشاعره من الشعر الهادف النظيف!

النبي لم يصم تسع ذي الحجة

من السنن التي ظهرت وانتشرت في أيامنا هذه صيام تسع ذي الحجة! استنادا إلى أنه ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام! وكذلك استنادا إلى الأحاديث التي تقول أن النبي الكريم صام هذه الأيام التسع!

وكان للسيدة عائشة رأي في هذه المسألة! أورده الإمام الزركشي في "الإجابة" فقال: "أَخْرَجَ أَبُوْ دَاوُدَ وَ النَّسَائِيُّ عَنْ هَنِيْدَةَ بْنِ خَالِد عَنِ امْرَأَتِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: "كَانَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُوْمُ تِسْعَ ذِي الْحَجّةِ وَيَوْمَ عَاشُوْرَاءَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَأَوَّلَ اثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ وَالْخَمِيْسَ." وقَدْ اخْتَلَفَ فِيْهِ عَلَى هنيدة فرَوَى عَنْهُ كذَلِكَ. ورُوِيَ عَنْهُ عَن حَفْصَة زَوْج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورَوَى عَنْهُ عَن أمه عَن أُمّ سَلَمَةَ مُخْتَصَرا. (...) وقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ والْأَرْبَعَة مِنْ حَدِيْثِ الْأَسْوَد عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا رَأَيْت رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صائما العَشْرَ قَطُّ. وفِي لفظ لسَالِم: لم يُر رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صائما العَشرَ قط.[132]" اهـ

حاول العلماء التوفيق بين الحديثين بالقول أن النبي ربما كان يصومهم بعض السنوات ويتركها بعض، فرأت حفصة وعلمت فقالت، وربما خفي هذا على السيدة عائشة، فنفت!

وهذا التوفيق ضعيف، فكيف يخفى هذا على السيدة عائشة وهو يكون عندها في التسع أيام يومين؟! وبغض النظر عن عدد هذه الأيام، يُفترض أن النبي لم يكن يصوم هذه الأيام في السر! أو يعدها من العبادات الخفية، فإذا كانت عبادة عظيمة الأجر، فمن المفترض أن يعلم الناس بها ويدعوهم إلى فعلها! أمّا أن تخفى على بعض أهل بيته فهذا عجيب! ثم إننا نجد أن السيدة عائشة تقول أن النبي الكريم لم يُر صائما العشر قط! وهذا يعني أنها أكيدة مما قالته، فهي تنفي أن يكون قد فعل هذا في أي عام من الأعوام! وبالتأكيد فهي تتكلم عن علم، أما إذا كانت تتكلم عن ظن! فهذا يفتح باب التشكيك في السنن المروية عن الصحابة وفي الصحابة أنفسهم! فإنه يعني أنهم كانوا يصدرون أحكاما بناءً على الظن وليس العلم واليقين!

وهذا يعني سقوط حجية السنة الفعلية، فإذا جاء عن الصحابي أن النبي لم يفعل كذا، فليس حجة، فربما فعل العكس ولم يعرف الصحابي!!! يضاف إلى ذلك أن حديث

[132] المرجع السابق، ص. 168.

صيام التسعة ضعيف، وحديث عائشة أصح منه سندا! والذي أراه أنا في هذا الحديث أنه ربما كان أصله: "يصوم تاسع ذي الحجة" فالتبست الكلمة على الراوي فظنها: تسع ذي الحجة! وبعد أن كان المراد أن النبي يصوم اليوم التاسع "يوم عرفة" أصبح المعنى أنه يصوم الأيام التسعة كلها!

فنخرج من هذا أن صيام التسع ليس سنة عن النبي الكريم! ولا يعني في عين الوقت أنه بدعة! أو أنه لا ثواب في فعله! المهم ألا يحافظ عليها أو يعتقد أنه يقلد النبي في فعله هذا!

الضحى ليست سنة

من السنن التي يعرفها عامة المسلمين ويحافظ عليها المتدينون، سنة الضحى! ويتفاوت هؤلاء في أدائها، فمنهم من يصليها ركعتين، ومنهم من يصليها أربعة ومنهم من يصليها ثمانية، وذلك لأن الروايات الواردة بشأنها اختلفت في تحديد عدد ركعاتها!

ومن ثم تعاملوا معها بمبدأ الجمع –لا الترجيح– فقالوا بجواز الجميع، وأنه للإنسان أن يصلي بأي هيئة منها أراد! ولكن الناظر في الروايات الواردة عن النبي الكريم يجد أن هذه الصلاة ليست سنة! وعلى الرغم من ذلك يظن أكثر المسلمين سنيتها!

ولأن السيدة عائشة كانت من الصحابة الذين قالوا بعدم سنيتها، أورد الإمام الزركشي قولها في "الإجابة"، فقال: "أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي ذيب ومَعْمَر عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبح سبحة الضُّحَى وإِنِّيْ لأسبحها. زاد فِيْهِ مَعْمَر: قَالَتْ: وما أَحَدثَ النَّاس شَيْئًا أحب إِلَيَّ مِنْهُما. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِيْ سُنَنِهِ: مرادها رَضِيَ اللهُ عَنْهُا –واللهِ أعلم– مَا رَأَيْته داوم عَلَيْهَا. وكَذَا قَوْلها: "وما أَحَدثَ النَّاس" تريد مداومتهم. ونازعه الذَّهَبِيّ وقَالَ: اللفظ لَا يَحْتَمِل هَذَا

التَّأْوِيْل. وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيْق قُلْت لعَائِشَة: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّيْ الضحى؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يجيء من مغيبه. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَرُوِيَ فِيْ ذَلِكَ عَنْ جَابِر وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَرَّ لِمُعَاذَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُصَلِّيْهَا أَرْبَعًا ويَزَيْد مَا شَاءَ اللهُ. وَمَجْمُوْعُ الْأَحَادِيْث يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَا يُدَاوِمُ عَلَيْهَا[133]" اهـ

فكما رأينا فلقد رجح الإمام الزركشي أن النبي الكريم لم يكن يداوم عليها! أي أنه رأى أنه كان يفعلها أحيانا ويتركها أحيانا! ولنا أن نتساءل: هل يقول مجموع الروايات بما يقول الإمام الزركشي، أم أنها تقول شيئا آخر؟

الناظر يجد أنها تقول شيئا آخر، ولقد استوعب الإمام ابن القيم هذه المسألة بحثا، فعرض لجميع الروايات الواردة فيها، وخرج بقول آخر!

ولأن المسألة ليست بالهينة وأدلتها ليست بالقصيرة، فإننا سنعرض للقارئ هنا مقتطفات مما ذكره الإمام ابن القيم، والترجيح الذي وصل إليه في نهاية المطاف: "اخْتَلَفَ النّاسُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ عَلَى طَرَقٍ: مِنْهُمْ مَنْ رَجّحَ رِوَايَةَ الْفِعْلِ عَلَى التّرْكِ بِأَنّهَا مُثْبِتَةٌ تَتَضَمّنُ زِيَادَةَ عِلْمٍ خَفِيَتْ عَلَى النّافِي. قَالُوا: وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَذْهَبَ عِلْمُ مِثْلِ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النّاسِ وَيُوجَدُ عِنْدَ الْأَقَلّ . قَالُوا: عَائِشَةُ وَأَنَسٌ وَجَابِرٌ وَأُمّ هَانِئٍ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنّهُ صَلّاهَا. قَالُوا: وَيُؤَيّدُ هَذَا الْأَحَادِيثُ الصّحِيحَةُ الْمُتَضَمّنَةُ لِلْوَصِيّةِ بِهَا وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَمَدْحِ فَاعِلِهَا وَالثّنَاءِ عَلَيْهِ (...) وَطَائِفَةٌ ثَانِيَةٌ ذَهَبَتْ إلَى أَحَادِيثِ التّرْكِ وَرَجّحَتْهَا مِنْ جِهَةِ صِحّةِ إسْنَادِهَا وَعَمَلِ الصّحَابَةِ بِمُوجَبِهَا، فَرَوَى الْبُخَارِيّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنّهُ لَمْ يَكُنْ يُصَلّيهَا وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ. قُلْت: فَالنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لَا إخَالُهُ. وَقَالَ وَكِيعٌ: حَدّثَنَا سُفْيَانُ الثّوْرِيّ عَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ صَلّى صَلَاةَ الضّحَى إلّا يَوْمًا وَاحِدًا. وَقَالَ عَلِيّ بْنُ الْمَدِينِيّ: حَدّثَنَا مُعَاذُ بْنُ مُعَاذٍ حَدّثَنَا شُعْبَةُ حَدّثَنَا فُضَيْلُ بْنُ

[133] المرجع السابق، ص. 163.

فَضَالَةَ عَنْ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: رَأَى أَبُو بَكْرَةَ نَاسًا يُصَلّونَ الضّحَى قَالَ إنّكُمْ لَتُصَلّونَ صَلَاةً مَا صَلّاهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَلَا عَامّةُ أَصْحَابِهِ. وَفِي "الْمُوَطّأِ": عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا سَبّحَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سُبْحَةَ الضّحَى قَطّ وَإِنّي لَأُسَبّحُهَا وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النّاسُ فَيُفْرَضُ عَلَيْهِم. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيّ بْنُ بَطّالٍ: فَأَخَذَ قَوْمٌ مِنْ السّلَفِ بِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَلَمْ يَرَوْا صَلَاةَ الضّحَى وَقَالَ قَوْمٌ إنّهَا بِدْعَةٌ رَوَى الشّعْبِيّ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ كُنْت أَخْتَلِفُ إلَى ابْنِ مَسْعُودٍ السّنَةَ كُلّهَا فَمَا رَأَيْتُهُ مُصَلّيًا (...) وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ إلَى اسْتِحْبَابِ فِعْلِهَا غِبّا فَتُصَلّى فِي بَعْضِ الْأَيّامِ دُونَ بَعْضٍ وَهَذَا أَحَدُ الرّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ وَحَكَاهُ الطّبَرِيّ عَنْ جَمَاعَةٍ قَالَ وَاحْتَجّوا بِمَا رَوَى الْجُرَيْرِيّ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ أَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُصَلّي الضّحَى؟ قَالَت: لَا إلّا أَنْ يَجِيءَ مِنْ مَغِيبِه (...) وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ رَابِعَةٌ إلَى أَنّهَا تَفْعَلُ بِسَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ وَأَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّمَا فَعَلَهَا بِسَبَبٍ قَالُوا: وَصَلَاتُهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ ثَمَانُ رَكَعَاتٍ ضُحًى إنّمَا كَانَتْ مِنْ أَجْلِ الْفَتْحِ وَأَنّ سُنّةَ الْفَتْحِ أَنْ تُصَلّى عِنْدَهُ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ وَكَانَ الْأُمَرَاءُ يُسَمّونَهَا صَلَاةَ الْفَتْحِ. وَذَكَرَ الطّبَرِيّ فِي "تَارِيخِهِ" عَنْ الشّعْبِيّ قَالَ: لَمّا فَتَحَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحِيرَةَ صَلّى صَلَاةَ الْفَتْحِ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ لَمْ يُسَلّمْ فِيهِنّ ثُمّ انْصَرَف. قَالُوا: وَقَوْلُ أُمّ هَانِئٍ "وَذَلِكَ ضُحًى" تُرِيدُ أَنّ فِعْلَهُ لِهَذِهِ الصّلَاةَ كَانَ ضُحًى، لَا أَنّ الضّحَى اسْمٌ لِتِلْكَ الصّلَاةِ. قَالُوا: وَأَمّا صَلَاتُهُ فِي بَيْتِ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ فَإِنّمَا كَانَتْ لِسَبَبٍ أَيْضًا فَإِنّ عِتْبَانَ قَالَ لَهُ إنّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَإِنّ السّيُولَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَسْجِدِ قَوْمِي فَوَدِدْتُ أَنّك جِئْت فَصَلّيْت فِي بَيْتِي مَكَانًا أَتّخِذُهُ مَسْجِدًا فَقَالَ "أَفْعَلُ إنْ شَاءَ اللّهُ تَعَالَى" قَالَ فَغَدَا عَلَيّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ بَعْدَمَا اشْتَدّ النّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَذِنْت لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتّى قَالَ "أَيْنَ تُحِبّ أَنْ أُصَلّيَ مِنْ بَيْتِكَ"؟ فَأَشَرْت إلَيْهِ مِنْ الْمَكَانِ الّذِي أُحِبّ أَنْ يُصَلّيَ فِيهِ فَقَامَ وَصَفَفْنَا خَلْفَهُ وَصَلّى (...) وَمَنْ تَأَمّلَ الْأَحَادِيثَ الْمَرْفُوعَةَ وَآثَارَ الصّحَابَةِ وَجَدَهَا لَا تَدُلّ إلّا عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَأَمّا أَحَادِيثُ التّرْغِيبِ فِيهَا وَالْوَصِيّةُ بِهَا فَالصّحِيحُ مِنْهَا

كَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي ذَرّ لَا يَدُلّ عَلَى أَنّهَا سُنّةٌ رَاتِبَةٌ لِكُلّ أَحَدٍ وَإِنّمَا أَوْصَى أَبَا هُرَيْرَةَ بِذَلِكَ لِأَنّهُ قَدْ رُوِيَ أَنّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَخْتَارُ دَرْسَ الْحَدِيثِ بِاللّيْلِ عَلَى الصّلَاةِ فَأَمَرَهُ بِالضّحَى بَدَلًا مِنْ قِيَامِ اللّيْلِ وَلِهَذَا أَمَرَهُ أَلّا يَنَامَ حَتّى يُوتِرَ وَلَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَسَائِرَ الصّحَابَةِ. وَعَامّةُ أَحَادِيثِ الْبَابِ فِي أَسَانِيدِهَا مَقَالٌ وَبَعْضُهَا مُنْقَطِعٌ وَبَعْضُهَا مَوْضُوعٌ لَا يَحِلّ الِاحْتِجَاجُ بِه[134]" اهـ

وكما رأينا فقد رجح الإمام ابن القيم أنها صلاة تُفعل لسبب، أي أن النبي الكريم لم يصلها في هذا الوقت إلا لمناسبة وافق فيها صلاته وقت الضحى! أمّا أنه كان يحافظ عليها أو يصليها أحيانا ويتركها أحيانا فلم يصح عن النبي الكريم.

الميت لا يعذب ببكاء أهله

من الأقوال المنتشرة بين عوام المسلمين أن الميت يُعذب ببكاء أهله عليه! وعلى الرغم من أن هذا القول لا منطق فيه، إلا أنه قول مستند إلى بعض الروايات الواردة عن النبي الكريم! ولمّا سمعت السيدة عائشة بهذه الروايات اعترضت عليها! لأن من نقلها لم يحفظ ما قاله النبي الكريم، ولأن مضمونها مخالف للقرآن العظيم!

وأورد الإمام الزركشي اعتراضها في "الإجابة" ووافقها وأكده بالأدلة، وحاول التوفيق بين الروايات، فقال: "أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ –وَاللَّفْظُ لَهُ– عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهَا سَمِعَتْ عَائِشَةَ وَذُكِرَ لَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يَقُوْلُ: إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَغْفِرُ اللهُ لِأَبِيْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ يَكْذِبُ ولَكِنَّهُ نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ إِنَّمَا مَرَّ رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى يَهُوْدِيَّةٍ يُبْكَى عَلَيْهَا فَقَالَ: إِنَّهُمْ يَبْكُوْنَ عَلَيْهَا وإِنَّهَا لَتُعَذَّبُ فِيْ قَبْرِهَا. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَن هِشَامِ بْن عُرْوَة عَنْ أَبِيْهِ نَحْوَهُ بِلَفْظِ: يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَمِعَ شَيْئًا ولَمْ يَحْفَظْ إِنَّمَا مَرَّتْ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى

[134] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، المجلد الأول، ص. 345 وما بعدها.

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَازَةُ يَهُوْدِيٍّ وَهُمْ يَبْكُوْنَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَنْتُمْ تَبْكُوْنَ وإِنَّهُ لَيُعَذَّبُ."واعْلَمْ أَنَّ تَعْذِيْبَ الْمَيِّتِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَاعَةٌ مِّنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ: عُمَرُ وَابْنُ عُمَرَ وَأَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِمَا عَائِشَةُ. وَحَدِيْثُهَا مُوَافِق لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْله سُبْحَانَهُ: "قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلُّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى". وَمُوَافِقٌ لِلْأَحَادِيْثِ الْأُخَر فِيْ بُكَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَوْتَى وَإِقْرَارُهُ عَلَى الْبُكَاءِ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِيْنَ فمحال أن يفعل مَا يَكُوْنُ سببا لعذابهم أَوْ يقر عَلَيْهِ. وهَذَا مرجح آخر لرِوَايَة عَائِشَة وعَائِشَة جزمت بالوهم. واللائق لَنَا فِي هَذَا المقام التَّأْوِيْل وهو حمل الْأَحَادِيْث المخالفة لَهَا إِمَّا عَلَى من أَوْصَى بذَلِكَ فعَلَيْهِ إثم الوصية بذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ تسبب إِلَى وجوده وأَمَّا غير ذَلِكَ مِمَّا ذكره الْعُلَمَاء فِي كتبهم. والَّذِيْ يؤكد قَوْل عَائِشَة فِي وهم قَوْلها أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: لرَجُل مَاتَ يَهُوْدِيّا: "إِنَّ الْمَيِّت لَيُعَذَّبُ" بلام العهد فالظَاهِر أَنَّ ابْنَ عُمَر خفِي عَلَيْهِ موت الْيَهُوْدِيّ فحملها عَلَى اِلْاستغراق.[135]" اهـ

وكما رأينا فلقد حاول الإمام الزركشي التوفيق بين الروايات، بالقول أن من يستحق العذاب هو من أوصى بذلك، أو بالإحالة على ما قاله العلماء، من أن هذه كان عادته، ومنهم من قال أن الميت يعلم بهذا فيتألم من بكائهم وحزنهم عليه! وهذا الألم عذاب وليس عقاب! فهو يتعذب من حال أهله!

والذي أراه أن قول السيدة عائشة هو الصواب، فليس في الحديث ما يدل على أن العقاب لمن أوصى، أو لمن كان هذا عادته، أو لأن الميت يسمعهم فيتألم! وإنما كان النبي يعجب منهم أنهم يبكون حزنا على فراقه وإنه يُعذب! فالأولى بهم أن لا يبكون على فراقه، وإنما أن يبكون على هلاكه، وأن يخشون العذاب ويعملون ما ينجيهم منه!

وليست كثرة الصحابة ترجيح لقولهم على قول عائشة، لأن الصحابة كان يسمعون الحديث من أحدهم فيقولونه، وربما وهم هذا المخبر، فينقلون كلهم وهمه!!

[135] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، ص. 90.

ولي في هذه الأحاديث توجيه آخر، هو أن هذا القول من النبي صدر في حق من يبكون على الميت في لحظات احتضاره! فقال إن الميت –أي الذي يذوق سكرات الموت– يُعذب ببكاء أهله!

لأن الإنسان في هذه اللحظات عندما يرى أهله يبكون عليه، يزداد ألما! لأنه يحزن لحزنهم ويشعر أن حالته قد استيأسوا منها، وأنه ميت لا محالة، فيزداد ألما وغما! ولهذا نهى النبي الكريم على البكاء بحضور الميت! وهذا من رحمته بالناس ومراعاته لهم في جميع أحوالهم، حتى في ساعة احتضارهم!

الميت لا يسمع

كما استدركت السيدة عائشة على بعض الصحابة بخصوص أن الميت يُعذب ببكاء أهله، وبيّنت لهم كيف قيل الحديث من النبي الكريم، استدركت عليهم كذلك في مسألة سماع الموتى، فلم توافقهم فيما قالوا.

ولقد أورد الإمام الزركشي قولها في "الإجابة" وحاول رده، فقال: "أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَر قَالَ: وقف النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قليب بدر فَقَالَ: هَل وجدتم مَا وعد ربكم حقا؟ ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُمْ اِلَّان يسمعون مَا أَقْوْل. فذكرت لعَائِشَة فَقَالَتْ: إِنَّمَا قَالَ: النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُمْ ليعلمون اِلّآنَ أن مَا كُنْت أَقَوْل لهم حق. قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي الروض: وعَائِشَة لَمْ تحضر، وغَيْرهَا مِمَّنْ أحفظ للفظه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقَدْ قَالُوْا لَهُ يَا رَسُوْلَ اللهِ أتخاطب قَوْما قَدْ جيفوا أو أجيفوا؟ فَقَالَ: مَا أَنْتُم بأسمع لَمَّا أَقَوْل مِنْهُم. وإِذَا جاز أن يكونوا فِي تِلْكَ الْحَال عالمين جاز أن يكونوا سامعين، إِمَّا بآذان رؤوسهم، إِذَا قلنا إن الروح من غَيْر رجوع مِنْهُ إِلَى الْجَسَد وَإِلَى بَعْضه. قَالَ: وقَدْ رُوِيَ إِنَّ عَائِشَةَ احْتَجَّت بِقَوْله تَعَالَى: "مَا أَنْت بمسمعٍ من فِي الْقُبُوْر" وهَذِهِ الْآَيَة كَقَوْلِهِ: "أفأَنْت تسمع الصم أَوْ تهدْي العمي" أي أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِيْ يهدْي

ويوفق ويدخل الموعظة إِلَى آذَانِ القُلُوْب لَا أَنْت. وجعل الكفار أمواتا وصما عَلَى جِهَة التشبيه بأموات وبالصم، فالله هُوَ الَّذِيْ يسمعهم عَلَى الْحَقِيقة إِذَا شاء فَلَا تعلق لَهَا فِي الْآيَة لِوَجْهَيْنِ: أَحَدهُمَا: أَنَّهَا إِنَّمَا نَزَلَت فِي دعاء الكفار إِلَى الْإِيْمَان. الثَّانِي: أَنَّهُ إِنَّمَا نفى عَن نبيه أن يَكُوْنُ هُوَ المسمع لهم وصدق اللهِ فَإِنَّهُ لَا يسمعهم إِذَا شاء إِلَّا هُوَ.[136]" اهـ

فنقول: إذا كان الإمام السهيلي يستدل بأن السيدة عائشة لم تحضر بدرا، فاستدلاله مردود عليه، وذلك لأن السيدة عائشة كانت قد حضرت، كما جاء في صحيح مسلم، في باب: كراهة الاستعانة في الغزو بكافر: "عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ لَا قَالَ فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ قَالَتْ ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ ..." اهـ

فقولها: "حتى إذا كنا بالشجرة" دليلٌ على أنها كانت من بين الخارجين مع الرسول، فكيف تكون لم تشهد بدرا؟!

وحتى إذا قلنا أنها لم تشهد بدرا فمن قال أن عبد الله بن عمر قد شهد بدراً؟! لقد أجمع أصحاب الأخبار أنه لم يشهد بدرا! واختُلف في شهود أحد، والراجح أن أول مشاهده هي الأحزاب، كما جاء عنه هو نفسه في البخاري، وهذا يعني كذلك أن عبد الله يتحدث نقلا عمن شهدوا! فليس روايته بالحجة الدامغة، خاصة إذا كان الخلاف حول كلمة!

والناظر في الروايات الواردة في هذه المسألة يجد أنها كلها تدور على أنس بن مالك وعبد الله بن عمر، وهما كانا أطفالا في هذه الغزوة! فأنس وُلد في السنة الثالثة من

[136] المرجع السابق، ص. 99.

البعثة، أي أنه كان في الحادية أو الثانية عشر من عمره، وابن عمر استُصغر في بدر فلم يشهدها! وكذلك فإن الغالب أن أنساً لم يشهد بدرا، ولم يعده أصحاب المغازي في البدريين، وإذا قيل أنه شهد بدراً فقد شهدها كغلام يخدم النبي، لأنه كان لا يزال طفلا!! لذا فقد ظل في رحال الجيش!! لذا فلنا أن نتساءل: لماذا لم تأت هذه الواقعة إلا عن طريق هذين الصحابيين الصغيرين، اللذان لم يشهداها أصلا؟! وإذا علمنا أن أنس بن مالك يميل إلى المبالغة والتهويل في أحاديثه، انتهى الموضوع أصلا[137]!

ومسألة إسماع الموتى مشكلة عويصة، فكيف يسمع الميت؟ لذا حاول بعض التابعين حلها أو توجيهها، ومن ذلك ما رواه البخاري عن قتادة: "أَحْيَاهُمْ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا" فقتادة لم يجد بُداً من القول بأن الله أحياهم للنبي حتى يسمعوا! أي أنهم لم يكونوا أمواتا عندما خاطبهم النبي، ولا دليل مع قتادة على ما يقول! إلا أنه يُحسب له أنه لم يحاول أن يتمحك تلك التمحكات لتصحيح الرواية، لوضوح الآيات الواردة في الموضوع، والتي تنفي سماع الموتى!

ونحن لا نشكك في أصل الحدث ولا وقوعه، فنحن نرى أن النبي قد ألقى الجثث في القليب فعلا، وأنه خاطبهم، وإنما الاعتراض كل الاعتراض على كلمة: "ما أنتم بأسمع" أو "إنهم الآن يسمعون ما أقول"، ونرى أنها كما قالت السيدة عائشة: "يعلمون"! فلقد علم هؤلاء أن ما قاله الرسول حق، وأنهم كانوا على باطل مبين!

وخطاب الرسول للأموات هو مثل خطابنا لموتانا، وهو من باب الترويح عن النفس! فغالبا ما يخاطب الإنسان الميت، الذي كان يحمل له في حياته مشاعر عظيمة، سواء كانت سيئة أو حسنة، فعندما يقتل أحد الخصمين خصمه، يقول له: "ها أنا ذا قد انتصرت عليك! ولم تنفعك جعجعتك!" على الرغم من أنه متأكد من أنه لا يسمع!

---

[137] كثيرا ما تُنتقد روايات أبي هريرة ويُنتقد هو شخصيا! لما احتوته رواياته –أو التي نُسبت إليه– من بعض الخرافات الإسرائيلية، وقليلا ما نجد نقدا يوجه إلى روايات أنس بن مالك! على الرغم من احتوائها كثيرا من المبالغات والتهويلات! وندعو القارئ إلى تتبع روايات أنس بن مالك بنفسه فسيجد ما نقوله فيها ظاهرا جليا!

وقد نعاتب بعض الموتى أو نشمت فيهم، أو نذهب إلى موتانا فنقول لهم أننا نفذنا لهم وصاياهم، أو انتقمنا لهم من قتلاهم! وكل هذا ليبرد فؤاد الإنسان تجاه المقتول، ويحس أنه قال ما كان سيقال لو كان حيا!

نخرج من هذا كله بأن قول السيدة عائشة هو الصواب، وأن قول ابن عمر وأنس قد فاته الدقة، في الكلمة التي هي محور الخلاف! ولا يجوز لنا أن نلوي أعناق النصوص القرآنية الجلية، والحقائق العقلية المتفق عليها من أجل كلمة مختلف فيها! فإن هذا هو عين التعنت!!

الجنابة لا تُبطل الصوم

كان الصحابة رضوان الله عليهم يأخذون أحاديث وأفعال الرسول الكريم من بعضهم، وغالبا ما يُسقطون من رووا عنه! فيحدثون مباشرة عن رسول الله! وربما أخذوا من ناقل عن رسول الله، ويكون الناقل قد أخطأ في السماع أو الفهم، فيحدثون عن رسول الله بأحكام مخالفة للقرآن! يتمسك بها بعض المتمسكين، ويرون أنها من الهدي النبوي!!

ومن المسائل التي أخطأ فيها الراوي مسألة عدم صيام الجنب! ولله الحمد كانت السيدة عائشة بالمرصاد!

ولقد أورد الإمام الزركشي موقفها هذا في "الإجابة"، فقال:"أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ جُرَيْج عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْن أَبِيْ بَكْرٍ بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ أَبِيْ بَكْرٍ بْن عَبْد الرَّحْمَن قَالَ: سَمِعت أَبِيْ هُرَيْرَةَ يقص وَيَقُوْل فِي قصصه: من أدركه الْفَجْر جنبا فَلَا يصم". قَالَ: فذكرت ذَلِكَ لِعَبْدِ اللهِ بْن الْحَارِث فذكره لأبيه فأَنْكَرَ ذَلِكَ فانطلق عَبْد الرَّحْمَن وانطلقت معه حَتَّى دخلنا عَلَى عَائِشَة وأُمّ سَلَمَةَ فسَأَلَهَا عَبْد الرَّحْمَن عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: فكلمناها قَالَتْ: كَانَّ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصبح جنبا من غَيْر طهر ثُمَّ يَصُوْم فانطلقنا حَتَّى دخلنا عَلَى مَرْوَان فذكر ذَلِكَ لَهُ عَبْد الرَّحْمَن فَقَالَ مروان: عزمت عَلَيْك إِلَّا مَا ذهبت

إِلَى أَبِيْ هُرَيْرَةَ فرددتَ عَلَيْهِ مَا يَقُوْل. قَالَ: فجِئْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ وأَبُوْ بَكْرٍ حاضر ذَلِكَ كله فذكر لَهُ عَبْد الرَّحْمَن. فَقَالَ أَبُوْ هُرَيْرَةَ: أَهُمَا قَالَتاهُ لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هُمَا أَعْلَمُ. ثُمَّ رد أَبُوْ هُرَيْرَةَ ما كَانَ يَقُوْل فِي ذَلِكَ إِلَى الْفَضْل بْن عَبَّاسٍ. قَالَ أَبُوْ هُرَيْرَةَ: سَمِعت ذَلِكَ من الْفَضْل ولم أسمع من النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: فرَجَعَ أَبُوْ هُرَيْرَةَ عما كَانَ يَقُوْل من ذَلِكَ. قَالَ الْبَزَّارُ فِيْ مُسْنَدِهِ: وَلَا نعلم رَوَى أَبُوْ هُرَيْرَةَ عَن الْفَضْل بْن الْعَبَّاس إِلَّا هَذَا الْحَدِيْث الوَاحِد. وفِي لفظ: فَقَالَ أَبُوْ هُرَيْرَةَ: لَا علم لِيْ بذَلِكَ إِنَّمَا أَخْبَرَنِيْ مخبر.[138]" اهـ

فكما رأينا فأبو هريرة يحدث عن صحابي أو مخبر، والله أعلم من هو، ولو لم يتحرك هؤلاء ليسألوا السيدة عائشة لوجدنا من يقول أنه لا يجوز للجنب الصيام! وهذه هي آفة عرض السنة على القرآن والقول باستقلاليتها في الأحكام!

والناظر في كتاب الله تعالى يجد أنه قد بيّن كل أحكام الصيام في آيات متتاليات، فلم يترك حكماً إلا ذكره فيها، فأعلمنا مبطلات الصيام ومتى يجب ومتى يكون غير مكتوبا! ولم نجد فيها أن الجنابة من إتيان النساء بالليل أو الاحتلام بالنهار تبطل الصيام! فعلينا الرجوع إلى كتاب ربنا، ففيه سنة نبينا لو كنا نعلم.

وبهذا القول ننهي حديثنا عن جهود السيدة عائشة في الحفاظ على سنة النبي الكريم، وكيف أنها صححت لعدد كبير من الصحابة الأخطاء التي وقعوا فيها، وحرصت أشد الحرص على المحافظة على دين الله، كما جاء به النبي المصطفى!

---

[138] المرجع السابق، ص. 102.

الخاتمة

بعد هذه الإبحار في حياة السيدة عائشة، نصل إلى نهاية لهذه الرحلة، تلك الرحلة التي لم نرد فيها ولا بها، أن نلم بحياة السيدة عائشة، ولا أن نعرض لجميع المواقف التي مرت بها، فلقد قام الدكتور عبد المنعم الحفني بهذا في كتابه الكبير: "موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر"، والذي جمع فيه فأوعى! فلم يترك شاردة ولا واردة من أقوالها ولا أفعالها إلا وذكرها وعلق عليها!

كما لم نقصد إلى استخراج العبر والعظات من حياتها، وتقديمها كمثال يُحتذى به، فلقد سبقنا إلى ذلك الكثيرون، فأفردوا للحديث عن جوانب حياتها الكتب المتنوعة، مثلما فعل محمد أحمد برانق، فكتب عدة كتب عن السيدة عائشة، يتناول كل كتاب منها جزءً من حياتها، فكتب: عائشة الصبية، وعائشة الحبيبة، وعائشة المبرأة، وعائشة العالمة ... الخ.

وإنما قصدنا من كتابنا هذا تبيان كيف أن التاريخ البشري لا بد أن يعتريه النقص والخلل، وأنه لا يمكن أن يكون مشابهاً بحال للقصص القرآني، ثم وضّحنا ذلك بمثال كبير طويل، وذلك بإبراز ما تعرض له تاريخ هذه السيدة العظيمة لتشويه وتحريف كبيرين، وكيف تَقوّل عليها المرجفون الأقاويل الكثيرة، فأدت هذه الأقاويل والفريّات إلى إيجاد كثير من المطاعن والشبهات، التي ألمّت بها نفسها وبالنبي والدين كله تباعا!

ولم نركز في عرضنا ونقاشنا على السند بقدر ما ركزنا على المتن، واتفاقه مع باقي الروايات أو اختلافه عنها! والمقارنة بين الروايات، والقبول والرد على هذا الأساس. ونرى أننا استطعنا أن نقدم للقارئ الكريم من خلال المقتطفات التي أخذناها من حياتها –والتي شملت أبرز ما اشتهرت به السيدة عائشة!– فلم نترك موقفا اشتهر عنها إلا وعرضنا له وناقشناه!

نرى أننا قدمنا صورة مغايرة للسيدة عائشة، تتفق مع المشتهر السائد وتختلف! ولكنها تتميز عنه في أنها قضت على أشهر الشبهات المتعلقة بها قضاءً، لا يترك للمُشكك أي مجال لإعادة الكلام فيها.

بيّنا كيف أن القول بوجود عداوة قديمة بين السيدة عائشة والإمام علي حديث خرافة، أوجدها بعض المفترين لتبرير خروجها بغير إذن الإمام علي، وليس عليه! ثم عرضنا بعد ذلك للجانب الفكري للسيدة عائشة، فبيّنا كم كانت السيدة عائشة فقيهة، وسبقت بفقهها هذا كثير من الصحابة!

كما بيّنا كم كانت حافظة واعية لما صدر عن النبي الكريم، فتذكرت ما نساه الآخرون! المشهورون بالحفظ! وكم كانت حصناً منيعا محارباً للتحريف الذي يصيب الدين بعمد أو عن غير عمد!

وبيّنا أن الحريص على دينه هذا الحرص، لا يمكن أن يبيع أخراه من أجل دنياه! وأن هذا دليل على بطلان كثير من الروايات التي جاءت عن حياتها قبل وفاة النبي!

بعد هذا كله نقول للقارئ الكريم: إن التاريخ يُقرأ للعبرة والتفكر، ولا يُقرأ للتسلية أو لإثارة الأحقاد! والتاريخ في نهاية المطاف .. ماض قد ولى وانقضى، علينا أن نقرأه لننتفع به في حياتنا، وحتى نبني على ما بناه الأقدمون ونتجنب ما وقع فيه السابقون! لا أن نظل أبد الدهر نمجد بعضهم ونلعن آخرين.

وهكذا نسقط في بئر التاريخ فلا نخرج منها أبدا، ونصبح ممن باع يومه بأمسه! فلا هو ربح الغد ولا هو عاش اليوم!

إن على إخواننا أن يستوعبوا أن التاريخ هو لا محالة ظن، وأنه من الحماقة أن نخسر أنفسنا وإخواننا من أجل ظن .. لا يمكن إصلاحه!

فالحمق كل الحمق أن نُقلب الماضي لنطعن! وإنما الخير كل الخير أن نتفكر فيه لنَصلُح ونُصلح! فلتكن قناعاتنا التاريخية لأنفسنا، وليكن عملنا لإخواننا وأوطاننا وبهذا يُصلح حالنا، فنخرج من أغلال الماضي إلى رحاب المستقبل!

جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه!

كان الفراغ من هذا الكتاب في يوم الجمعة، غرة شهر المحرم من عام واحد وثلاثين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة للنبي الكريم، الموافق الثامن عشر من شهر ديسمبر من عام تسع وألفين بعد ميلاد المسيح.

للتواصل مع الكاتب يُرجى زيارة موقعه الشخصي على الشبكة المعلوماتية:

www.amrallah.com

سرد بأهم المراجع

- القرآن العظيم

- بدر الدين الزركشي

الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، الطبعة الأولى **2001**. تحقيق: الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب. مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- عباس العقاد

الصديقة بنت الصديق، نهضة مصر **2004**.

- زكريا بن خليفة المحرمي

قراءة في جدليات الصراع السياسي بين الصحابة واختلاف المواقف حولها، الطبعة الأولى **2006**، مكتبة الغبيراء. سلطنة عمان

- عبد المنعم الحفني

موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، الطبعة الأولى **2003**، مكتبة مدبولي.

- أصلان عبد السلام حسن

قراءة نقدية في كتب السيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب **1989**.

- محمد بن صامل السلمي

منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، الطبعة الأولى **1988**، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. المنصورة.

- محمد بن عبد الرحمن السخاوي

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تحقيق: فرانز روزنثال، ترجمة التحقيق: الدكتور: صالح أحمد العلي. الطبعة الأولى 1986، مؤسسة الرسالة.

- **علي محمد الصلّابي**

أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الطبعة الأولى للناشر 2004، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

- **الواحدي النيسابوري**

أسباب النزول، تحقيق: أيمن صالح شعبان، الطبعة الرابعة 1998، دار الحديث.

- **عمرو الشاعر**

عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام، الطبعة الأولى 2008، مكتبة النافذة.

- **نبيل فياض**

أم المؤمنين تأكل أولادها، نسخة إليكترونية، إعداد: نائل الحريري.

- **فخر الدين محمد بن عمر الرازي**

تفسير: مفاتيح الغيب، بدون تحقيق، الطبعة الأولى 2000، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **محمد بن جرير الطبري**

جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى 2000، مؤسسة الرسالة.

- **ابن قيم الجوزية**

زاد المعاد في هدي خير العباد، الطبعة السابعة والعشرون، 1994، مؤسسة الرسالة بيروت.

- ابن حجر العسقلاني

فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، دار الفكر.

- محمد بن سعد الزهري

الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى 1968، دار صادر، بيروت.

- يوسف بن عبد الله بن عبد البر

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى 1412هـ، دار الجيل، بيروت.

- أبو محمد بن عبد الملك بن هشام

سيرة ابن هشام، المكتبة القيمة، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- قاسم عبده قاسم

الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف، الطبعة الثانية، بدون تاريخ إصدار.

- عبد الرحمن بن خلدون

مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون الأسكندرية، بدون تحقيق وبدون تاريخ إصدار.

- سالم أحمد محل

المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة العدد **60**، نوفمبر **1997**، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر.

برنامج المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

برنامج الباحث في القرآن الكريم، الإصدار الثاني

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران
* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام
* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟
* السوبرمان بين نيتشه والقرآن
* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون
* قراءة لسور الطعن
* السيدة عائشة والتاريخ المشوه
* قصص القرآن القرآني
* الجن .. الأرباب المختلَقة
* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً
* السلفية .. منهج إسلامي؟
* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة
* رواية خواطرٌ شواذ
* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية
* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست